
عبدالوهاب محمد الزنتاني
حقيقة
معارك الدفاع
عن الجبل الغربي
ضد الغزو الإيطالي
الجزء الأول


حقيقة
معارك الدفاع
عن الجبل الغربي
ضد الغزو الإيطالي

عبدالوهاب محمد الزنتاني

حقيقة معارك الدفاع

عن الجبل الغربي ضد الغزو الإيطالي

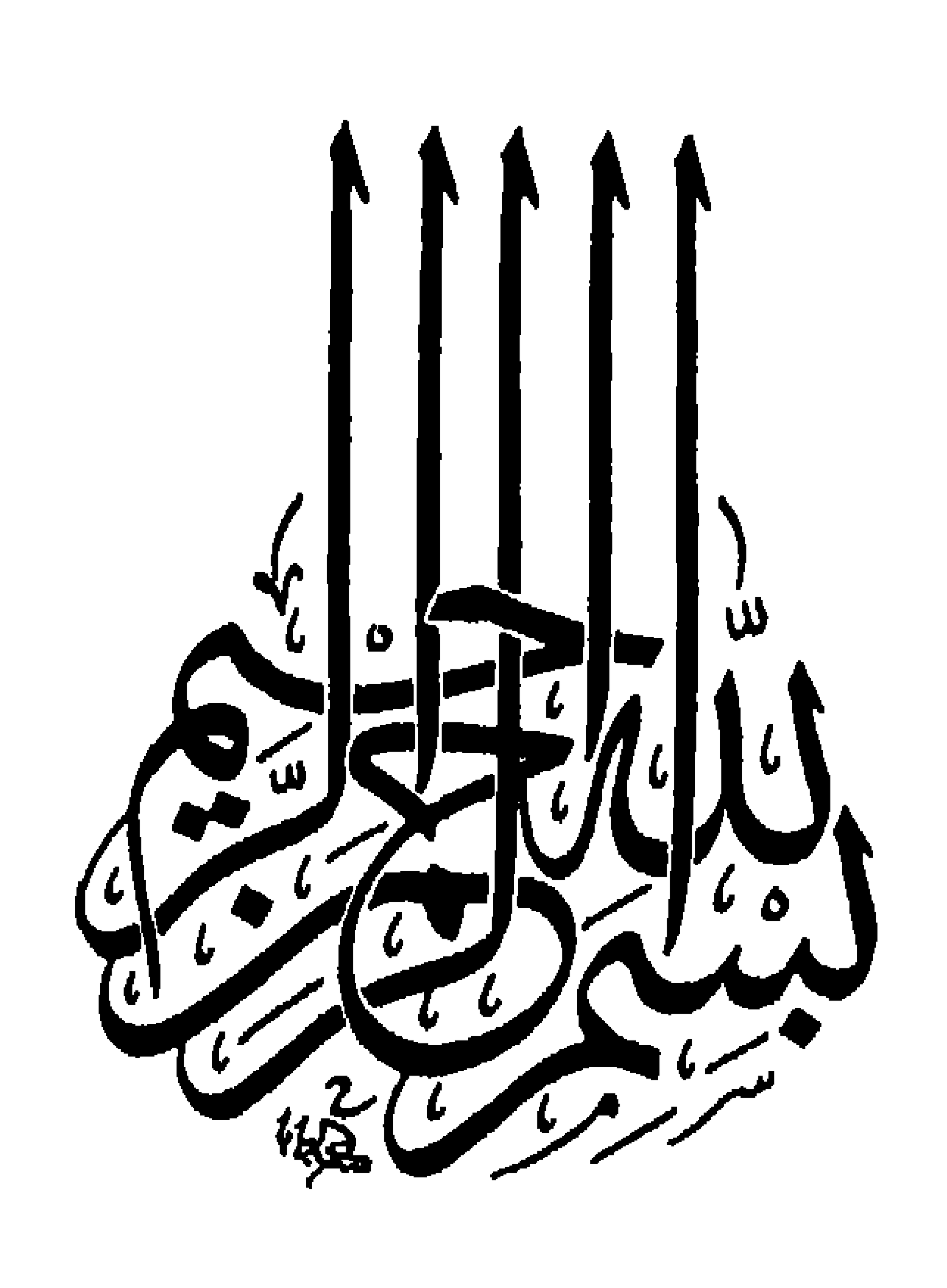
الجزء الأول

1993

نشر مشترك

الدار الجماهيرية
للنشر والتوزيع والاعلان

دار اليوم
للاعلام المحدودة


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾

سورة الحُجُراتْ

وقال تعالى:

﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴾

سورة الاحزاب

صدق الله العظيم

اهـــداء

الى كل المجاهدين :

وقت الحرب بالسلاح من اجل الحق والحرية والوطن

ووقت السلم بالقلم والكلمة الصادقة من أجل الحق والحرية والوطن، والى كل اولئك الجنود المجهولين الذين يسّروا لي فرص زيارة مواقع معارك الجهاد في الجبل الغربي وفي الجفارة، وفي جنوب البلاد وغربها وفي القبلة.

الى هؤلاء الذين فهموا ان الكرامة وطن والحرية جهاد والحياة وقفة عز.

اليهم لانهم عرفوا ان من يكذب في الكلام يكذب في الفهم، وهكذا لم يهتموا بمن لم يفهم التاريخ على حقيقته، وان اغضبهم ما سمعوا من غمط للحق وتجني على الحقيقة واهدار للتاريخ، وبالتالي اساءة لآبائهم وأجدادهم، ولذلك كان اصرارهم على ان اشاهد قبل ان أسمع، والمس قبل ان اكتب .. وهذا ما فعلت، ومن الله ارجو أن أكون قد وضعت بلسما على جراح قلوبهم وان تكون كلماتي المتواضعة قطرات ندى رطب على التراب الذي ارتوى بدماء الاباء والاجداد لكي يخضّر، لانهم صاروا في حياتنا مجداً وفي تاريخنا برهانا على الاصالة والصدق في حب الوطن.

عبد الوهاب محمد الزنتاني

الزنتان، في 23 يوليو 1992م

مقــدمة

(لا تشنقوا التاريخ بحبل وان كان من حرير)

كنت اتمنى ان تكون هناك لجنة مختصة بفحص كل ما يكتب عن التاريخ الوطني بحيث لا يحدث التزوير والتحايل والاساءة، بل والهدم من حاطب ليل، كما حدث في تاريخنا الوطني، مع الاسف الشديد، واذا كنت بهذا الكتاب اريد ان اصحح بعض المغالطات التي جاءت في كتابات البعض فانه ليس في نيتي ولا من اهدافي ان اقلل من قيمة جهاد الليبيين على كل بقعة من تراب الوطن الطاهر، ومن اجل كل ذرة رمل في بلادنا لانني اعرف ان دماء زكية قد اريقت وتضحيات جسام قدمت دون منة ولا تفاخر ولا رغبة في حطام الدنيا، ولكنه الجهاد في سبيل الله والوطن، لا من اجل حفنة مال ولا من اجل عائلة او قبيلة او جاه، وصدق الله العظيم في كتابه الكريم **﴿البلد الطيب يخرج زرعه باذن ربه اما الذي خبث فلا يخرج الا نكداً كذلك نصرّف الآيات لقوم يشكرون﴾**.

وتاريخ بلادنا هو جزء من تاريخ امتنا العربية، هو جهاد في سبيل الحق والوطن والكرامة ضد قوى خارجية غاشمة ولهذا فانه يفقد التوازن والموضوعية اللازمة للتاريخ عندما ينصرف به ضال فيسخره لخدمة مطمع شخصي او

يتردى به حيث يلبسه ثوب قبلي فضفاض، وفقدان التوازن في التاريخ يعني فقدان النسب الشرعي، فاذا كانت اللغة هي حياة الامة فان التاريخ هو شعورها، واذا كان الاستعمار بكل اشكاله قد حرص كل الحرص على ترسيخ الاقليمية والتجزئة في الامة الواحدة، الامة العربية، مثلما فعل الانجليز والفرنسيين والايطاليين، فان دعاة الاقليمية والقبلية ذوي المصالح الانانية والافق المحدود يحرصون على بث الفرقة واشاعة العداوة وتأجيج التنافر بين ابناء الوطن الواحد، وليس هناك معول شر وقرن فتنة كذلك الذي يعمل على اذكاء روح العداء بين الناس عندما يميزهم كاقليات مجاره واغلبيات جائرة بالضرب على وتر الوطنية والقومية الخ .

واذا كنت مضطراً ان اكتب عن منطقة واحدة محددة في تاريخ الجهاد الليبي فانما اقصد ان اضع المياه في مجاريها، ليس بحكم او منطق او غرض شخصي وانما بوقائع التاريخ المكتوب، وفي رأي ان ذلك لا يسيء لاحد، كذلك فانني لا ادعي التاريخ لمرحلة او حقبة او حتى موقعه او معركة لكنني ابحث لادلل على ان المغالطة لا تخدم التاريخ ولا تصنع ابطالاً.

ولقد صدرت العديد من الكتب بمختلف اللغات عن تاريخ ليبيا وجهاد الليبيين من اجل بلادهم وكيانهم ودينهم، وغالباً ما كان اولئك الكتاب يتعاملون مع القضية على انها قضية شعب واذا كانوا يبررون ما قامت به حكوماتهم فانما ذلك امر بديهي ومفهوم، وعلى الرغم من ان مقولة (فرق تسد) كانت هي قاعدة التعامل مع الشعوب للسيطرة عليها فانهم لم ينجحوا كثيرا في تطبيقها، وهذا ما انجر اليه

بعض الكتاب الوطنيين بوعي او بلا وعي فبدأوا يتعاملون مع قضية الجهاد الليبي من منظور ضيق مظلم منفّر ظالم، وهو منظور القبيلة او العشيرة، وربما هي عقدة الدونية المتمثلة في اقلية لم يكن لها دوراً بارزاً فارادوا ان يجعلوها الاساس في كل شيء، وهؤلاء يتصرفون مثل الذي يقف بين حيطان كلها مرايا فلا يرى الا نفسه، كما فعل مؤلف كتاب (معارك الدفاع عن الجبل الغربي) الذي لم يواته الحظ في اخفاء نواياه في تزوير الحقائق وبث الشقاق والفرقة بين الناس حيث اراد ان يعطي ادوار بطولات لغير اهلها ويكون بذلك قد اساء مباشرة لأولئك الذين ارادهم ابطالا مناضلين لانه افقدهم قيمة ادوارهم الحقيقية ومواقفهم الصحيحة في تاريخ الجهاد الليبي عندما نسب اليهم ما لم يكن من عملهم، ولسوف يرى القارىء كيف كان ذلك ادعاء باطلاً اساء به الكاتب لاهله من حيث يدري او لا يدري وعلى الرغم من أنني لا أعرف الصيعان كقبيلة الا انني أعرف أنهم رجال بواسل، وقد شاركوا في الجهاد الوطني وقدموا تضحيات، ولم اجد فيما قرأت عن تاريخ بلادنا انهم تخاذلوا او خانوا قضية بلادهم ولكنهم كقبيلة صغيرة لا يمكن ان يطغى دورهم على بقية القبائل العربية الليبية في منطقة الجبل الغربي،وهي كثيرة، وانا اكرر ان كونهم قبيلة صغيرة فإن ذلك لا يقلل من شأنهم وقدراتهم القتالية في سبيل الوطن، وما كنت اود ان اتعرض للوضع القبلي في المنطقة لولا ان مؤلف كتاب (معارك الدفاع عن الجبل الغربي) ارغمني على ذلك بما أورد من مغالطات، فلقد اعطى قبيلته الدور الابرز وربما الاوحد عندما قال :

«اعود فاقول ان الجبل الغربي كان مصدر الثورات ومعاقلها وحصنها الحصين على مدى التاريخ، فلقد منع

الليبيون في هذا الجبل الزحف الاسباني للدواخل»[1] وتحصن غومه المحمودي ومن معه بهذا الجبل قرابة ربع قرن من الزمان، وثارت قبائل الصيعان بهذا الجبل، او كما تسمى في التاريخ، قبائل نالوت، وقتلوا الحاكم الذي بنالوت).

هكذا اوردها حرفياً، اي ان قبائل الصيعان، بمعنى الجمع، فهذه ليست قبيلة واحدة بل هي قبائل وقد ثارت وقتلت الحاكم بنالوت!!! وان قبائل الصيعان هذه تسمى في التاريخ (قبائل نالوت) ويفهم القارىء من هذا الكلام ان منطقة نالوت كلها صيعان، والصيعان ليسوا قبيلة صغيرة وانما هم قبائل. وبقي ان يعرف القارىء ان منطقة نالوت تمتد من جادو حتى الحدود الدولية التونسية اي الاف الكيلومترات من الارض وتسكنها قبائل كثيرة، وجميع تلك القبائل قامت بادوار في الجهاد الوطني ولكن المؤلف لم يجد في التاريخ الا قبائل الصيعان، اوهكذا اراد، وجدير بالذكر ان المؤلف ينتمي الى قبيلة الصيعان، اذا سمح لنا ان نقول انها قبيلة وليست قبائل، وهناك خلط ومغالطات وتزوير في الاسماء والمواقع والادوار والتواريخ سوف نشير اليها فيما يلي من الكتاب وان كنا اردنا في هذه المقدمة ان نذكّر لنجد العذر فيما ذهبنا اليه، ونحن نعتقد ان الكاتب اذا كان قد اراد تبجيلاً او إثرة لاهله فهو في الحقيقة أساء اليهم، وهذا ينطبق عليه تماما قول الشاعر :

اذا رام كيدا بالصلاة مقيمها   فتاركها الى الله اقرب

ولقد اعتمد المؤلف على روايات نقلها عن اناس قال

(1) كلمة للدواخل، أوردها المؤلف هكذا بينما كان يجب أن يقول (الزحف على او الى الدواخل).

انهم احياء، ويمكننا ان نرد عليه بكلام مخالف تماما لكل رواياته ومن افواه الاحياء الذين شاركوا في النضال الوطني لو اردنا، واذ كانت الغاية من هذا الكتاب تصويب الامور وايضاح الحقائق فاننا سننقل فقرات من كتب تناولت حقبة جهاد الليبيين، فقط لتثبيت التواريخ والمواقع والاحداث وتسمية الاشياء باسمائها، وتاريخ الجهاد الوطني مليء بالبطولات، بطولات من اجل العروبة والاسلام، ولقد كان اجدادنا وآباؤنا عندما يتوجهون الى ملاقاة الاعداء يتمنون الاستشهاد لأنهم على قناعة كاملة بعدالة قضيتهم، وانهم يقاتلون الكفار فاذا قتلوا فسوف يدخلون الجنة مع الشهداء والصديقين، ولذا فان معارك الجوش وقصر القواليش والسلامات والوخيم وبئر الغنم وتارسين والكردون والوديان وسيدي بلال ووادي الكوف وقاهرة والقريات وجليانه وعين زاره وقرقاش وسيدي عبدالله والهواري الخ هي جزء من معارك العرب في القادسية وحطين والقدس ودمياط والمنصورة وعين جالوت وعكه، ثم هي متكررة في حاسي مسعود وعلى جبال الاوراس وبنزرت والقلعة، وفي سيناء والسويس والكرامة وحي كريتر والوادي والجولان، وكما كانت ضد المغول والتتار والحملات الصليبية فهي ضد غراتزياني وبادوليو وموسوليني، وهي ضد جود فري وريتشارد قلب الاسد ودوبيون وبوهمند ولويس السابع وفريدريك بارباروس وفيليب اوغست وبودوين التاسع وجان دي بريان، هي معارك ضد جي موليه وانتوني ايدن وبن غوريون الخ، انها معارك ونضالات الامة العربية، انها سلسلة متصلة مترابطة في كل مكان، وليس هناك من شك في ان جهاد الليبيين مرتبط بجهاد الامة العربية مشرقاً ومغرباً هذه الامة التي كانت وما زالت هدفا ومطمعا

للاستعمار القديم والجديد، وليبيا جزء من الوطن العربي الكبير كما ان الشعب الليبي هو جزء من الشعب العربي اصولا ودماء واعراق، لغة وتاريخ، آمال وأماني.

ولم تكن ايطاليا خلاف غيرها من الدول الاستعمارية عندما خططت لاحتلال ليبيا خلال القرن التاسع عشر، اذ تسابقت دول اوروبا الاستعمارية على اقتطاع اجزاء من بلاد العرب لضمها او استخدامها كسوق لها ومورد للمواد الخام والزراعة، وكانت ايطاليا وقد تأججت في اركانها دعاوى بعث المجد الروماني وصارت تنظر يمنى ويسرى لتتمدد هناوهناك، وقد انتوت التوسع في بلد قريب من شواطئها كبداية، لكنها تأخرت حيث سبقتها دولة استعمارية اخرى هي فرنسا على احتلال تونس سنة 1881م فقد رأت انه لا فرصة لها اسنح من تلك التي تراءت في ليبيا، فهي ايضا بلد قريب يقع على شاطىء البحر الابيض المتوسط من الجنوب الشرقي وهي كذلك تتوفر على ثروات زراعية هائلة (والايطالي مزارع جيد) كما انها مترامية الاطراف ولا بد انها ستعوض ايطاليا عن خسارتها في اريتريا والصومال، تلك البلاد البعيدة والفقيرة التي اصبحت عبء غير محتمل، واذا كانت تركة الرجل المريض قد صارت مباحة فان ابناء روما لا بد ان يكون لهم نصيب في تلك التركة، هذا من جانب، ومن الجانب الآخر فان ليبيا سوف تقع بالضرورة تحت سيطرة ونفوذ واستغلال بلد اوروبي، على اعتبار ان الوطن العربي لا بد ان يقسم وينهب، على ان ايطاليا ربما ارتكبت غلطة الشاطر لانها لم تحسب لليبيين اي حساب واعتقدت ان احتلال هذه البلاد سيكون شبه نزهة بحرية، وهي لا تحتاج الا الى توجيه انذار الى الباب العالي تبلغه فيه انها آتية، ونرى ان انذارها لم يتجاوز في مدته يومين

اثنين، فقد وجهت الانذار يوم 27 سبتمبر سنة 1911م واعلنت الحرب يوم 29 سبتمبر سنة 1911م، واذا كان ذلك الانذار لم يحتاج الى اكثر من يومين فقد تورطت بكل جيوشها واساطيلها في حرب دامية في الجبال والوديان والصحارى دامت عشرون سنة كاملة كان فيها المجاهد الليبي بسلاحه البدائي البسيط يواجه الدبابات والاسلحة الاتوماتيكية الايطالية، وتحولت النزهة الى مغامرة، والمغامرة الى كارثة ومعضلة، لقد امتدت تلك النزهة الدامية من سنة 1911م الى سنة 1931م لم تهنأ فيها ايطاليا لحظة واحدة لكي تتربع على تراب جزء من الوطن العربي، وهي في هذا مثلها مثل بريطانيا وفرنسا والغزاة الآخرين، وربما كانت ايطاليا تريد احتلال ليبيا قبل نهاية القرن التاسع عشر بحيث يتزامن ذلك مع الهجمة الامبريالية الغربية الا ان الخلاف حول الغنائم حال دون ذلك، واذا كانت قد بدأت التهيئة سنة 1881م فقد اقدمت على عملها العدواني سنة 1911م وكانت فرنسا قد احتلت الجزائر سنة 1830م وتونس سنة 1881م، واحتلت بريطانيا عدن سنة 1838م ومصر سنة 1882م وكذلك السودان، وبعد ان غزت ايطاليا ليبيا مباشرة احتلت فرنسا المغرب سنة 1912م، وكانت قمة الهجمة الاستعمارية الغربية على بلاد العرب تلك الاتفاقية التي عرفت باسمي وزيرا خارجية بريطانيا وفرنسا (سايكس – بيكو) سنة 1918م، ولهذا فان قضية الجهاد الليبي يجب ان تكون دائما مرتبطة بجهاد الامة العربية كلها، واذا كان الغرب قد قسم ووزع وسلخ وفرق كيفما اراد في المشرق العربي فانه ايضاً كان مقررا لليبيا ان تمزق بحيث تكون ثلاثة دول، هي برقة وطرابلس وفزان، ولقد تكرر ما حدث تماما قبل نهاية القرن التاسع عشر، في فترة النصف

الاول من القـرن العـشـرين، فلقـد كـانت دول اوروبا تتـوزع النفوذ والمصالح فيما بينها قبل وبعد الحرب العالمية الاولى، وحـدث ان دخل عنصـر جـديد غـيّر مـخطط الاسـتـعـمـار الاوروبي وذلك عندما اصبحت الولايات المتحدة الامريكية طرفا رئيسيا في الصراع الدولي وصاحبة مصلحة فيما يحدث ويجري في العالم، جاء الاستعمار الجديد وتقرر ان تكون ليبيا الدولة العازلة بين المغرب العربي والمشرق العربي اذ رأوا انها بلد مترامي الاطراف قليل السكان كثير الموارد اذا نمت فيه تجربة الاقليمية كان مفيدا، وهذا ما حدث فعلا ذلك ان تجربة تقسيم البلد الواحد بعد الحرب العالمية الثانية التي مارستـها فرنسا بالذات قد فشلت او هي ربما جاءت بعكس ما كان مطلوبا، ونلاحظ ان الوطن العربي الذي يمتد من الخليج العربي شرقا الى المحيط الاطلسي غربا وجبال طوروس شمالا والسودان والصومال جنوبا قد بلغ تعداد سكانه الآن سنة 1992م اكثـر من مـائتي مليـون مـواطن تتـوزعه احـدى وعشـرون دولة بعد ان اتحد شمـال وجنوب اليمن، وفي دوله وضع غريب، هنا غنى فاحش وبطر مكروه، وهناك فقر مدقع وضنك قاتل، هنا دولة تعداد سكانها ستون مليـونا وهناك اخرى عـدد سكانهـا مـائة الف نسمـة، وفي المشرق العربي ثلاثة عشرة دولة على مساحة ارض مقدارها ثلاثة مـلايين وسبع مـائة وعشـرة ونيف كيلومـترا وسكانـها حوالى 50 مليون نسمة، كما في المغرب العربي ابتداء من مـصـر هناك تسع دول على ارض مـسـاحـتـهـا تسع مليـون وتسعمائة وعشرون كيلومترا يسكنها قرابة مائة وخمسـون مليون نسمة.

ونحن نورد هذا الكلام فقط لندلل على انه لا دخل لنا كعرب فيما حدث وان تقسيم بلادنا وانشاء هذه الدول انما

هو جزء من عمل الاستعمار الاوروبي الامريكي، ولهذا فان الجهاد في هذا الجزء هو جهاد من اجل الكل، واذا كانت الدويلات التي اشرنا اليها قد قامت بارادةالاستعمار ولخدمته فان من يتناول احداث التاريخ الوطني على اساس اقليمي مغرض ومشوه، انما هو بالضرورة يخدم قوى اجنبية، اضافة الى تجنيه على التاريخ، ولا بد ان نتذكر ان العرب، وبشكل سريع وعقلاني، يجب ان يبحثوا لانفسهم عن مكان في النظام العالمي الجديد، فلقد تغير العالم، واصبح يحتكم الى قطب واحد شئنا ام كرهنا، على اننا ندرك ان هذا القطب الواحد لا يمكن ان يبقى وحيدا الى الابد، اذ ان طبيعة العلاقات الدولية بل ربما طبيعة الحياة نفسها تقضي بوجود اقطاب آخرين، والى ان يحدث ذلك يلزم ان يكون للعرب مكان ما في وضع ما، اذ سيظهر قريبا نظام الوكيل الاقليمي للقطب الواحد وليس من الجائز ان نكون في وضع وكيل الوكيل.

ربما لا يستصاغ هذا الذي نسوقه الآن، ولكن لا بد من القاء الضوء على مجريات الامور في العالم عندما نتحدث عن التاريخ، لانه دليل الامة، واذا كان هذا الدليل مزورا فان الطريق لا يمكن ان يكون واضحا.

ولربما صدق ليرمانتوف عندما قال في روايته (بطل من هذا الزمان ان الغرور هو الرافعة التي كان يبحث عنها ارخميدس ليرفع العالم).

والله ولي التوفيق وبه نستعين.

عبد الوهاب محمد الزنتاني

الزنتان، في 23 يوليو 1992م

1

الفصل الأول

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً
ويأتيك بالأخبار من لم تزود

قبل ان نبدأ في مناقشة احداث التاريخ لا بد ان نسأل، ترى ما هو التاريخ؟؟؟ يقول العلامة، الفيلسوف ابن خلدون:

اعلم ان فن التاريخ عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية، اذ هو يوقفنا على احوال الماضين من الامم في اخلاقهم والانبياء في سيرهم والملوك في دولهم وسياستهم حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في احوال الدين والدنيا فهو محتاج الى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما الى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط لأن الاخباراذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكّم اصول وقواعد السياسة وطبيعة العمران والاحوال في الاجتماع الانساني ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق، وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وائمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا او سمينا، لم يعرضوها على اصولها ولا قاسوها باشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الاخبار، فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط ولا سيما في احصاء الاعداد من الاموال والعساكر اذا عرضت في الحكايات اذ هي مظنة الكذب ومطية الهدر، ولا بد من ردها الى الاصول وعرضها على القواعد.. انتهى.

هذا ما اورده العلامة الفيلسوف العربي ابن خلدون عن التاريخ فلا يجوز ان يكون نقلا بحتا بحيث يحدث الضلال عن الحق وانسياقا الى الكذب والهذر.

وفي تاريخ العرب قبل الاسلام يقول الدكتور جواد علي:

الرأي عندي ان التاريخ تحليل ووصف لما وقع ويقع، وعلى المؤرخ ان يجهد نفسه كل الاجهاد للاحاطة به،.بالتفتيش عن كل ما ورد عنه ومناقشة ذلك مناقشة

تمحيص ونقد عميقين، ثم تدوين ما يتوصل اليه بجده واجتهاده تدوينا صادقا على نحو ما ظهر له وما شعر به متجنبا ابداء الاحكام والاراء الشخصية القاطعة على قدر الاستطاعة.. انتهى.

ولست انا في مكان من قرر ان كل ذلك الذي سطر في كتابات تاريخية تنوعت مصادرها وافكار وفلسفات كتابها هي الحقيقة بعينها، لا، لست من ذلك الاتجاه لانني اعرف عن يقين ان السياق الفكري والاتجاه الفلسفي والوضع الاجتماعي والاقتصادي يحكم الاطار الذي يرسمه كاتب التاريخ لنفسه، ان لم يكن غالبا فانه يحدث احيانا، وانما اريد فقط ان اسأل، لماذا يحرف الكاتب ويسقط ويحذف احداث تاريخية دون دليل او برهان كأن يغير تاريخ الحدث ويغير الاسماء والمواقع؟؟

ولا مندوحة هنا من القول انه تزوير وجرم لا يغتفر، واذا ما قيل انها اعادة كتابة التاريخ فلا بد ان نسأل، كيف ولماذا ومن ذا الذي يفعل ذلك؟؟؟

ثم نسأل مرة ثانية، ما هو الموقف الفكري والاجتماعي والسياسي والفلسفي والثقافي لذاك الذي يعيد كتابة التاريخ؟؟ اي تاريخ.

وقبل الاجابة ها انذا اقدم انموذجا لما اقصد رغبة في التحديد قبل التعميم. لقد ورد في تفاصيل تاريخنا الوطني المتعلق بالجهاد في اكثر من كتاب ولاكثر من كاتب معلومات كثيرة وهي التي خالفها وحرفها مؤلف (كتاب معارك الدفاع عن الجبل الغربي) ليقحم على التاريخ ما ليس فيه، وسأنقل هنا احداث ثلاث معارك ليلاحظ القارىء الاختلاق الذي جاء به هذا المؤلف.

يقول رودولفو غراتزياني في كتابه (نحو فزان)ترجمة طه فوزي عن تلك المعارك ما يلي:

(1) معركة الوخيم :

3 يونيو 1922م، في صباح اليوم الثالث في الوخيم قبل تنفيذ هذه التدابير(1) هوجمت جماعات الخيالة (السباهيس) التي توجهت لاستكشاف مواقع

(1) المقصود، تدابير الزحف على المنطقة وسنوردها تالياً.

الاعداء وطوقتها قوات كثيرة العدد ولكن امكنها ان تتخلص من هذا الحصار بعد جهد وعناء شديدين وبعد ان فقدت ضابطين من ضباطها الثلاثة وكثيرا من الجنود فضلا عن عدد من الخيول، كما فوجيء ما يقرب من مائة من رجال (خرببيش) وهم يبحثون عن الماء في الجهات القريبة من المعسكروذبحوا في ذلك اليوم عن آخرهم بعد ان فقدوا كل اسلحتهم وقد قتل فكيني ثلاثين منهم بيده، ولكن الموقف الحرج قد تحسن في الايام التالية بفضل تراجع الفصائل التي كانت قد ارسلت الى الحمادة الحمراء واخراج الاتربة من الآبار التي بدأت تفيض بالماء وافادت منها جميع الوحدات بما فيها الفصائل التي بقيت في (سواني الكردي) ولكن ريح القبلى اشتد هبوبها اشتدادا عظيما منقطع النظير في الخمسة ايام التالية وكانت تخنق بدواماتها الرملية العالية الرجال والدواب وكانت ساريات المحطات اللاسلكية على مدى خمسة ايام (من يوم 3 الى يوم 8) لا يمكن رفعها الى اعلى وكان يبدو ان الطبيعة تعترض بقوتها الغاشمة ارادة جماعة من الرجال الابطال كانوا يريدون ان ينتهكوا اسرارها، وكانت تظهر هناك بعيدا بين السحب الرملية جوانب الجبل (الوعرة السوداء) ذلك الحصن المنيع الذي كان يبدو انه لا يمكن الوصول اليه او التغلب عليه، وكانت واحة الجوش تبدو من بعيد جهة الغرب في ذلك الافق الداكن وقت الاصيل، وعندما تهدأ الريح كأنها غادة فتانة تسبى العقول وهي ملأى بالنخيل والحياة الجارية، كانت تلك الايام ايام قلق وجزع ولا يمكن ان تنسى على مر الايام وكر الزمن، ولكن الارادة القوية التي لا تتزعزع تتغلب على جميع الشدائد.

ولقد شجعت الظروف السيئة التي احاطت بالالاي زعيم الثوار الحاج محمد فكيني فكتب الى عدة خطابات يطلب مني فيها بان اعيد البربر الى المنطقة الساحلية وبعد ذلك اتحدث معه في معسكره وهكذا اتاح لي الفرصة للاستفادة من الوقت حتى تصل كتيبة المدد وذلك بفضل المفاوضات التمهيدية والاخذ والرد.

وقد اجبته فعلا بان البربريجب ان يصعدوا بسلام بامر الحكومة الى جبلهم الذي طردهم منه جبروت العرب وغطرستهم، وان اي انسان يعترض سبيل زحف جنود الحكومة التي لها السيادة على كل بلاد طرابلس الغرب لا بد من اعتباره

لهذا السبب مذنبا ومتمردا عاصيا وما عليه الا ان يخلي الطريق ويسحب (محلاته) اذا لم يرد ان يحل به الدمار والخراب، وقد اجاب الزعيم على قولي بأن جمع (محلاته) في صباح اليوم التالي امام معسكري وردا عليه قام رجال القوات الجوية بالقاء القنابل على هذه المحلات وضربتها ضرباشديدا في اليوم التالي وقد وصفني في احتجاجاته باني لست بالرجل السياسي لانني اتبعت الخطابات بالقنابل والقنابل بالخطابات، وقد رددت عليه بخطاب اشرت فيه الى استفزازه لي باحضار (محلاته) امام معسكري واثناء ذلك الاخذ والرد تقدمت الكتيبة الليبية السادسة من طرابلس الى زواره عن طريق السكة الحديدية وثم زحفت سريعا الى (بئر الحمراء) حيث تلقت امرا بالبقاء في الانتظار، كذلك تقدمت من (رقدالين) فرقة الهجانة التي كانت عليها ان تقوم بواجب البقاء لحراسة المعسكر في (سواني الكردي) اثناء زحف الالاي على الجوش.

وقد عملت القوات الجوية من زواره وسط ريح صرصر عاتيه لنقل القنابل وايداعها في المعسكر.

وهكذا ارتفعت روح الجيوش المعنوية ارتفاعا كبيرا واستعدت كل النفوس وسط عذاب الطبيعة والاحوال الجوية للمحاولة الحاسمة، اما الاي (بئر الغنم) فانه بسبب نقص الماء كان اضطر الى العودة الى الزاوية قبل ان تبدأ حركتنا، وكان ان الرجال المسلحين الذين يواجهون الالاي لن يستطيعوا بلوغ (محلات) محمد فكيني للعمل على شد ازرها في هذه الاوقات، وعلى كل حال فانه اذا وقع هذا فلن يكون هناك ما يمنعنا او يعوق زحفنا الذي يجب ان يضع حدا لموقف من مواقف التوتر بقي اكثر مما يجب، وفي ليلة 12 يونيو وصلت الى (سواني الكردي) الكتيبة الليبية السادسة بقيادة الرائد (مارجينوتي) وقد تلا ذلك مباشرة الزحف على الجوش، وكان امامي طريقان، اما ان اتجه مباشرة الى الوخيم حيث كان العدو يرابط في اماكن اعددها من قبل لسد مداخل (جادو) في طريق (شكشوك)، او اتجه مباشرة الى هذه الواحة عن طريق (عين الجديدة) ولقد وقع اختياري على هذا الحل الاخير الذي كان يسمح لي بالبدء في العمل ويضطر الخصم لتغيير موقفه وكان من الممكن ان ينتج عن هذا في مقابل ذلك ان اتلقى هجوما على جناحي الايسر وهذا ما حدث.

(2) معركة الجوش 12 يونيو 1922م.

حوالي الساعة الثامنة والنصف هاجمتني وحدات قوية من وحدات العدو كانت تتلقى على الدوام امدادات من المحلات التي كانت تأتي من (الوخيم) وكانت هذه كلها من (الزنتان) (والرجبان) (والحرابة) (والصيعان) وغيرها (قوامها 2500 بندقية) وكلهم من الرجال المدربين على الحروب والذين كانوا يتفاخرون بانتصاراتهم علينا التي احرزوها في سنة 1915م.

وسرعان ما استعرت نيران القتال الحامية حول الالاي الذي كان يزحف وهو يتبع نظام التشكيلات العسكرية القديمة (المربعات) ويضم عددا كبيرا من الحراس لانه كان يسير في ارض منبسطة مكشوفة.

ولقد تدخل رجال القوات الجوية إلذين كانت طائراتهم جاثمة في معسكر اعد لها في (سواني الكردي) حيث وقفت لحراستها قوة الهجانة وكانوا يحضرون القنابل ويعودون الى العمل دون توقف وهم يلقون معها ايضا الذعر والهلع في صفوف الاعداء، وكانت الكتيبة الليبية الاولى تصد هجوم الاعداء على ميسرتنا وتضعف حماسهم بينما كانت الكتيبة السادسة في الجهة اليمنى والكتيبة الاريترية الرابعة تصد هجمات قام بها العدو على مؤخرة الالاي، وبثلاث هجمات قمنا بها احتللنا (العين الجديدة) التي ضمنت لنا الحصول على الماء اللازم لنا، وبهجومين آخرين احتللناواحة (الجوش) بينما كان العدو يولي الادبار وينسحب الى (جادو) عن طريق شكشوك تتبعه جماعة الخيالة (السباهيس) في غير هواده.

وفي الساعة الواحدة بعد الظهر رفعنا فوق القلعة (الجوش) القديمة رايتنا الوطنية، وكان الذي قام برفعها الرئيس (جيزموندي) من ضباط الكتيبة الليبية الاولى الذي قد انزلها وطواها في نفس هذا المكان سنة 1915م وكان هذا عملا رمزيا علقنا عليه آمالا كبارا وتفاءلنا به.

ولقد تحمل الالاي خسائر فادحة في الضباط والجنود، وكان غرضه الواضح من ذلك ان يسد ممراته في وجوهنا، وكانت هذه الممرات اربعة من الشرق الى الغرب بين (جادو) و(الجوش) وهي ممر شكشوك، وممر تمزده وممر الندوة وممر السلامات، وقد بدأت احس بالعذاب الناتج عن اتخاذ القرارات السريعة اذ

انه كان من اللازم ان نستثمر هذا النجاح على وجه السرعة ونصعد الى الجبل بدورنا لنصد مناورات العدو، ومع ذلك فلم تكن مسألة ايجاد مساكن للجنود مسألة هينة لأن الالاي لم يكن لديه من الأقوات الا ما يكفي لمدة عشرة ايام بعد ان قطع مرحلة تبلغ 150 كيلومترا وهو مكشوف من جناحه الايسر.

وعندما توغل في المضايق المؤدية الى الهضبة اصبح خط السير يزداد صعوبة وخطرا، وفضلا عن هذا فان كل جموع الثوار الذين انهزموا في الجوش قد صعدوا فوق الجبل باسلحتهم واصبح بامكانهم الدفاع عن الممرات بقذف الاحجار نظرا لوعورتها الكبيرة وصعوبة سلوكها، وكان الزعماء الوطنييون المحليون بمن فيهم (خربيش) يستبعدون ان يستطيع العدو في الحال جمع شمله وكانوا يميلون الى البقاء في (الجوش) في الانتظار لمدة بضعة ايام.

ومن العبث ان يستمع القائد الى اراء القواد الذين تحت امرته او نصائحهم وارشاداتهم وانني حتى اذا ما استمعت لهم فانه يكون من الصعب عليّ بعد ذاك ان اقر ما اراه وما يخطر ببالي في حدود المسؤولية الخطيرة التي تقع على كاهلي اذ ان تولي القيادة معناه البث واصدار القرار وهذه حكمة قديمة ترن في ذهني كدق المطارق.

وعلى مسافة ليست بالبعيدة كان خط الجبل الوعر الذي يقوم كأنه حصن عجيب لا يمكن انتهاكه، كان هذا هذا الخط يقول لي بلغته الصامتة ان البقاء على سفحه معناه الهزيمة وليست السيطرة ويجب الاسراع بالصعود وبانه من العبث ايضا انتظار الاوامر والتصريحات من طرابلس، وفي مثل هذه الحالات يجب ان يبث في الامر من هو في مكان المعركة، وهذه الحكمة القديمة يمكن تطبيقها في الحروب الاستعمارية بوجه خاص، ارتقاء الجبل:

انقضت ليلة 13 بين اناشيد النصر التي كانت تنشدها الجنود اثناء اجتماعهم في ساعات راحتهم في الخيام وفي التفكير في الاعمال التي كان يجب عليهم القيام بها،وقد قاموا في فجر يوم 14 بعد ان تلقوا الاوامر الآتية:

يقوم الرئيس (كوري) بالتحرك في المساء مع الجماعات الخيالة (السباهيس) التي تحت تصرفه ومع جميع رجال نالوت المسلحين للتوجه الى

(كاباو) عن طريق (تيجي) واحتلال المركز الهام من مراكز الجبل الغربي، وكان هؤلاء الخيرون يحملون مايقرب من ثمانمائة بندقية وكانوا منذ بضعة ايام تابعين لزعيم خائن لئيم، وقد تولى قيادتهم الآن ضابط ايطالي يقوم على حراسته مائة فارس لا غير من الموثوق بهم وكان يحدوه الايمان والحظ..

وتقوم جماعة البربر غير النظاميين بقيادة (الكافيلير، يوسف خربيش) واشراف الرئيس (جيراردي) بالتحرك في ذلك المساء نحو السلامات واحتلالها فجأة مع تجنب المرور من الطريق غير المأمون وسلوك الطريق المأمونة بالمشاة دون غيرهم على ان يكون واجبهم هو وضع مدخل جبل (السلامات) تحت حماية الالاي النظامي الذي يتبعهم في الوقت المناسب.

وقد تمت الحركات التي صدرت الاوامر بها في سرعة مدهشة وقام الرئيس (كورو) فعلا باحتلال (كاباو) في الساعة العاشرة والنصف من مساء يوم 16 بعد ان تغلب على مقاومات ضعيفة من جانب الثوار بينما انقضت جماعات خربيش البربرية فجأة في صباح يوم 15 على (السلامات) وكان من اللازم الآن التقدم نحو (جادو) شرقا وصوب (نالوت) غربا، ولقد كان تحقيق اول الهدفين اكثر استعجالا للموقف التكتيكي ولذلك اتجه اليه الجنود النظاميون.

وفي صباح يوم 17 كنا نصعد الجبل الطرابلسي للمرة الاولى منذ سنة 1915م عن طريق ممر (السلامات) بالالاي الذي كان يتألف من الكتيبة الاريترية الرابعة والكتيبة الليبية الاولى وجماعات الخيالة (السباهيس) وقسم من مدفعية البطارية الثانية بعد ان تركنا في واحة (الجوش) الكتيبة الليبية السادسة لحماية القاعدة، وليس في مقدوري ان اصف التأثر الذي كان يصل الى اقصى مداه ويضغط على حلوق الشيوخ من الجنود ويسيل مدامعهم، اولئك الجنود الذين جعلتهم الحرب العظمى جامدين قساة القلوب عندما شاهدوا اعلامنا المجيدة ذات الماضي العظيم ترتقي مسالك (السلامات) وتختفي فوق قمم الجبال وترفرف في الهواء بين تهليل الوطنيين وزغاريد النساء بعدان غابت من تلك الجبال طوال سنوات العار والهوان.

ولما بحثت الموقف على الطبيعة رأيت انه يكفي ان اترك كتيبة اريترية وهي

الكتيبة الرابعة لمساعدة جماعة البربر فضلا عن قسم من المدفعية وخمسين رجلا من (السباهيس) وكان يجب على الالاي باكمله بقيادة الرائد (تراكيا) ان يتجه في يوم 19 الى (جادو) ولقد كان من الممكن تزويده بمؤونة خمسة ايام لا غير وقد بقيت مثل هذه المؤن في واحة (الجوش) للجيوش الباقية كما قامت احدى القوافل بالزحف من (زواره) ومعها مؤن تكفيها لمدة 15 يوما وكان حل الازمة متوقف على وصوله او عدمه ان لم يكن نجاح العملية باسرها وكان من الممكن ان يبدو كل هذا وليد الصدفة ولكنه كان دون شك عملا جريئا اقتضته ضرورة الاستفادة باسرع ما يمكن من ذلك النجاح التكتيكي الذي أحرزناه في موقع (الجوش) الاستراتيجي حتى اذا سلمنا بان الجيوش الزاحفة على (جادو) قد استطاعت ان تجد ما تعيش عليه في بلاد الرجبان والزنتان التي لا بد ان يكون العدو قد اخلاه، وهذا ما حدث بالفعل.

(3) معركة السلامات (18 يونيو 1922م)

على ان محلات الثوار التي كان قد تم تشكيلها من جديد على وجه السرعة في (جادو) بعد تشتيت شملها في (الجوش) والتي كانت قد اندفعت في زحف سريع نحو (السلامات) لحصار هذا المضيق الذي وجدته محتلا، قامت في فجر يوم 18 بهجوم عنيف على مواقعنا وقد استمرت المعركة حتى الساعة الرابعة من الظهر وانتهت بانكسار العدو وتشتت شمله.

احتلال (جادو) ونتائجه يوم 19 يونيو 1922م).

شنق خليفة بن عسكر. بدأ الرائد (تراكيا) دون تأخير في احتلال بلدة (جادو) وتعقب العدو طوال الليل، وفي صباح يوم 19 احتل بلدة (جادو) وهنا ايضا رفع رايتنا فوق قلعتها القديمة بين تهليل البربر وغبطة الجنود، ولقد كان اعادة احتلال هذا المركز ومركز (كاباو) قد نتج عنه نزوح جميع اهالي الرجبان والزنتان الى القبلة فضلا عن بعض جماعات اخرى كما ادى الى تسليم الاسلحة والى استسلام جميع اهالي الجبل العرب من (جادو) الى (نالوت) وقد تم احتلال هذه البلدة الاخير على يد الرئيس (كورو) في الساعة الحادية عشرة من يوم 6

يوليو ورفعنا فوق قلعتها البربرية القديمة الراية الايطاليةمن جديد بعد ان قام خليفة بن عسكر مرتين بالحاق الاهانة والعار بها، ذلك الرجل الذي شنق بعد ذلك بقليل في الزاوية، وكان هناك في طرابلس عدد من الايطاليين الوطنيين قد جرؤا اثناء التحقيق على رفع صوتهم ضد عدم شرعية تهمة الخيانة العسكرية بسبب اخلاء الوطية وربما كانوا يتوقعون بهذه الطريقة الحكم بالبراءة عن الجرائم السياسية القديمة منها والحديثة.

على هذا النحو تم الاستيلاء ثانية على الجبل الغربي كله، من (جادو) الى (نالوت) في مدى شهر ونصف بفضل نفر قليل من الجنود الشجعان البواسل تدفعهم الجرأة والاقدام ويحركهم ايمان ثابت في نهضة الوطن المنتصر، وهكذا كنت متفقا تمام الاتفاق مع فكرة الحكومة، وكان من شأن الايام التي تلت الاحتلال ان اعطت في تلك الاثناء الاحساس الدقيق بكبر ما كان لضربات (الوخيم) و (الجوش) و (السلامات) من اثر في انكسار قوات فكيني وهزيمته.

وبعد ان قامت الكتيبة الاريترية الرابعة بضربات مستمرة في بلاد الرجبان والزنتان استطاعت ان تدرك في الواقع كيف اصبحت هذه البلاد خاوية على عروشها وقد اتفقت جميع المعلومات التي وردت تدريجيا على التأكيد بان فكيني انسحب الى مزده وان قبائله قد انتشرت بين (بئر علاق) و (بئر الكلاب) و (بئر سانية الجديدة) في القبلة، وكانت الخسائر التي اصيب بها في الاعيان والاقارب والرجال المسلحين والمواشي فادحة للغاية، ويؤكدون ايضا ان من يوم واقعة (الوخيم) ٣ يونيو بدأ اهالي الزنتان والرجبان في الفرار بمنتهى السرعة نحو القبلة بعد ان استبد بهم الفزع والذعر الشديدان، وان آلافا من المواشي قد ذبحت بسبب ما اصابها من العطش، ونظرا لندرة التموينات التي زادت قلتها ايضا بعد المعارك الي وقعت وللصعوبات المالية يمكن القول والاستنتاج ان احوال هذا الزعيم قد اصبحت سيئة جدا كما دلت على ذلك عبارتان متميزتان احداهما نطق بها فمه والاخرى وجدت مكتوبة على جدران بيته في (تارديه) اذ قال ما نصه، انه منذ الان قد فقد كل شيء ولم يبقى سوى الانتقام، كما انه قد وجدت في منزله مكتوبة على الجدار هذه العبارة البائسة التي لها مغزاها وهي (من هذه اللحظة وصلت معونة

الله الى اعدائنا) ولذلك لم يبقى امامنا الا المساعدات التي يمكن ان تأتي من الشرق، وقد تأكد ان اناسا من يفرن وبئر الغنم وككله والرياينه وجانب من اهالي الصيعان ممن انضموا الى الزنتان والرجبان من بقايا اهالي (الوخيم) و (الجوش) قد حاربوا في السلامات كما تأكد ايضا ان خالد القرقني كان موجودا على مقربة من (جادو) عندما تم احتلال هذه المدينة كان هناك ايضا الزعيمين (تامسكت) والشيخ سوف وجنودهما النظاميين ومعهم مدافع ومتراليوزات وانهم قد اخذوا طريق الشرق بعد احتلال جادو وقد دل على انه كانت هناك تجمعات من اهالي الشرق في اتجاه (جادو) تقوم بسد الممرات الجبلية لمنعنا من ارتقاء الهضبة وعزلنا عن الساحل وكان عزمنا على التقدم الى الامام قد منع تحقيق هذا العمل الخطير الذي كان من الممكن ان يعمل على احباط اغراضنا الحربية احباطا تاما لو اقتصرنا على احتلال (الجوش) دون غيرها.

كانت النتائج العاجلة لانكسار العدو واحتلال (جادو) هي :

(1) قرار اهالي الصيعان والحرابه بالاستسلام النهائي وتسليم اسلحتهم بعد تردد طويل .
(2) تعجيل عائلات نالوت وفساطو والتي استطاعت في الايام القلائل ان تطمئن الينا بالعودة زرافات ووحدانا من الوطية الى اقاليم كاباو واجادو.
(3) امكان الاتصال عن كثب باهالي يفرن والتأثير عليهم سياسياً وفعلا وصلت الى الحكومة من كل مكان تأكيدات من الاهالي بالاخلاص لها (الرياينه وقصر الحجيرة والاصابعة والمشاشي واولاد بوسيف وغيرهم) .
(4) مراقبة الحدود التونسية ومن ثم منع التهريب حتى سفح الجبل.
(5) تثبيت سلطاتنا وزيادة احترام الاهالي الوطنيين للحكومة.
(6) ازدياد المزايا الاخرى ذات الصفة العامة تبعا للموقف في الشرق ومن بين هذه المزايا ايضا امكان التقدم نحو يفرن وغريان متى وكيف ارادت الحكومة ذلك وقررته.

انتهى ما ورد في مذكرات الجنرال ادولفو غراتزياني (ترجمة طه فوزي والتي صدرت بعنوان نحو فزان).

ولقد نقلت هذا الجزء من المذكرات كما هي دون اي تصرف حتى في الاسلوب لانني اريد ان ابين للقارئ مدى التزوير والتحريف الذي احدثه مؤلف كتاب (معارك الدفاع عن الجبل الغربي) ولست اعتقد ان غراتزياني كان منحازا لقبيلة دون اخرى، فلقد كان همه الوحيد احتلال ليبيا وتحقيق مطامح ايطاليا والقضاء على الجهاد الليبي بكسر شوكة المقاومة الوطنية، واذا كنت قد نقلت هذا الجزء فانما ذلك بداية للمقارنة، وقبل ان اعلق او اقارن اود ان انقل ما كتبه مؤلف كتاب (معارك الدفاع عن الجبل الغربي) والمتصل بالمعارك الثلاث، وهو كما يلي:

(1) معركة الوخيم 3 يونيو 1922م .

استقر الزنتان والرجبان ومن معهم من السبعة والغنايمه والقنافيد والفياصله وبعض السلامات وبعض اولاد شبل منهم الشيخ محمد بن احمد (بوادي الوخيم) الذي يبعد عن قرية الجوش بحوالي 8 كيلومترات شرقا وكان هذا الوادي به غدير كبير ويمكن حفر (التمادات) به ويمكنه ان يسقي مجموعات كبيرة من البشر والحيوانات .

وبناء على استشارة يوسف خربيش امر قرسياني قوات المرتزقة، مع الاسف من الليبيين وجلهم من اهالي يفرن وفساطو، بالزحف للاستيلاء على مورد المياه بوادي الوخيم فتقدم 140 مسلحا تدعمهم فرقة الفرسان حوالى 100 مئه، واستطاعوا عند فجر يوم 3 يونيو ان يستولوا على المياه في وادي الوخيم، وتقهقر المجاهدون في غير نظام نحو المرتفعات التي تقع شرقي عين السوداء (وبوادي غدو) اذ ان المجاهدين فوجئوا بالهجوم، وارسل الصريخ الى الجوش حيث تقيم جماعة الصيعان والحرابة واولاد طالب وعند الضحى قدم 60 فارسا من الصيعان والحرابة، 30 من الصيعان، 25 من الحرابة، وكانت الاوامر المعطاة للفرسان السبايس الايطالية ان الجبهة الغربية لا تتبادلوا معها النار لان الصيعان والحرابة لا يريدون ضرب الطليان، غير ان الكوكبة الصغيرة سرعان ما اقتحمت المعقل واشتبكت مع فرسان العدو في معركة مختلطة استعمل فيها الضرب باخمص البنادق.

وكان المدير نصر بن الحاج على رأس المهاجمين، وظن الزنتان والرجبان

عندما اشتبك الصيعان والحرابة واولاد طالب بالطليان ان المجموعة انضمت للعدو ولكنهم تراجعوا عندما شاهدوا الاعداء يتساقطون واصوات الرصاص مكثفة وبدأ بيادة العدو يرفعون بنادقهم علامة التسليم، واستمرت مطاردة خيالة العدو حتى مشارف مخيمهم بسواني الكردي حيث تقدمت الفرق الاريترية لتحمي هروب فرسان العدو الذين يحملون الضابط الايطالي الذي كسرت رجليه طلقة مجاهد واخبر السباييس قرسياني بقولهم :

(ان الصيعان يضربوننا) فقام الى خلفية الربعي وهدده وشتمه وامر قواته بضرب الجميع، وقد خسر العدو في هذه المعركة 140 من بيادته سحقت جميعا باستثناء ستة رجال منهم، كانوا من اولاد شبل كفلهم ابن عمهم الشيخ محمد بن احمد، احد كبار المجاهدين وكان من هؤلاء الستة الشيخ ارحومه بدروش الذي التقيت به في شكشوك واخبرني حديث المعركة.

كما خسر الايطاليون ايضا ضابطين وجرح الثالث ومجموعة من الخيول (يلاحظ انه يستدل هنا بما اورده غراتزياني في هذا الشأن وان كان مقتضبا) ثم يستمر، وقد سألت المجاهدين الذين حضروا المعركة فنفوا ان يكون فكيني قتل بيده احدا من المحكوم عليهم بالاعدام فعلا لخيانتهم بعد ان استسلموا ولقد استشهد من المجاهدين في هذه المعركة حسن فكيني ابن محمد فكيني من الرجبان، ومن الزنتان، علي العريض، وابراهيم القرج ومحمد ولد احمد بن الحاج وولد بوتالوله وجرح والده كما استشهد من الصيعان محمد بن عبد الناصر الهميل ومسعود القرواد الذي ذهب يتبع فرسه التي هربت مع خيل الطليان حتى قبضوا عليه، وانكر خليفة الربعي والشيخ الكوني بن عبد السيد معرفتهما به مع انه ابن عمهما، كما جرح علي هرم وقتلت الطيارة شخصا من القنافيد وبالمقارنة نجد الفرق الشاسع بين خسارة المجاهدين وخسارة الطليان ولو تقدم المجاهدون الى سواني الكردي واقتحموا مخيم قرسياني لابادوه عن آخره غير ان الشيخ محمد فكيني اصر على عدم متابعة الفارين وعدم مهاجمة المعسكر الايطالي في سواني الكردي، وبدأ مع قرسياني سلسلة من المراسلات للتفاوض وكان غرض فكيني الاساسي من التفاوض هو عدم رجوع اهالي فساطو والرحيبات ونالوت

وكاباو ويفرن الى قراهم، اما الطليان (الحكومة) فهو لا يريد محاربتها، وقد انتفض احد المجاهدين من الزنتان لما سمع بالتفاوض ويقال له احمد الذريب قائلا لفكيني.

يا لعور جيبك افرغ من المعاشات بغيت اتصالح (اي، ايها الاعور فرغ جيبك من نقود الطليان فاتجهت نحو الصلح) وكان الحاج فكيني كريم العين.

ولقد شعر غراسياني بحرج الموقف فارسل يطلب النجدات وارسل فرقة خربيش لتحفر آبار الحمراء حتى يمكنه التقهقر دون اباده (فالتحقت به فرقة الكتيبة الليبية السادسة) من طرابلس الى زواره ثم الى سواني الكردي والتحقت به فرقة الهجانة من رقدالين وبذلك ازدادت قواته حجما وعدة واصبحت اكثر من خمسة آلاف يساعدها الطيران الذي مهد له مطار بسواني الكردي.

وكان يقابل قرسياني قوة لا تزيد عن الف مسلح بفرسانها وقد قدر قرسياني قوات المجاهدين في معركة الوخيم وما بعدها بحوالي 4500 وهو رقم لم يصله اي جيش من جيوش المجاهدين في معركة واحدة منذ زمن باستثناء المعارك الاولى 1911م - 1912م. وقد اعتمد قرسياني في تقدير هذا الرقم على تسليم البنادق فيما بعد، غير ان البنادق كان منها من لم يحضر اصحابها يوم الوخيم، وكان من المجاهدين من يملك أكثر من بندقية، وحاول فكيني ان يتجنب الصدام مع الطليان باستثناء المجاهدين. (يرى القارىء هنا ان المؤلف يتجه الى تفسير احداث التاريخ بطريقة، ارسين لوبين، في الروايات البوليسية، عندما يقول، ارسل الصراخ او الصريخ، وجاء ستون فارسا، واقتحموا المعاقل، وهؤلاء بالطبع من الصيعان.) ويتحدث المؤلف عند هذه النقطة عن مراسلات فكيني مع قراتزياني، ولقد حاول فيما ذكر ان يدمغ فكيني بالخيانة والتعامل مع الايطاليين، الا ان رسائل فكيني تؤكد عكس ما حاول المؤلف ان يوحي به، ولا يستطيع احد ان يشكك في صدق وشجاعة جهاد فكيني، وهذا ما سنعود اليه في مكان آخر من الكتاب، ولقد كان فكيني يقول في مراسلاته، نحن اهالي الزنتان والرجبان وانصارنا بينما المؤلف لا يريد الا ان يكون الصيعان في المقدمة فهو لا يرى انهم انصارا فقط، وها نحن قد رأيناه في الحديث عن معركة الوخيم يقول :

ان السبابيس قد قالوا لقرسياني وهم هاربين ان (الصيعان يضربوننا) والغريب في الامر ان المؤلف برغم حرصه على التأكيد بان الصيعان والحرابه فقط الذين جاءوا عندما طلبت النجدة والتي سماها (الصراخ) وانهم هم الذين كانوا يضربون الطليان ذكر انه قد مات او استشهد منهم واحد فقط في المعركة وقبض على آخر بينما مات خمسة من الزنتان وواحد من الرجبان هو ابن الحاج محمد فكيني).

معركة الجوش 12 من يونيو 1922م

يقول في الوقت الذي بدأت النجدات تصل الى قرسياني في سواني الكردي اشيع في المجاهدين ان الطليان يزحفون الي الجبل من جهة (البيضاء والدناجي) وهما منطقتان في سهل الجفارة من املاك الرجبان والزنتان، وقد فعلت هذه الاشاعة فعلها في صفوف المجاهدين فلقد ترك المنطقة مجموعات كبيرة من الزنتان والرجبان وعادوا الى قراهم في الجبل كما ان فراغ التموين من المجاهدين ايضا سبب في ذهاب اكثرهم الى منتجعاتهم لجلب دقيق التموين وهكذا بعد معركة الوخيم لم يبقى من الزنتان والرجبان الا مجموعة رمزية قليلة. اما الصيعان فمن المعلوم ان اكثر من نصفهم يقاتل في بئر الغنم تحت قيادة على كله وعون سوف.

وفي يوم 12 من يونيو زحف الطليان نحو الجوش وقد كان المجاهد محمد العريض من الصيعان يبيت كل ليلة بجانب العدو ويترصد حركاته ويخبر المجاهدين، وفي تلك الليلة رجع للمجاهدين واخبرهم (ان الطليان يتحرك ولا اعرف وجهته) فلقد تركت ابله محمله وخيوله مسرجة. كما اتى اثنين من الزنتان بنفس الخبر.

وفي الصباح صعد الطليان على جهة (حسي بركة) و (عين الجديدة) وتلقاه الصيعان والحرابه وبعض من الزنتان والرجبان... وكانت خيول المجاهدين تنفر من الطيارات لانها لم تتعود عليها قط وكان الجواد يفر بفارسه عند سماع ازيز الطيارات، وذلك الطيران الذي استخدمه قرسياني بكثافة ولو ان قنابله غير مؤثرة الا ان مجرد ظهوره في سماء المعركة تنفر خيول المجاهدين مبتعدة عن المعركة بغير انتظام وفي غير اتجاه، وقد كانت قوة المجاهدين لا تزيد عن 300 ثلاثمائة ما

بين فرسان وبيادة تقابل جيش قرسياني اللجب (ويأتي المؤلف هنا بجزء من كتاب قراتزياني، فيقول) ولندع المجال لقرسياني يسرد المعركة بمبالغاته المعهودة. (ولا بد ان يعتبر قراتزياني مبالغا اذا كان يقول ان المجاهدين كانوا من الزنتان والرجبان والحرابة والصيعان بينما يقول هو انهم من الصيعان والحرابة وبعض من الزنتان والرجبان !!!) ثم بعد نقل فقرات من كتاب غراتزياني يقول مؤلف كتاب (الدفاع عن الجبل الغربي) ما يلي:

وهكذا يعترف العدو بخسائره الفادحة بالرغم من لجوئه دائما الى اخفاء خسائره اما المجاهدون فقد استشهد منهم نفر قليلون، منهم محمد بن عبد الواحد من الزنتان كما جرح من الزنتان احمد العرعود وعلي بن احمد، وانتقل الزنتان والرجبان الى الجبل ورحل الصيعان بعائلاتهم وابلهم من الحميدة باتجاه الشياب على قسمين كبيرين، وفي الحميدة لحق بهم خليفة الربعي والشيخ الكوني بن عبد السيد مرسلين من قبل الطليان يطلبون من الصيعان العودة الى ديارهم، واجتمعوا بالمدير نصر بن الحاج وضوء الرقيق والمبروك الخنتوش والمبروك الغدي واحمد حلبودة ووافق البعض على التسليم ورفض البعض الآخر ووقع بين طالبي التسليم والملحين على مواصلة الجهاد السباب والشتائم، ورحل المبروك الغدي مفارقا المدير نصر ملتحقا بالصيعان الذين رحلوا من بياز ونزلوا بوادي السدر بظاهر الرحيبات واستسلم المدير نصر بن الحاج.

هكذا كانت معركة الجوش التي لاقى فيها الصيعان جحافل الايطاليين المتقدمة، والغريب من المؤلف، وهو كما نعرف من الصيعان، بعد ان يقرر ان الزنتان والرجبان، بعد ان سمعوا الاشاعة القائلة بان (الطليان يصعدون الجبل عادوا الى قراهم) اي انهم هربوا، بينما كان اكثر من نصف الصيعان يقاتلون في بئر الغنم، وفي الصباح عندما صعد الطليان على جهة (حسي بركة) و (عين الجديدة) تلقاه الصيعان والحرابة وبعض الزنتان والرجبان، اي ان النصف الآخر من الصيعان تلقى الطليان في جهة (حسي بركة) و (العين الجديدة) لان نصفهم الاول كان يقاتل الطليان في بئر الغنم، نفهم من المؤلف ان جميع الصيعان كانوا يقاتلون الايطاليين بينما الذين بقوا من الزنتان والرجبان، اي القلة كانوا معهم!!!

والغريب ان المؤلف يقول ان الصيعان هم الذين يقاتلون بينما الذين استشهدوا من الزنتان، فلقد رأيناه عندما تحدث عن خسائر المجاهدين انها كانت قتيل واحد من الزنتان وجريحان ايضا من الزنتان. وسنعود الى تفاصيل هذه الامور بعدما ننتهي من سرد ما جاء في الكتاب عن المعارك الثلاث (ويلاحظ انني انقل تعبيراته كما هي).

معركة السلامات 18 يونيو 1922م ...

يقول، وصل الي الجوش محمد بن محمد السلامي قادما من السلامات وطالبا من الطليان الزحف نحو السلامات للاستيلاء عليها اذ ان المجاهدين اجتازوها نحو الجبل، فلقد نزل المدير نصر بمن معه بالشياب استعدادا للعودة الى الجوش مستسلما ونزل المبروك الغدي وألطيف الحطاب بمن معهما بوادي السدر بظاهر الرحيبات استعدادا للاتجاه شرقا للحاق بالمجاهدين في بئر الغنم وكما وصل الزنتان والرجبان الى بلدانهم تاركين العدو وراءهم يتقدم بدون قتال.

وصعد خربيش الى السلامات واحتلها بسهولة ولكنه ما استقر بها حتى هاجمته قوات المجاهدين بضراوة من الصيعان والزنتان والرجبان واستمرت المعركة يوما كاملا، وعند المساء تراجع المجاهدون فلقد اصبحت القوات القادمة من الجبل عن طريق نالوت وكاباو نحو الحرابة والرحيبات تهدد الصيعان من الخلف، كما ان القوات القادمة من بئر الغنم صارت تهدد الزنتان والرجبان من الخلف، وهنا انسحب المجاهدون.

وقدم في اليوم الثاني المدير نصر بن الحاج وضوء الرقيق والمبروك الخنتوش الى خربيش متفقين معه على القاء سلاحهم وقد اتفق معهم على ذلك في قرية القنافيد، وهنا رجع النجع الذي يقوده المدير نصر الى الجوش من الشياب واغلبه من اولاد سلام والهمائلة اما النجع الآخر الذي يتقدمه المبروك الغدي والطيف الحطاب وهو الذي نزل بظاهر الرحيبات فلقد تقدم نحو الشرق باتجاه الرجبان والزنتان وما ان وصلوا الى هناك حتى وجدوا الزنتان وقد حملت ابلهم راحلين الى الحمادة الحمراء وعرضوا على الصيعان ان يرافقوهم الى هناك، ولكن الصيعان بينوا لهم انهم سيواصلون السير شرقا حتى يلتحقوا بالمجاهدين

مع الشيخ سوف المحمودي بيفرن، ويقول سوف في مذكراته، ثم خرجت قوة كبيرة من ناحية الجوش في اتجاه الزنتان والرجبان فتوجهت وبرفقتي احمد عبد المجيد المصري وقسم من العسكرية ومدفع وبعض الرشاشات للاشتراك مع الزنتان والرجبان لصد العدو الزاحف من الجوش، وعندما وصلت الزنتان وجدت ان الحالة لا تسمح بالتصدي للعدو لذلك قررت القبائل المذكورة آنفا الرحيل الى مزده، وفعلا تم الرحيل لابعاد العائلات عن طريق العدو (اثبتنا ان المذكرات التي يشير اليها المؤلف مزوره، وقد اكد دارس في مركز الجهاد الليبي ان القشاط قد حرف وزور في تلك المذكرات المزعومة، والتي ننشرها كما هي في آخر الكتاب) ويضيف.

وهكذا تم خروج الزنتان والرجبان من الحرب كاد يكون نهائيا بعد معركة السلامات ولم يشتركوا في الحرب ضد الطليان الا بعد سقوط الجبل وترهونة ومصراته وبني وليد، وبدأ العدو في التوغل داخل الحمادة الحمراء بعد ذلك باكثر من عامين حيث خاضوا معارك بطولية في القبلة وفزان.

وهكذا اصبحت المنطقة من جادو الى وازن خاضعة للنفوذ الفعلي الايطالي كما اصبحت المنطقة من جادو الى غريان مفتوحة امام الغزو الايطالي وتحرك الزعماء المناصرون لايطاليا لاستقبال عدو الوطن.

وبعد يوم 19 من يونيو 1922م وهو اليوم الذي وصلت فيه القوات الايطالية جادو واستقرت بها توقف الزحف الايطالي لعدة شهور.

هذا ما ذكره السيد القشاط عن المعارك الثلاث والذي اخذناه كمثال للتدليل على المغالطات والتغيير والتزوير في تاريخ الجهاد الليبي، ونلاحظ هنا ما ذكره عن معركة السلامات بالذات، اذ يقول .

الزنتان والرجبان وصلوا قراهم تاركين العدو وراءهم يتقدم بدون قتال، والصيعان بعد ان اختلفوا حول قضية التسليم او الجهاد اتجهوا شرقا للالتحاق بالمجاهدين، اما عون سوف فقد ذكر في مذكراته ان الحالة لا تسمح في الزنتان والرجبان بالتصدي وهكذا تم خروج الزنتان والرجبان من الحرب، ولم يحاربوا الطليان الا بعد مرور سنتين كاملتين، اي بعد سقوط الجبل وترهونة ومصراتة

وبني وليد، وهو هنا كأنما اراد ان يقول انهم مسؤولون عن سقوط هذه المناطق لانهم خرجوا من الحرب!!!.

والغريب انه بعد ان ذكر ان الزنتان والرجبان قد تركوا العدو وراءهم يتقدم بلا قتال نجده يقول: وصعد خربيش الى السلامات وإحتلها بسهولة ولكنه ما ان استقر بها حتى هاجمته قوات المجاهدين بضراوة من الصيعان والزنتان والرجبان واستمرت المعركة يوما كاملا وقد تراجع المجاهدون بعد ان هددت القوات الايطالية الصيعان من الخلف عندما تقدمت من كاباو، وهددت الزنتان والرجبان عندما جاءت من بئر الغنم. وهو يريد ان يعطي انطباعا بان للصيعان جبهة خاصة بهم، ولم يقل لنا من اي القبائل اولئك الذين كانوا يتفاوضون على الاستسلام، مثل المدير نصر والمبروك الغدي والطيب الحطاب. (يجب ان نذكر هنا ان عائلة الغدي معروفة بجهادها الحقيقي ولا احد يمكن ان ينكر على هذه العائلة دورها في الجهاد، وهي عائلة من الصيعان) وعلى كل حال، فلا بد من عودة الى تفاصيل هذه المعارك قبل الحديث عن بقية معارك الجهاد الليبي، واذا كان السيد القشاط قد ذكر مصادره فيما اورد من معلومات عن معارك الجهاد الليبي، الا انه خالفه الصواب اذ انه حرف ما جاء في تلك المصادر بشكل فاضح ومؤسف ربما لانه اراد ان يرضي اهواء ويبلغ اهداف، ولو كان الامر قد توقف عند الحديث عن اهله فانه ما كان يعنينا ذلك في شيء بل يسعدنا لاننا نرى ان كل وطني حقيق بان يفخربالنضال والتضحيات التي قدمها الاباء والاجداد، اماوقد تجنى وتجاوز وتطاول وتعدي، فسوف نرد عليه دون ان يكون في نيتنا الاساءة لاحد، نرد عليه بما جاء في كتابات شهود تلك المعارك من الاعداء والاصدقاء، ونورد ما زور وحرف، وعلى الرغم من كل المغالطات ومحاولات الدس التي جاء بها السيد القشاط فانه في نهاية الحديث عن معارك كل من الوخيم والجوش والسلامات لم يجد شيئا يقوله عن تلك المعارك التي خاضها المجاهدون في القبلة غير كلمات ثلاث، على الرغم من ان تلك المعارك مرتبطة بمعارك الدفاع عن الجبل الغربي والدفاع عن بوابة الجنوب، اذ لم تتم سيطرة الايطاليين على مناطق فزان الابعد معارك ضارية وخسائر كبيرة في القبلة، القبلة التي قال عنها غراتزياني (انها غرفة الانفجار في القطر الطرابلسي كله) وقال عنها بيلارديניللي (انها افواه

القبور) ولا نعتقد ان هؤلاء القادة الايطاليين لم يكونوا على بينة من الامر ولم يكونوا مدركين لما يقولون وهذين القائدين هما قائدا الحملتين الايطاليتين على ليبيا، الاولى والثانية) قال القشاط عن القبلة، (خاضوا معارك بطولية) فقط هذا ما قال عن القبلة، ولكن بعد متى؟ قال بعد سنتين كاملتين، وبعد ان سقط الجبل وترهونة ومصراتة وبني وليد. ولعله من المفيد ان نبدأ بذكر ما حدث في القبلة قبل الوخيم والجوش والسلامات . يذكر الاستاذ خليفة التليسي في كتابه (معارك الجهاد الليبي) الصادر عن المنشأة العامة للنشر والتوزيع ما يلي:

(احتلال غدامس والعمليات الحربية في القبلة)

واهتم الايطاليون في هذه المرحلة باحتلال غدامس، فوجهوا قوة من قواتهم وقواعدهم في نالوت يوم 4 فبراير 1924م واستولت على سيناون في 7 فبراير واستمرت في طريقها نحو غدامس التي استولت عليها يوم 15 فبراير 1924م بعد ان خاض المجاهدون ضد القوة الايطالية معركة في وادي الوطيه يوم 12 فبراير 1924م، وتبدأ اعتبارا من هذه الفترة المراحل الشاقة في حروب القبلة والجنوب التي ستتواصل حتى نهاية الحرب، وكانت وحدات كبيرة من مجاهدي الزنتان تسيطر على القبلة وتهدد المواقع الايطالية خلال هذه الفترة، الامر الذي دفع بالايطاليين الى تجريد قوة كبيرة لتقوم بعمليات ملاحقة ومطاردة لهذه القوة المنتشرة في المنطقة واخذت القوة الايطالية تجوب المنطقة، منطلقة في حركتها من جادو (اول مارس 1924م) نحو بئر مرهان[1] ثم ودي الخيل واصطدمت في اليوم التاسع من مارس بقوة المجاهدين بين بئر النصر والطابونية (معركة الطابونية 9 مارس 1924م) وتحولت القوة الايطالية نحو بئر الملاحة يوم 11 مارس ووصلت يوم 12 منه الى ودي الخيل حيث عسكرت هناك لاستيفاء المعلومات عن تحركات المجاهدين وقد فوجئت فجر يوم (16 مارس 1924م) بحملة كبيرة من الزنتان تشن عليها هجوما عنيفا مفاجئا.

وحاول الايطاليون خلال هذه المرحلة الدقيقة من حروب القبلة والجنوب

---

(1) بئر مرهان، هو في الحقيقة، بئرمرحان، والمرحان هم عائلة من الزنتان.

اثارة الفتن القبلية واستغلال الخلافات بين الزعامات، واستطاعوا ان يستفيدوا منها في بعض الاحيان الانها لم تمكنهم من السيطرة على الوضع على النحو الذي كانوا يؤملون، حيث نرى بعض العناصر التي حاول الايطاليون استغلالها تتحول فيما بعد الى المواجهة العدائية الصريحة للايطاليين،،من الانصاف هنا ان ننوه بموقف الزنتان في هذه المرحلة الهامة من حروب القبلة فقد كانوا اصحاب الدور الرئيسي فيها، وكانت العمليات الايطالية تستهدفهم في المقام الاول بسبب الموقف الصامد الذي التزموه، ضد الايطاليين، وقد تمكن الايطاليون من اعادة احتلال مزده يوم 15 يونيو 1924م (ص 66 من الكتاب) ويضيف المؤلف على الصفحة 69 قائلا :

وقامت القوات الايطالية خلال هذه الفترة بعمليات ملاحقة واسعة في منطقة القريات والطابونية خلال الفترة الواقعة بين 18و 31 أغسطس 1915م وشملت المنطقة الواقعة بين مزدة وطبقة والقريات الشرقية والقريات الغربية حتى بئر المره وبئر تاترت، وتحت عنوان، عودة اى القبلة يقول:

وكان من الطبيعي ان يتجه الاهتمام الايطالي الى احكام السيطرة على القبلة، وخاصة ان الهدف من عمليات الجفرة والواحات الجنوبية كان هدفا تمهيديا من اجل تحقيق السيطرة الكاملة على فزان والمناطق الجنوبية من ليبيا، والقضاء على احتمالات العودة الى اي وضع يشبه الوضع الذي قام سنتي (1914م - 1915م) ويلاحظ هنا تغير الاستراتيجية الحربية في عملية احتلال فزان الثانية واختلافها عن العملية السابقة التي تمت في عهد مياني، في خط رأسي دون الاطمئنان فيه الى الجوانب والمؤخرة، اما في هذه المرة فقد مهدوا لعملية احتلال فزان بالسيطرة اولا على الشريط الساحلي للخليج، واحكام الربط بين الولايتين ثم الاستيلاء على الجفرة وزله والواحات الجنوبية من برقة، واخيرا القبلة التي ظلت حتى سنة 1928م خارجة عن نطاق السيادة الفعلية لايطاليا، وقد اتخذ منها قادة الجهاد قاعدة لعملياتهم ضد مواقع العدو ومراكزه، وقام المجاهدون فعلا بمحاولات لعزل الحاميات الايطالية وقطع خطوط المواصلات، خلال شهر يونيو 1928م مما دفع الايطاليين الى تحريك قوة كبيرة لاحتلال

القريات (15 يوليو) وشهدت المنطقة عدة اشتباكات ومعارك منها معركة (خرمة بو غرة) كما نشطت المقاومة خلال هذه الفترة في الجفرة، وقامت بمهاجمة بعض المواقع الايطالية واصطدم المجاهدون بالقوات الايطالية في معركة بئر الناقية (31 اكتوبر 1928م) وخشي الايطاليون من امكانية توحيد قوى الجهاد في الجفرة والقبلة فركزوا جهودهم الحربية لملاحقة هذه التجمعات وعدم تمكينها من الاستقرار، وفي يناير 1929م عيّن (بادوليو) حاكما عاما على ليبيا فوجه فور وصوله منشورا الى المجاهدين يدعوهم فيه الى الاستسلام وانهاء المقاومة، ولكن هذه الدعوة لم تجد صدى لدى هؤلاء المجاهدين الذين استمروا في الالتزام بالجهاد، ومقاومة الاحتلال الايطالي، كان قادة حركة الجهاد في طرابلس الغرب قد تركزوا في القبلة والجنوب وانتشرت تجمعاتهم بين (زويله وام الارانب وسبها والشاطىء الشرقي ومرزق وبين بئر الشويرف وابي نجيم والقريات) وقام المجاهدون يوم (9 أبريل 1929م) بشن هجوم عنيف على الحامية الايطالية في بئر علاق وتخوف الايطاليون من نتائج هذا الهجوم فعملوا على دعم قواتهم بالمناطق الجبلية المجاورة، كما قاموا بعمليتين عسكريتين واسعتين، الاولى خلال الفترة (12 أبريل حتى 24 أبريل سنة 1929م) في منطقة القريات ودارت خلال هذه الفترة معركة (كاف المتكية) (ابريل 1929م) اما العملية الثانية فقد جرت في المنطقة الواقعة بين هون وابي نجيم وبئر الشويرف من (2 مايو الى 28 مايو 1929م) (معركة بئر الشويرف 1929م) هذا ما اورده الاستاذ خليفة التليسي بشأن معارك الجفرة وهو ما يؤكد ان المعارك لم تتوقف ولا هي انتهت بسقوط مواقع في الجبل الغربي ولا بد من سؤال قد يكون ملحا في هذا الشأن، فاذا كانت المعارك قد استمرت حتى قرابة نهاية سنة 1929م في القبلة وما بعدها فاين ياترى هؤلاء الذين يتحدث عنهم مؤلف كتاب (معارك الدفاع عن الجبل الغربي) بعد احتلال يفرن في 30 اكتوبر سنة 1922م . بمعنى، اين بقوا وماذا كانوا يعملون خلال السنوات السبع التالية التي استمر فيها الجهاد ضد الايطاليين ؟ ولقد ذكر المؤلف ان الصيعان (وهو بهذا يريد التحديد) على اعتبار ان الزنتان والرجبان قد هربوا الى القبلة، وقد اورد ما ذكره عون سوف في مذكواته (وهو محرف ومزور ايضا) بشأن هؤلاء الناس عندما خرج اليهم من ناحية الجوش،

اورد ان الصيعان قد ذهبوا الى بئر الغنم لمواصلة الجهاد تحت قيادة الشيخ سوف المحمودي بيفرن، واذا اعتبرنا ذلك صحيحا فان يفرن مع ذلك قد سقطت وانتهى الجهاد فيها يوم 30 اكتوبر سنة 1922م ... وكان قد ذكر لنا ان هؤلاد قبلئذ قد فاوضوا على التسليم واختلفوا وحدث بينهم تشاتم وسباب وحدث ان منهم من سلم ومنهم من لم يسلم، وهؤلاء الذين لم يسلموا هم الذين قرروا مواصلة السير الى يفرن بعد ان وجدوا الزنتان والرجبان قد حملت ابلهم راحلين الى الحمادة الحمراء، فاذا كان هناك من استسلم بعد التفاوض مع عملاء الايطاليين ومن لم يسلم ذهب الى يفرن ثم سقطت هذه الاخيرة فماذا حدث... نحن لا نشكك وانما نورد ما ذكره القشاط لاننا نعتقد ان السحر قد انقلب على الساحر، وهنا يجدر بنا ان ننقل احداث المعارك في الجبل الغربي التي انتهت بمعركة فندق الشيباني، يقول الاستاذ التليسي :

عقب السيطرة على المنطقة الساحلية الغربية عمل الايطاليون على الاستعداد لاحتلال الجبل الغربي وحشدوا لهذا الغرض قوة كبيرة تقدر بـ 7400 بندقية و 600 فارس و 10 قطع مدفعية واسندت مهمة احتلال الجبل الى الجنرال غراتزياني، على ان تتحرك لمساندته قوات اخرى من مختلف القواعد القريبة من منطقة العمليات خاصة في سفوح جبل غريان وبئر الغنم والعزيزية، وقد جرت في مناطق هذه الحملة عدة معارك منها معركة (فندق الشيباني) ومعركة (بئر كوله) ومعركة (الوادي الوخيم) (3 يونيو) ومعركة الجوش (12 يونيو) ومعركة السلامات (18 يونيو) ثم زحفت قوات غراتزياني على جادو (19 يونيو) واستولت على كاباو ونالوت (في 6 يوليو) ولم تستطع القوات الايطالية متابعة زحفها على يفرن وغريان فور احتلالها (الجادو ونالوت وكاباو) بل ظلت تتربص للمرحلة الثانية واهتمت اهتماما خاصا بالعمل السياسي في محاولة اجتذاب بعض الفئات بالتسليم كما سعت الى ضمان عدم تدخل الفئات الاخرى، وخرجت القوات الايطالية بقيادة غراتزياني من جادو يوم 28 اكتوبر واصطدمت مع المجاهدين في معركة صفيت وام الجرسان وتمكنت بعدها من احتلال يفرن في 30 اكتوبر سنة 1922م.

واتخذ الايطاليون من يفرن قاعدة للزحف على غريان بالاضافة الى

قواعدهم في العزيزية والمنطقة الغربية وحشدوا لهذه الحملة قوة تبلغ في مجموعها 8750 بندقية و750 فارسا و8 قطع مدفعية، وقد وجهت هذه القوة من جهات مختلفة الا ان مهمة احتلال غريان اوكلت الى الجنرال غراتسياني الذي كان يزحف من يفرن، حيث انطلق منها يوم 25 نوفمبر واستولى على غريان في يوم 17 نوفمبر دون مقاومة عدا تلك المعركة التي جرت في فندق الشيباني ضد القوات الزاحفة من العزيزية.

ويقول الجنرال غراتزياني في كتابه (نحو فزان) بشأن احتلال الجبل الغربي ما يلي :

قامت حكومة المستعمرة باخلاء السهل في مدى ايام قلائل وبذلك ادركت اول هدف من اهدافها السياسية والعسكرية، ثم اتجهت عنايتها من فورها الى إعادة البربر الى الجبل.

وهكذا بدأت العمليات العسكرية لاعادة الاستيلاء على الخط الجبلي، تلك العمليات التي تمت في خلال الفترة الواقعة بين شهر يونيو ونوفمبر 1922م، ويمكن تقسيمها الى ثلاث مراحل :

اولا : اعادة احتلال جبل نفوسه (فساطو)

ثانيا : اعادة احتلال الجبل الاوسط (يفرن)

ثالثا :اعادة احتلال غريان

ولقد بدأت العمليات في المرحلة الاولى في مايو 1922م واشتركت فيها الاليات التالية :

الالاي (بيتزاري) 1600 بندقية و 200 فارس و4 قطع مدفعية

الالاي (غراتزياني) 3000 بندقية و 300 فارس و2 قطع مدفعية

الالاي (جالينا) 1400 بندقية و 100 فارس و 2 قطع مدفعية

الالاي (بيللي) 1400 بندقية و 100 فارس و 4 قطع مدفعية

وقد اسند الواجب الرئيسي الى الاي (غراتزياني الذي كان عليه ان يتحرك

بادىء ذي بدء من الجوش وان يعيد ثانية اهالي نالوت وفساطو الى الجبل الغربي بالتحرك من زواره، وكان على الاليات الاخرى القيام باداء واجبات ثانوية لمساعدة الالاي، بان يقوم الاي (بيتزاري) من قاعدة بئر الغنم باشغال الثوار المسلحين الموجودين في منطقة جبل يفرن، ويأخذ في تهديد هذه المنطقة الاخيرة باعتداءات مستمرة نشطة، ويقوم الاي (بيللي) من قاعدة العزيزية باشغال الثوار المسلحين في غريان ويأخذ في تهديد هذه المنطقة باعتداءات مستمرة شديدة سواء عن طريق (بئر كوله فندق الشيباني) او من طريق الوديان الواقعة غربي غريان بان يتجه من العزيزية نحو الجهة الجنوبية الغربية وبينما يهدد هذه الجهة الاخيرة كان عليه ايضا ان يقوم باداء واجب حماية الالاي الرئيسي على مسافة من جناح الاي بيتزاري الايسر.

اما الموقف في الجبل الغربي فكان في ذلك الوقت على النحو التالي :

كان البربر وكلهم كما (رأينا) من اللاجئين على الشاطىء كما كان العرب يسيطرون سيطرة تامة على الجبل من يفرن الى نالوت، وكانت طرق الامدادات مفتوحة من تونس عن طريق (وازن والجوش وكان الحاج محمد فكيني مستشار الحكومة السابق يبسط سيطرته على كل مكان وكان الى جانبه كبار زعماء الزنتان والحرابة والصيعان والشيخ سوف زعيم يفرن وزعماء اخرون اقل شأنا من هؤلاء، وقد تكونت منهم جميعا كتلة موحدة بعد ان فصلوا بقايا البربر.

وكان فكيني يساوم الحكومة كعادته القديمة بواسطة (احمد الفساطوي) الذي بعد تعيينه مستشارا للحكومة بناء على اقتراح (رمضان الشتيوي) بقي بعد ذلك منذ عام 19 في طرابلس وكان موضع التبجيل والإحترام بينما كان في واقع الامر المتحدث بلسان الثوار والمدافع عن مطالبهم.

كان يطالب بتعيينه متصرفا للجبل باكمله وبأن يمنح سلطة ادارية شبه مستقلة، وكان يطالب ايضا بطبيعة الحال بالحقوق الدستورية التي نصت عليها اتفاقية (خلة الزيتون) وكان يضع شرطا اساسيا للاتفاق مع الحكومة وهو تحريم عودة البربر الى الجبل مرة ثانية وهكذا كان يمتهن مبدأ سيادة الحكومة الايطالية على القطر امتهانا خطيرا، ولقد كانت قوات الثوار التي كانت اذ ذاك منعزلة من

جادو الى نالوت هي التي بيانها كما يدل على ذلك تسليم الاسلحة الذي تم بعد ذلك :

الزنتان 1500 بندقية

الرجبان 1000 بندقية

الصيعان 500 بندقية

الحرابة 500 بندقية

الرحيبات والاجزاء العربية من اراضي الريايني واولاد محمود والحوامد ويفرن،الخلايفه 1000 بندقية

ويبلغ مجموع ذلك حوالي 4500 بندقية

ومن المعلوم ان سلسلة الجبال من جادو الى نالوت شديدة الوعورة ولا يمكن الوصول اليها الا عن طريق بعض الممرات الجبلية القليلة، بعضها وعر الى درجة كبيرة حتى يمكن الدفاع عنها بقذف الحجارة دون غيرها ولا يوجد فيها طريق ممهد تستطيع سيارات النقل السير فيه ولذلك كان ارتقاءها اما بقوات كبيرة يبدو امرا شاقا ومحاولة جريئة، كانت القوات التي تحت امرة الكولونيل غراتزياني يحيط بها الاهالي البربر، اي الجماعات غير النظامية المساعدة بقيادة (يوسف خربيش) (حوالى 1000 رجل) ورجال خليفة بن عسكر المسلحون غير النظاميين.

وكان الزعيمان المذكوران يختلفان كل الاختلاف فيما يتعلق باخلاصهما فقد كان خربيش مأمون الجانب بقدر ما كان خليفة بن عسكر رجلا لا يؤمن جانبه وموضع الريبة والشك فان هذا الاخير كان يجمع الى جانب تقلب طباعة (كما بدأ منه عدة مرات في الماضي) الاستياء الشديد لعدم تكوين فريق من المجندين تحت امرته بمرتبات ثابتة.

وفي اليوم الذي وقع فيه في العسه ذلك الحادث الخطير مع صاحب السعادة الحاكم، حفظ الكولونيل غرتزياني تلك العبارة التالية التي نطق بها خليفة باللغة العربية الذي لم يكن يعرف ان احدا قد فهمها، اذ قال :

كل شيء يسير الآن على ما يرام وسنتحدث عن ذلك فيما بعد عندما نكون في الجبل، في ذلك اليوم، وليسمح لي القارىء ان اقص عن هذه النقطة بصفتي

متحدثا عن هذه الصحيفة التاريخية غير المعروفة، لان ظروف تلك الفترة حالت او كادت تحول دون التحدث عنها، ادركت تمام الادراك ضرورة ابعاد رجل من هذا القبيل عن جانبي لانه كان لا بد ان يغدر بنا مرة ثانية، ما في ذلك ريب.

وهنا يلاحظ ان مؤلف كتاب الدفاع عن الجبل الغربي حاول متعمدا ان ينفي شيئان هامان وردا في حديث الجنرال غراتزياني عن هذه الفترة، وما فعله انما هو تزوير فادح فاضح.

النقطة الاولى، انه نفى ان يكون ما ذكره غراتزياني عن عدد المجاهدين صحيحا اذ قال : وكان يقابل غراتسياني قوة من المجاهدين لا تزيد عن الف مسلح بفرسانها، وقد قدر غراسياني قوات المجاهدين في معركة الوخيم وما بعدها بحوالي 4500 وهو رقم لم يصله اي جيش من جيوش المجاهدين في معركة واحدة منذ زمن باستثناء المعارك الاولى (1911-1912م) وقد اعتمد غراسياني في تقدير هذا الرقم على تسليم البنادق فيما بعد، غير ان البنادق كان منها من لم يحضر اصحابها يوم الوخيم وكان من المجاهدين من يملك اكثر من بندقية، وحاول فكيني جاهدا ان يتجنب الصدام مع الطليان باستثناء جمهور المجاهدين !!!،

النقطة الثانية، انه اراد ان يوحي بان محمد فكيني متعاونا مع الطليان وانه لم يكن يرغب في مواجهتهم غير ان المجاهدين كانوا عكس ذلك.

ولعمري انه افتراء فاضح مكشوف لثلاثة اسباب :

اولا، لانه كان قد ذكر ان الصيعان وليس احد غيرهم هم الذين تصدوا للحملة الايطالية اذ قال ان هناك قلة من الزنتان والرجبان مع الصيعان والحرابة، فاذا كان الجنرال غراتزياني وهو القائد الايطالي الذي انيطت به مسؤولية احتلال الجبل الغربي قد ذكر ان العدد حوالي 4500 مقاتل وان عدد الزنتان والرجبان كان ثلاثة آلاف بينما الصيعان والحرابة والرحيبات والاجزاء العربية الاخرى من اراضي الريباينه واولاد محمود ويفرن والخلايفة الفي مقاتل، فكيف يستوي الامر مع من يريد زورا للصيعان ان يكونوا عماد المعركة هنا ؟؟؟

اذن لابد من تكذيب الارقام التي ذكرها هذا الايطالي الجاهل ضابط الاحتياط الذي لم يكن جنرالا مقاتلا وانما الحظ فقط خدمه لان يكون قائدا !!!

والنقطة الثانية، ان محمد فكيني كان خائنا وربما عميلا للطليان لانه لم يشأ ان يحارب الحكومة، اي الطليان، فهو احيانا لا يريد مقاتلتهم واحيانا اخرى يكاتبهم بينما كان قائدا للمجاهدين، وهنا فهو ليس قائدا للمجاهدين كلهم وانما قائدا للزنتان والرجبان.. بينما كان خليفة بن عسكر مناضلا وطنيا، وهو الذي كان يقاتل جنبا الى جنب مع الايطاليين ولولا خلافه مع خربيش لكان اشرس المقاتلين مع الطليان، ثم ما هو الخلاف مع خربيش.. انه فقط، لأن الاخير لم يحظى بثقة الطليان اكثر من الاول، اي ان خربيش كان اكثر قربا الى الطليان من بن عسكر.

ويجدر بنا هنا ان نقرأ رسالة محمد فكيني الى الجنرال غراتسياني تلك التي جعلته متعاونا معهم وكيف :

قال المؤلف :

وفي يوم 4 من يونيو 1922م (اي بعد معركة الوخيم) ارسل فكيني الرسالة التالية الى غرسياني يقول فيها :

الى السنيور الجنرال قرسياني

لقد تسلمنا خطابكم وفهمنا مضمونه الذي يتلخص في انكم تخبرونني باعتقالكم لابن عسكر الذي كان ينوي شن الحرب بينما تريدون انتم الصلح بين اهالي الجبل (البربر) هم اعداؤكم الحقيقيون ولكنهم بفضل خداع (ميتزني) و (الباروني) اصبحوا من محاسيب الحكومة ومحل عطفها، وهذا من عمل (ميتزني)

لقد فوجئنا بهذه المعاملة غير العادلة التي تعاملوننا بها ونحن لم نرتكب ذنبا ضد الحكومة.

اننا عندما كنا في حرب مع البربر تقدم انصار حكومتكم اليهم بالسلاح والذخائر والمؤن ونحن جميعا بسواء اهالي الزنتان والرجبان وانصارنا قد تظاهرنا باننا لا نرى شيئا وبالرغم من هذا لم نهاجم قوات الحكومة.

وفي اثناء ذلك قام الحاكم العام بمهاجمة مصراتة وعمل على ان يجمع اعيان العرب ويكتبوا طلبات يتعهدوا فيها بعدم الاضرار بالحكومة ولكن نظرا لعناد البربر ومحرضيهم وحماتهم اتسعت شقة الخلاف وازداد الصراع وبقينا

نحن اهالي الجبل، وكلنا امل في عقد الهدنة، وانكم الآن على العكس من ذلك فقد بدأتم زحفكم وتقدمت قواتكم لغرض تسوية مسألة البربر بالقوة.

اما ابن عسكر فهو بالنسبة لنا اقل خطرا من الفساطوي ومن خربيش اللذين هما والباروني اعداء هذا الاقليم ومستغلوه في الماضي وبعد ذلك اذا رجعتم الى التاريخ.

لقد كنا بالامس نتلقى خطابكم وفي تلك الاثناء كانت قواتكم تتقدم للقتال، ونحن مصممون كل التصميم على عزمنا الا نقبل ان تكون للبربر السيطرة والتفوق علينا وانكم اذا اردتم السلام عودوا الى اماكنكم في زواره وليعقد الحاكم العام هدنة معنا ومع لجنة المريض بك الشرقية ورفاقه، لاننا نحن العرب كلنا بلا استثناء متفقون على ان الصلح او الحرب يجب عملهما على اساس مشترك، وعندما يتم عقد الهدنة سوف نناقش طريقة حقن الدماء واعادة بناء البلاد التي تهدمت بسبب انصاركم وعجرفة البربر، وانكم اذا اردتم فرض سيطرة البربر علينا فاننا نعترف بكم دون شك كحكومة ولكن سوف نجاهد في سبيل ديننا ومن اجل وطننا وشرفنا حتى آخر نفس من انفاسنا، اما اذا كتب الله لنا النصر فسوف نرضي ضمائرنا وارادتنا اما اذا انتصرتم انتم فاننا سوف نلتجي جميعا الى الصحراء ولكن البربر بفضل الله لن يستطيعوا الاقامة في بلادهم رغما عنا ولن يستطيع جنودنا ان يبقوا ساكنين، هذا عزم الجميع وتصميمهم.

وانكم متى عدلتم عن عزمكم يجب عليكم ان تتراجعوا الى الوراء وتقبلوا الهدنة وبعد المفاوضات يصلح الله الاحوال السيئة.

اننا لم نبدأ حتى الآن في القيام باي عمل ضدكم لاننا نريد ان نعرف قبل كل شيء نياتكم ولكن ارادة الله سوف تتم اولا واخيرا.

ولله الامر من قبل ومن بعد، واننا في انتظار اليوم ردكم.

شوال 1340 – 4 يونيو 1922م

خادم البلاد

محمد فكيني وجميع اهالي الزنتان والرجبان والصيعان

كان هذا نص رسالة الحاج محمد فكيني التي كانت ردا على رسالة تلقاها من القائد الايطالي الذي كان يحشد قواته للقتال والذي كان يخرق الهدنة ويعمل على بث الفرقة والفتنة بين صفوف المجاهدين.

بسبب هذه الرسالة اعتبر مؤلف كتاب (معارك الدفاع عن الجبل الغربي) الحاج فكيني خائنا او عميلا للطليان وهنا نود ان نركز على عدة نقاط من هذه الرسالة قبل الرد على ترهات الكاتب .

اولا ان الحاج محمد فكيني وهو قائد جبهة كاملة تضم كل المجاهدين في منطقة الجبل الغربي لم يكتب الى الجنرال غراتزياني وانما رد عليه، وهذا واضح في مطلع الرسالة.

وثانيا، كان فكيني يرد على غراتزياني ويتعامل معه معاملة الند للند، بل انه كان يحذره عندما يقول (اذا اردتم السلام عودوا الى اماكنكم في زواره)

وثالثا، كان محمد فكيني فيما ذكر يؤكد على الرغبة في وحدة الصف، وحدة صف كل المجاهدين ويحذر الطليان من ان ضرب طرف ومهادنة الاخر غير مقبولة فهو يقول (وفي اثناء ذلك قام الحاكم العام بمهاجمة مصراتة وعمل على ان يجمع اعيان العرب ويكتبوا طلبات يتعهدون فيها بعدم الاضرار بالحكومة، اي ان فكيني لم يكن يهتم فقط بالجبل الغربي وانما كان يتعامل مع الايطاليين على اساس ان حركة الجهاد واحدة في ليبيا.

ورابعا، كان ينبه الجنرال الايطالي انه رغم قوته ومدفعيته لن يستطيع ان يفرض على المجاهدين شيئا لا يريدونه عندما قال، لاننا نحن العرب كلنا بلا استثناء متفقون على ان الصلح او الحرب يجب عملهما على اساس مشترك وعندما تتم الهدنة سوف نناقش طريقة حقن الدماء.

خامسا، كان يؤكد بان المجاهدين سوف لن يستسلموا للعدو مهما كان الامر حيث يقول، اما اذا انتصرتم انتم فاننا سوف نلتجي جميعا الى الصحراء، وهذا ما فعله عندما غلبت القوات الايطالية المجاهدين في معارك الجبل الغربي.

وسادسا، وهذا الاهم، ان محمد فكيني عندما انهى رسالته حدد ما يجب

على الايطاليين عمله، وحدد ضرورة الرد خلال يوم واحد وذيل الرسالة قائلا (خادم البلاد) لم يقل المخلص ولا قال خادمكم ولا حتى صديقكم، وانما قال خادم البلاد وبين انه انما يوقع الرسالة باسم رجال القبائل المجاهدة (الزنتان والرجبان والصيعان).

نرى هنا مقدار التحيز والتجني والاخلال باقل مبادىء الحيدة التي يجب ان تتوفر لمن يحاول كتابة احداث التاريخ... محمد فكيني متخاذل لانه رد على رسالة الجنرال غراتزياني، وبن عسكر مجاهد ومناضل لانه اختلف او ان الايطاليين شكوا فيه عندما اختلف مع خربيش وكلاهما (خربيش وبن عسكر) كان يقاتل مع الايطاليين !!! واذا كان مؤلف كتاب معارك الدفاع عن الجبل الغربي قد اعتبر فكيني متواطئا مع الطليان لانه رد على رسالة غراتزياني وهو يتزعم جبهة جهاد كاملة ومن واجبه ان يكتب او يرد على من يكتب اليه، ذلك ان الكلمة الصادقة الامينة هي ايضا جهاد فاذا امكن للزعيم، اي زعيم ان يحصل على ما يريده لبلده بالحسنى فانه ليس من العقل اللجوء الى الحرب والقتال.

ولنرى الآن كيف كان رد غراتزياني على تلك الرسالة وكيف كانت تفسيراته لها، يقول :

ولقد شجعت الظروف السيئة التي احاطت بالالاي زعيم الثوار الحاج محمد فكيني فكتب اليّ عدة خطابات يطلب مني فيها بان اعيد البربر الى المنطقة الساحلية وبعد ذلك اتحدث معه في معسكره، وهكذا اتاح لي الفرصة للاستفادة من الوقت حتى تصل الكتيبة، وذلك بفضل المفاوضات التمهيدية والاخذ والرد، وقد اجبته فعلا بان البربر يجب ان يصعدوا بسلام بامر الحكومة الى جبلهم الذي طردهم منه جبروت العرب وغطرستهم وان اي انسان يعترض سبيل زحف جنود الحكومة التي لها السيادة على كل بلاد طرابلس الغرب لا بد من اعتباره لهذا السبب فقط مذنبا ومتمردا عاصيا، وما عليه الا ان يخلي الطريق، وقد اجاب الزعيم على قولي هذا بان جمع محلاته في صباح اليوم التالي امام معسكري.

وردا عليه قام رجال القوات الجوية بالقاء القنابل على هذه المحلات وضربها ضربا شديدا في اليوم التالي، وقد وصفني في احتجاجاته بانني لست

بالرجل السياسي لانني اتبعت الخطابات بالقنابل والقنابل بالخطابات، وقد رددت عليه بخطاب اشرت فيه الى استفزازه لي باحضار محلاته امام معسكري.

من هنا يتضح ان الخطابات المتبادلة لم تكن من اجل التسليم او التعاون وانما كانت بشأن المحافظة على هدنة كانت قد وقعت في البداية والخلافات التي نتجت عندما بدأ الايطاليون ينفردون بالمجاهدين كحالة ضرب مصراتة، وكذلك عمليات استغلال الفرص وبث الفتنة بين الليبيين انفسهم، ولم تكن هناك في الواقع قضية تسمى قضية البربر بالتحديد اذ ان هؤلاء ليبيون انما كانت قضية المتعاونين مع الطليان وهذا بالنسبة للمجاهدين امر حيوي ومهم ذلك ان كل من يتعاون مع العدو يعتبر خائنا من اي جهة او قبيلة او فئة كان، واذا كانت ايطاليا قد استطاعت ان تستميل قبيلة او سكان جهة ما فان ذلك مضر بالجهاد الوطني، والحقيقة ان المتعاونين لم يكونوا هؤلاء الذين اطلقت عليهم كلمة بربر فقط بل هناك آخرون، وان كانوا هم الاغلبية ولابد للمجاهدين ان يتعاملوا معهم كما يتعاملوا مع العدو، ولهذا السبب كان اعتراض فكيني على اعادة تسكينهم في الجبل، وهذا ما سنعود اليه في ملاحق الكتاب مع الرسائل المتبادلة.

ولكي نوضح الصورة اكثر لا بد لنا من العودة الى المقارنة بين احداث المعارك الثلاث (الوخيم والجوش والسلامات) وهذه المعارك طبقا لكل روايات التاريخ كانت مفتاح منطقة الجبل الغربي، ومن المعروف ان آخر معارك المجاهدين في الجبل كانت معركة (يفرن) اذ ان غريان قد احتلت بعدها مباشرة وبدون قتال، واذا كانت المعارك قد انتهت في الجبل فانها قد استمرت، بل هي قد تأججت في مناطق اخرى من بلادنا وكانت الفترة من 30 اكتوبر 1922م اي انتهاء معارك يفرن واحتلال غريان حتى نهاية سنة 1929م حيث ثبتت ايطاليا اقدامها في الجنوب بعد خسائر فادحة ومعارك مضنية، فلقد شهدت فترة السنوات التي تقارب ثمانية معارك دامية مضنية بين الطرفين، المجاهدون والقوات الايطالية، ومن هنا فان البحث في شأن المعارك الثلاث يكتسب اهمية خاصة لان الروايات قد اختلفت بين (حاطب وخاطب).

اورد السيد القشاط انه قد اشيع بين المجاهدين ان الطليان يزحفون الى

الجبل من جهة البيضاء والدواجي وهما منطقتان في سهل الجفارة من املاك الزنتان والرجبان وقد فعلت هذه الاشاعة فعلها في صفوف المجاهدين فلقد ترك المنطقة مجموعات كبيرة من الزنتان والرجبان وعادوا الى قراهم في الجبل كما ان فراغ التموين من المجاهدين ايضا سبب في ذهاب اكثرهم الى منتجعاتهم لجلب التموين، وهكذا بعد معركة الوخيم لم يبق من الزنتان والرجبان الا مجموعة رمزية قليلة، اما الصيعان فمن المعلوم ان اكثر من نصفهم يقاتل في بئر الغنم تحت قيادة علي كله وعون سوف.

هكذا وزن فطفف !!!

ان رواية احداث التاريخ لا تكون بهذا الشكل، لان من يقرأ هذه الفقرة لا يفهم الا ان هناك من هرب الى بيته بسبب اشاعة، وهناك من كان مصمما على الجهاد الا انه ذهب بسبب نفاذ الزاد، وهناك من لا يهمه الاهل ولا الزاد ولكنه كان يقاتل في مكان آخر.

ومن ابسط قواعد القتال يفهم المرء ان المسألة ملفقة وربما ينطبق على هذا الكلام مثال معروف، اذ قيل ان فراشا قد سئل عن مرتبه الشهري فقال، مرتبي انا والوزير يبلغ الف جنيه.

وتحضرني رواية غلام من الخوارج كان قد دخل على مجلس الحجاج وكان جريئا حاضر البديهة فسأله، الحجاج، بعد نقاش، اوعيت القرآن في صدرك ... فبدأ يقرأ،

قال بسم الله الرحمن الرحيم.

﴿اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله افواجا﴾.. فقال الحجاج، ويحك انهم يدخلون، فرد الغلام، كانوا يدخلون اما اليوم فصاروا يخرجون، فقال، لم .. فأجاب الغلام، لسوء فعلك بهم، الخ، وفعله ذاك كفعل هذا الكاتب مع التاريخ، او احداث التاريخ مع الاسف.

وفي صدد تلك المعارك يقول غراتزياني :

وقد كانت هناك في ذلك اليوم التعيس مناظر وحشية كما وقعت حوادث

قتل متبادل وانتحار وحالات من الجنون عديدة، وتشتت شمل الالاي وملأ طريقه بالموتى ولكن تلك العظام لا تزال بعد سبع سنوات مضت تبدو بيضاء تحت الشمس دون أن تقوم الرحمة الإنسانية بجمعها ودفنها في مقبرة لائقة ودون أن تدق ساعة الوطن للانتقام لذلك المصير المحزن، وكانت هذه العظام ترسم الآن خط السير لذلك الالاي الذي وجب عليه الانتقام لها، والذي اختار لرايته شارة رومانية شعارها (النصر للجرأة) ربما كانت بشيرا بذلك الزحف الحميد الذي تم في الوطن الأم رمزاً للعظمة القديمة، في يوم 2 يونيو وصل الالاي إلى آبار الحمراء ولكنه لما وجد أن الثوار قد ردموها اضطر إلى مواصلة الزحف إلى (سواني الكردي) وهي آبار أبعد من هذه الآبار وقليلة الماء وتحيط بها منطقة واسعة من الأراضي الرملية، ولقد سبب ذلك اليوم الشديد الحرارة عدة إصابات بضربة الشمس بين أفراد الكتيبة الليبية الاولى وبين جماعات البربر من رجال خربيش الذين قلت قدرتهم على القتال بسبب ما نالهم من الجهد والكلال أثناء نفيهم في المنطقة الساحلية.

على أن الذين صمدوا على خير الوجوه كانوا هم أفراد الكتيبة الاريترية الرابعة وهكذا وصل الالاي إلى الآبار وقد تناقصت مقدرته الى حد بعيد، وفي حالة تمكنه من التقدم في اليوم التالي نحو الجوش التي كانت الهدف الذي يجب بلوغه دون أن يلحق بها خطر الانكسار أمام تشكيلات الثوار التي يقودها (محمد فكيني) وجميع زعماء (الزنتان) والتي تعترض الزحف والتقدم نحو آبار الوخيم القريبة.

وفي صباح اليوم التالي الثالث في الوخيم قبل تنفيذ هذه التدابير هوجمت جماعات الخيالة (السباهيس) التي توجهت لاستكشاف مواقع الاعداء وطوقتها قوات كثيرة العدد ولكن امكنها ان تتخلص من هذا الحصار بعد جهد وعناء شديدين وبعد ان فقدت ضابطين من ضباطها الثلاث وكثيرا من الجنود فضلا عن عدد من الخيول، كما فوجىء ما يقرب من مائة من رجال خربيش وهم يبحثون عن الماء في الجهات القريبة من المعسكر وذبحوا في هذا اليوم عن آخرهم بعد ان فقدوا كل اسلحتهم، وقد قتل فكيني ثلاثين منهم بيده.

حوالي الساعة الثامنة والنصف هاجمتني وحدات قوية من وحدات العدو كانت تتلقى على الدوام امدادات من المحلات التي كانت تأتي من الوخيم وكانت هذه كلها من الزنتان والرجبان والحرابة والصيعان وغيرها (قوامها 2500 بندقية) وكلها من الرجال المدربين على الحروب والذين كانوا يفاخرون بانتصارهم علينا الذي حققوه سنة 1915م.

وسرعان ما استعرت نيران القتال الحامية حول الالاي الذي كان يزحف وهو يتبع نظام التشكيلات القديمة (المربعات) ويضم عددا كبيرا من الحراس لانه كان يسير في ارض منبسطة مكشوفة... (انتهى).

ولا يعرف المتتبع لاحداث المعارك من اين اتى القشاط بروايته اذ يقول ان الطليان قد زحفوا يوم 12 من يونيو نحو الجوش وان المجاهد محمد المريض من الصيعان كان قد اخبر عن زحفهم لانه كان يترصدهم حيث ابلغ المجاهدين وعندما صعدوا على جهة (حسي بركة) و (عين الجديدة) تلقاهم الصيعان والحرابة وبعض (من الزنتان والرجبان) اي ان الذي رصد العدو من الصيعان والذي تلقى الطليان ايضا من الصيعان، ولم يبق شيئا غير ان يقول القشاط ان الذي يكتب هذا الكلام من الصيعان !!!ولا بأس في ان يختلق احداث التاريخ ليظهر بطولات اهله.

ولا يكتفي القشاط بمعركة واحدة وانما يذهب الى اكثر من ذلك فيقول عن معركة السلامات : وصل الى الجوش محمد بن محمد السلامي قادما من السلامات وطالبا من الطليان الزحف نحو السلامات للاستيلاء عليها اذ ان المجاهدين اجتازوها نحو الجبل، فلقد نزل المدير نصر بمن معه من الشباب استعدادا للعودة الى الجوش مستسلما ونزل المبروك الغدي والطيف الحطاب بمن معهما بوادي السدر بظاهر الرحيبات استعدادا للاتجاه شرقا للحاق بالمجاهدين في بئر الغنم وكما وصل الزنتان والرجبان الى بلدانهم تاركين العدو وراءهم يتقدم بدون قتال !!!

ونراه يناقض نفسه على نفس الصفحة عندما قال:

وصعد خربيش الى السلامات واحتلها بسهولة ولكنه ما ان استقر بها حتى

هاجمته قوات المجاهدين بضراوة من الصيعان والزنتان والرجبان واستمرت المعركة يوما كاملا وعند المساء تراجع المجاهدون فلقد اصبحت القوات القادمة من الجبل عن طريق نالوت وكاباو ونحو الحرابة والرحيبات تهدد الصيعان من الخلف كما ان القوات القادمة من بئر الغنم صارت تهدد الزنتان والرجبان من الخلف، وهنا انسحب المجاهدون...

ويقول غراتزياني (معركة السلامات 18 يونيو 1922م)

على ان محلات الثوار التي تم تشكيلها من جديد على وجه السرعة في جادو بعد تشتيت شملها في الجوش والتي كانت قد اندفعت في زحف سريع نحو السلامات لحصار هذا المضيق الذي وجدته محتلا، قامت في فجر يوم 18 بهجوم عنيف على مواقعنا وقد استمرت المعركة حتى الساعة الرابعة بعد الظهر وانتهت بانكسار العدو وتشتيت شمله.

وبدأ الرائد (تراكيا) دون تأخير في تعقب العدو طوال الليل، وفي صباح يوم 19 احتل بلدة جادو وهنا ايضا رفع رايتنا فوق قلعتها القديمة بين تهليل البربر وغبطة الجنود، ولقد كان اعادة احتلال هذا المركز ومركز (كاباو) قد نتج عنه نزوح جميع اهالي الجبل العرب من جادو الى نالوت.

وقد تم احتلال هذه البلدة على يد الرئيس (كورو) في الساعة الحادية عشرة من يوم 6 يوليو، ورفعت فوق قلعتها البربرية القديمة الراية الايطالية من جديد بعد ان قام خليفة بن عسكر مرتين بالحاق الاهانة والعار بها، ذلك الرجل الذي شنق بعد ذلك بقليل في الزاوية.

وكان هناك في طرابلس عدد من الوطنيين الايطاليين قد جرؤوا اثناء التحقيق على رفع صوتهم ضد شرعية تهمة الخيانة العسكرية بسبب اخلاء (الوطيه) وربما كانوا يتوقعون بهذه الطريقة الحكم بالبراءة عن الجرائم السياسية القديمة منها والحديثة.

على هذا النحو تم الاستيلاء ثانية على الجبل الغربي كله من (جادو الى نالوت) في مدى شهر ونصف شهر بفضل نفر قليل من الجنود الشجعان البواسل تدفعهم الجرأة والاقدام ويحركهم ايمان ثابت في نهضة الوطن المنتصر.

وكان هناك في روما اناس مترددون ضعاف الايمان، كما كانت هناك اشاعات قوية تسمع في مجلس الشيوخ كلها استنكار لهذه الحوادث لاظهار ما يترتب عليها من خطر جسيم، وكان يقابل هذه الاشاعات تلك المبادرات القوية التي تهز المشاعر التي اعتاد ان يقولها صاحب السعادة المارشال (بادرليو).

ومع هذا فقد منعت الاشارة الى هذه الحوادث وحرم على الجميع التحدث عنها، وهكذا بقيت مرحلة من اهم مراحل انتفاضتنا الطرابلسية غير معروفة، تلك المرحلة التي كانت لها نتائج مماثلة لاعادة احتلال سواحل مصراتة وانتهاك حرمة ذلك الخط الجبلي الذي كان زعماء الثوار يعتقدون انه منيع لا يمكن الوصول اليه باي حال من الاحوال، والذي كان لامتلاكه اثر كبير على العمليات المستقبلية لاعادة الاستيلاء على الاقاليم الباقية، وبعد اتمام احتلال جادو كان يجب تقرير ما اذا كان من المناسب او غير المناسب ترك الجيوش النظامية فيها لتعمل سويا مع جماعات خربيش لتدعيمها او سحبها من هذه المنطقة وترك خربيش بمفرده، وكانت هناك اسباب كثيرة تدعو لقبول الحل الاول، ومن اهم هذه الاسباب هو ان نظهر للجميع كيف وصلت الحكومة الى الجبل الغربي بجيوشها وليس خربيش البربري هو الذي جاء اليه للسيطرة عليه بدلا من فكيني، ومن تبادل وجهات النظر على وجه السرعة وصلتني الكلمة الجليلة التي قالها سعادة الحاكم، الذي رغما من انه ترك لي امر البث في الموضوع، قدم لي بعض العناصر الايجابية بوصفه رئيسا لي، وقد قدرتها حق قدرها، واستطعت ان اطبقها وانا مطمئن البال حسب مقتضيات الاحوال، لذلك قررت ان اتحرك في جادو بجنودي النظاميين الى جانب رجال خربيش وان انتظر ان تقدم لي الحوادث المرة بعد المرة القاعدة التي اسير عليها، وهكذا كنت متفقا تمام الاتفاق مع فكرة الحكومة.

وكان من شأن الايام التي تلت الاحتلال ان اعطت في تلك الاثناء الاحساس الدقيق بكل ما كان لضربات الوخيم والجوش والسلامات من اثر في انكسار قوات فكيني وهزيمته.

وبعد ان قامت الكتيبة الاريتيرية الرابعة بضربات مستمرة في بلاد الرجبان والزنتان استطاعت ان تدرك في الواقع كيف اصبحت هذه البلاد خاوية على عروشها وقد اتفقت جميع المعلومات التي وردت تدريجيا على التاكيد بان فكيني

انسحب الى مزده وبان قبائله قد انتشرت في (بئر علاق) و (بئر الكلاب) و (بئر سانية الجديد) في القبلة وكانت الخسائر التي اصيب بها في الاعيان والاقارب والرجال المسلحين والمواشي فادحة للغاية، ويؤكدون ايضا ان من يوم واقعة الوخيم (3 يونيو) بدأ اهالي الزنتان والرجبان في الفرار بمنتهى السرعة نحو القبلة بعد ان استبد بهم الفزع والذعر الشديدين وان آلافا من المواشي قد ذبحت، بسبب ما اصابها من العطش.

ونظرا لندرة التموينات التي زادت قلتها ايضا بعد المعارك التي وقعت وللصعوبات المالية يمكن القول والاستنتاج ان احوال هذا الزعيم قد اصبحت سيئة جدا كما دلت على ذلك عبارتان متميزتان احداهما نطق بها بفمه والاخرى وجدت مكتوبة على جدار بيته في (تاريديه) اذ قال ما نصه، (منذ الان قد فقدت كل شيء ولم يبق له سوى الانتقام) (كما انه قد وجدت في بيته مكتوبة العبارة البائسة والتي لها مغزاها وهي : من هذه اللحظة وصلت معونة الله الى اعدائنا ولذلك لم يبق امامنا الا المساعدات التي يمكن ان تأتي من الشرق) وقد تأكد ان اناسا من يفرن وبئر الغنم وككله والرياينه وجانب من اهالي الصيعان ممن انضموا الى الزنتان والرجبان من بقايا اهالي الوخيم والجوش قد حاربوا في السلامات .. كما تأكد ايضا ان خالد القرقني كان موجودا على مقربة من جادو عندما تم احتلال هذه المدينة.

كما كان هناك جنود الزعيمين (تمسكت) و (الشيخ سوف) النظاميين ومعهم مدافع ميتراليوزات وانهم قد اخذوا طريق الشرق بعد احتلال جادو، وقد دل هذا على انه كانت هناك تجمعات من اهالي الشرق في اتجاه جادو تقوم بسد الممرات الجبلية لمنعنا من ارتقاء الهضبة وعزلنا عن الساحل وكان من الممكن ان يعمل على احباط اغراضنا الحربية احباطا تاما لو اننا اقتصرنا على الجوش دون غيرها .

كانت النتائج العاجلة لانكسار العدو واحتلال جادو هي :

(1) قرار اهالي الصيعان بالاستسلام النهائي بتسليم اسلحتهم بعد تردد طويل.

(2) تعجيل عائلات فساطو ونالوت التي استطاعت في ايام قلائل ان تطمئن الينا وتعتمد علينا بالعودة زرافات ووحدانا من الوطية الى اقاليم كاباو وجادو .

(3) امكان الاتصال عن كثب باهالي يفرن والتاثير عليهم سياسيا وفعلا وصلت الحكومة تأكيدات من كل مكان من الاهالي بالاخلاص لها (من الريباينه وقصر الحجيرة والاصابعة والمشاشي وأولاد بو سيف وغيرهم).

(4) مراقبة الحدود التونسية ومن ثم منع التهريب حتى سفح الجبل.

(5) تثبيت سلطاتنا وزيادة احترام الاهالي الوطنيين للحكومة.

(6) ازدياد المزايا الاخرى ذات الصفة العامة تبعا للموقف في الشرق، ومن بين هذه المزايا ايضا امكان التقدم نحو يفرن وغريان متى وكيف ما ارادت الحكومة ذلك وقررته.

هذا ما اورده الجنرال غراتزياني في كتابه (نحو فزان) بشأن معركة السلامات، ولقد كنت اتمنى ان اجد ولو اشارة ضئيلة لأنه ليس من غايتي ولا في نيتي ان أغمط الصيعان حقهم لانني اعرف انهم اسهموا في الجهاد الوطني بقدر لا يستهان به، ولما كانت غايتي البحث عن الحقيقة وتأكيدها فلا استطيع ان انكر ان المجاهدين قد اندحروا امام القوات الايطالية التي كانت مدججة بالسلاح المتقدم، وهذا بطبيعة الحال ليس عيبا ولا عارا فالحرب سجالا ومد وجزر، اما ان يقرر السيد القشاط ان الاغلبية كانت قد هربت وهي التي كانت في مقدمة الجهاد بينما اقلية قد تصدت فذلك امر عجيب، فهو يقول كما رأينا ان الزنتان والرجبان قد وصلوا بلدانهم تاركين العدو وراءهم يتقدم بدون قتال.. ثم يضيف، ان خربيش عندما استولى على السلامات هاجمته قوات الصيعان والزنتان والرجبان بضراوة، فان القارىء لا بد ان يفهم ان الزنتان والرجبان رغم الكلمة المخففة التي اوردها الكاتب (وصلوا بلدانهم) انما هربوا امام العدو لانهم تركوه وراءهم يتقدم بدون قتال،وان هذا لم يحدث مع الصيعان، وان خربيش عندما احتل السلامات قد تصدى له الصيعان والزنتان والرجبان، اي ان الصيعان اولا وربما يكون الزنتان والرجبان قد عادوا خوفا من عار الهزيمة والهروب فانضموا الى الصيعان في مواجهة حليف الطليان!!! وهذا ما لم يحدث ولا ذكر في اي مصدر تاريخي، والحقيقة ان المجاهدين جميعا قد قاتلوا ببسالة، ومن المعروف بلا مراء ان الزنتان والرجبان هم الذين يتقدمون المجاهدين لانهم العمود الفقري وهم الاغلبية وكانوا

طليعة الجهاد الوطني في الجبل الغربي، وهذا ليس من عندي وانما هو التاريخ والواقع والحقائق، وبعد المعركة اتجه الزنتان والرجبان الى القبلة فمن اجل تنظيم الصفوف ومواصلة الجهاد، اما الذين لم يذهبوا فقد استسلموا للطليان وسلموا اسلحتهم، ورغم حدوث ذلك فانني مع هذا لا يمكن ان اقلل من مساهماتهم في الجهاد الوطني لان العبرة بالنوايا، وقد كانت نواياهم صادقة من اجل الوطن والاسلام ولكنهم غلبوا على امرهم من قوة قاهرة ودولة معتدية غاشمة، وانا في الحقيقة لا اعرف على اي وجه من الوجوه يمكن ان نقلّب كلام القشاط اذ ما كان اغنانا عن تضييع الوقت في هذر ينبئنا بمقاصد سيئة، وليته ما كتب، او كما قال الشاعر :

فليت وليدا مات ساعة وضعه ولم يرتضع من امه النفساء

وعندما تكون النوايا سيئة يفسر صاحبها الاحداث بحسبها تماما[1]، ولقد رأينا كيف فسر كاتبنا كلام الجنرال الايطالي الذي اورده عن معركة السلامات، فالايطالي يقول، ان المنطقة كانت خاوية على عروشها فيأتي القشاط ليقول ان اهلها هربوا.

ويقول القدماء :

ان الذين ينسبون اعمال الاخرين لانفسهم من بطولات ونضال وانجازات هم اولئك المقطوعين الاصل ومعدومي الرصيد الوطني والقومي.

---

(1) محمد عمارة، فجر اليقظة العربية، القاهرة، 1967.

2

الفصل الثاني

على الزمن أن لا يمحو الماضي من تاريخ الانسانية، وعلينا أن لا ننكر على الأعمال العظيمة والرائعة حقها في الشهرة

هيرودوتس

لانني اعرف يقينا ان اجدادنا وآباؤنا لم يكونوا يصرخون في الهواء فقط وانما كانوا قد كتبوا بدمائهم مجد ليبيا على رمال الصحراء وفوق قمم الجبال ووسط الوديان ايمانا منهم بالحق والحرية ودفاعا عن العروبة والاسلام، واعتقادا بانه ليس كافيا نفي الاشياء دون اثبات خطأها، كماانه غير مقبول الاعتراض على الباطل دون تأكيد الحقيقة، فقد اردت ان اعيد الى ذاكرة القارىء الكريم بعض احداث تاريخ الجهاد الليبي دون زيف او مباهات، ولا ادعي انني اؤرخ وانما انا اكتب على هامش التاريخ عودا بقطرات الغيث الى مجراها الطبيعي لان القطرة تكوّن نهرا، وهي ليست قطرة ماء وانما هي دم زكي طاهر.

وصدق شوقي حين قال :

قد يهون العمر الا ساعة وتهون الارض الا موضعا

ولعل هناك من اثلم ذاكرته ان لم يكن قاصدا الاساءة فرفع معولا يومي به هنا وهناك كعصاة الاعمى في مفترق الطرق.. ومن اجل ان لا يرتفع معول آخر، وبسبب ساعة من العمر وقطعة من الارض لن نيأس من البحث عن الحقيقة حتى لو اضطررنا الى حمل شمعة (ديوجينيس) في وضح النهار، واظن ان من يتعامل مع احداث التاريخ بالعواطف والاهواء يقع بالتأكيد في المحظور مثلما فعل صاحب كتاب (معارك الدفاع عن الجبل الغربي) ولقد فرق وما ميز وتحامل وما ادرك، لم يبحث وانما نبش، لم يستعلم وانما قرر، تجني على اصحاب الحق فصدق انه مؤرخ وان اهله هم الطول والحول وربما السيف والقلم وما درى انه بذلك اساء اليهم حيث وضعهم فيما لم يكونوا فيه، وفرض علينا الخوض فيما كنا لا نريد.. ذلك أن نضال الشعوب إنما هو نتاج إرادات وعقائد وإحساسات قد يستوي فيها الناس وقد يختلفون، والاختلاف لا بد ان يكون بنسب وحسب الظروف المعيشية

والثقافية والاجتماعية، ولقد حارب اباؤنا واجدادنا لا ابتغاءمال او جاه او منصب بل رغبة في الحياة الآخرة، اذا ما قتلوا في سبيل الله والوطن، وكان اهلنا، ربما بلا استثناء، ضد الايطاليين عند بداية الغزو وقد قاوموا سنتي (1911-1912م) ونحن نعرف ان المقاومة في اي شكل لها حدود، وكانت القوة الغازية تتوفر لها جميع وسائل الغلبة، مادية وعلمية وبشرية وعسكرية، ومن هنا فقد احتلت مناطق الحياة في البلاد، ومن المعروف ان الشريط الساحلي في ليبيا يمثل مناطق الاستقرار والانتاج، ولان بلادنا مترامية الاطراف فقد كانت وما زالت الصحراء تكوّن الجزء الاكبر فيها، وكانت حياة الناس تختلف مثلما هي في اي مكان من العالم، فهناك من لم يرى الصحراء على الاطلاق وبالتالي فانه لا يستطيع تحمل شظف الحياة الصحراوية اذا ما ترك الشاطيء، وهذه حالة سكان المدن والمناطق الزراعية، وطالما ان القوة الغازية قد تغلبت فلقد كانت هناك خيارات وبدائل، وهي اما الهدوءوالسكينة والركون الى قبول الامر الواقع المفروض، او الالتجاء الى الصحاري والاستمرار في الرفض ومواصلة الجهاد، وهذا ما حدث فعلا في فترة ما بين سنة 1912 و 1930م، حيث تغلبت القوة الغازية نهائيا على المقاومة الليبية، واذا كان الغازي قد عمل على زرع الفتن والخلاف بين الليبيين عملا بقاعدة فرق تسد فذلك شيء طبيعي ومتوقع، اما ان يقوم، وبعد نصف قرن او اكثر شخص او اشخاص باحداث الفرقة والفتنة فذلك امر يبعث على القلق...

ويقول المفكر القومي الاستاذ ساطع الحصري، ان اهم العوامل الاساسية في تكوين الامة هو اللغة والتاريخ، ان اللغة بمثابة حياة الامة والتاريخ بمثابة شعورها[1] ويقول الدكتور محمد عمارة، فاذا كان تعدد الآلهة عند العرب الوثنيين قبل الاسلام رمزا يشير الى تعدد الهويات وتشتتها بالنسبة للانسان العربي والى انعدام الوحدة الوجدانية ومن ثم البعد عن كل ما هو قريب من السمات القومية بالنسبة لهذا الانسان فان التوحيد الديني الذي جاء به الاسلام في تلك الصورة النقية البسيطة قد كان بلا شك (ضمن ما كان) رمزا لتوحيد هذا المجتمع والسبيل لجمع شتات هذه القبائل حول راية جديدة يبني اصحابها مجتمعا موحدا على

(1) مساطع الحصري، محاضرات في نشوء فكرة القومية، طبعة بيروت 1956م.

اشلاء التمزق والفرقة والشتات والضياع، فما بالنا اذا علمنا ان الاعراب (سكان البادية) قد حاربوا من خلف هذه الراية التوحيدية دون ان يصل الايمان بالجوانب الروحية للدين الجديد الى قلوبهم، وفي ذلك يقول القرآن الكريم (قالت الاعراب آمنا، قل، لم تؤمنوا، ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم) فلقد اسلموا بأن انخرطوا في سلك النظام السياسي التوحيدي الجديد، دون ان تخالط الجوانب الروحية، التي هي قسمات الاسلام العالمية شغاف قلوبهم بالقدر الكافي والحد المطلوب.

ولقد كان هناك عربا مسيحيين قد تعاونوا مع جيوش العرب المسلمين وحاربوا في صفوفها ضد البيزنطيين، حدث ذلك مع عرب (حمص) المسيحيين الذين ناصروا ابا عبيدة بن الجراح قائد موقعة اليرموك ضد هرقل قيصر الروم، وحدث ذلك ايضا مع العرب المسيحيين (الجراجمة) سكان (الجرجومة) في شمال سوريا حينما حاربوا خلف القائد العربي المسلم (حبيب بن مسلمة الفهري) بل لقد صنع مثل هذا الموقف بعض الولاة الفرس الذين كانوا يحكمون شعبا عربيا في العراق فانحازوا مع شعبهم الى صف الدولة الجديدة وقاتلوا مع العرب المسلمين، فهم عرب ظلوا على ديانتهم السابقة وساهموا في بناء الدولة العربية الموحدة الجديدة، ولقد رحب بموقفهم القومي هذا (واعفاهم) في نظيره من دفع الجزية قادة المسلمين يومئذ وعلى رأسهم امير المؤمنين عمر بن الخطاب.

وفي مرحلة جهاد الاسلام والمسلمين نجد ان الولاء للفكر الجديد الموحد للجماعة العربية قد اصبح هو المقياس الذي يقاس به الاخلاص للدولة، والذي يحدد مركز الانسان في سلم المجتمع، وذلك بدلا من النعرات القبلية والعصبيات التي اشتهرت عن العرب، والولاءات المتعددة التي كانت تفرقهم شيعا واحزابا وتحول بينهم وبين الفكر القومي السليم، ففضلا عن شمول الدعوة الجديدة والدولة الوليدة لجمهرة غفيرة من الارقاء والمستضعفين الذين ينحدرون من اصول غير عربية (رومية وفارسية وزنجية) فاننا نجد المقاعد الاولى في القيادة يتبوؤها اناس من امثال (سلمان الفارسي) و (صهيل الرومي) و (وبلال الحبشي) دون ان تحرمهم اصولهم العرقية الاولى من التمتع بميزات الولاء الجديد الذي انخرطوا

في صفوف اصحابه، وهو الولاء الذي كان للعروبة بمفهومها الذي تمثل في الملامح القومية للاسلام.

وفي ميدان الفكر النظري نجد من بين ما نجد ذلك الموقف الحاسم الذي وقفه الرسول من هذه القضية، فعندما يقف قيس بن مطاطية في احد المجالس ليعرض باعجمية كل من سلمان الفارسي وصهيل الرومي وبلال الحبشي، يأخذ معاذ بن جبل في تلابيبه ويقوده الى الرسول عليه الصلاة والسلام ثم يصعد المنبر فيقول :

ايها الناس ان الرب واحد والاب واحد وليست العربية باحكم من اب ولا ام وانما هي اللسان، فمن تكلم العربية فهو عربي، ويضع بهذه الكلمات الخطيرة اسسا جديدة للعروبة والولاء للدولة الجديدة، بعيدة كل البعد عن (العرق) والجنس والنزعات القبلية القديمة، وهو مفهوم حضاري يعتمد على اللغة وما تمثله من آداب وعادات وتقاليد سبيلا للتفاهم بين الانسان العربي واخيه الانسان[1].

وانني اذ اسوق هذا الكلام انما اريد ان ادلل على بطلان النعرات القبلية، ولا يجب ان يحسبن احد اني التمس عذرا او مبررا للخيانات التي حدثت من جانب اولئك الذين رفعوا السلاح في وجوه اخوتهم في العروبة والاسلام متعاونين مع السلطات الايطالية انما انا اعرف كغيري ان كثيرين قد سيقوا عنوة للمساعدة في الاعمال الحربية او حتى القتالية، وهناك من اغواهم المال والرشاوي، او قد اججت في صدورهم عداوات وثارات ولا بد ان القارىء الكريم يعلم ان الاريتريين والاحباش قد جاؤوا مرغمين لمقاتلة الليبيين ثم حدث بعدئذ ان نقل الليبيون عنوة ايضا لمقاتلة الاحباش والاريتريين هناك في القرن الافريقي، وقيل لهم انكم تنتقمون لما حدث لاهلكم في ليبيا من طرف هؤلاء الناس، وحدث ان الذين رفضوا قد سجنوا وعذبوا او اعدموا وحل باهلهم وقراهم الدمار، وهنا لابد لنا ان نطرح سؤالا يلح علينا بعد هذا العرض :

ترى هل توجد امة على وجه الارض ذات اصل واحد ام ان الشعوب والامم

(1) كتاب فجر اليقظة العربية، محمد عمارة، القاهرة، 1967م.

تتكون بالاستيطان والامتزاج واللغة والعادات والتقاليد، وترى ماذا يكون الحال لو حدث ان فسر تاريخ جهاد الشعب الجزائري او الشعب الفيتنامي او الشعب الافغاني او الشعب المصري او اي شعب على اساس قبلي وطائفي، وكيف لنا أن نميز بين الليبيين وهم شعب واحد منذ قرون ... ترى ما هو الخلاف بين البربر والعرب اذا صحت التسمية.. بل وبين العرب انفسهم قبائل ومناطق.

ومن يرى الى ما ذكره صاحب كتاب (معارك الدفاع عن الجبل الغربي) سيجد العجب العجاب، فاذا لم يكن على بعض المعرفة بسكان ليبيا سيعتقد ان الصيعان هم اغلب سكانها فهؤلاء يتصدون للطليان في كل مكان، ومن المعروف انهم قبيلة صغيرة جدا مقارنة بقبائل الجبل الغربي، وان هناك عائلتان فقط من الصيعان كان لهما دورا ظاهرا ومعروفا في الجهاد الليبي هما (عائلتا الغدي واولاد امحمد) ومع ذلك فانه من غير الانصاف التقليل من تضحيات افراد ينتمون الى هذه القبيلة، اما القول بانهم كانوا يقودون ويتصدون دون غيرهم فذلك امر لا يمكن القبول به من وجهة النظر التاريخية وواقع الحال، واكرر انه ليس انتقاصا من قدرهم وانما هو تأكيد الحقيقة، ولقد كان القشاط في هذه الحالة كالجالس في حجرة كل حيطانها من مرايا لا يرى فيها الا نفسه، وهذا مثال على ذلك، يقول في كتابة عن معركة السلامات مرة ثانية:

وصعد خربيش الى السلامات واحتلها بسهولة ولكنه ما ان استقر بها حتى هاجمته قوات المجاهدين بضراوة من الصيعان والزنتان والرجبان، واستمرت المعركة يوما كاملا وعند المساء تراجع المجاهدون، فلقد اصبحت القوات القادمة من الجبل طريق نالوت كاباو نحو الحرابة تهدد الصيعان من الخلف، كما ان القوات القادمة من بئر الغنم صارت تهدد الزنتان والرجبان من الخلف.

وجدير بالذكر انه كان قد ذكر في احداث نفس المعركة ان الزنتان والرجبان قد وصلوا الى بلدانهم تاركين العدو يتقدم بدون قتال.. ثم نجده يؤكد لنا قائلا :

وهكذا تم خروج الزنتان والرجبان من الحرب نهائيا بعد معركة السلامات ولم يشتركوا في الحرب الا بعد سقوط الجبل وترهونة ومصراتة وبني وليد.

وسيفهم القارىء من هذا الكلام ان المعارك في الجبل الغربي قد استمرت

وان الزنتان والرجبان والصيعان هم الذين كانوا يقاتلون وقد خرج الزنتان والرجبان نهائيا من تلك الحرب، اذن الذين بقوا يقاتلون هم الصيعان فقط.!!!

ومن العجيب في الامر انه يقفز مباشرة من الحديث عن معركة السلامات دون الاشارة الى معركة جادو وهي التي كانت بعدها بيوم واحد، فقد كانت معركة السلامات يوم (18 يونيو 1922م) ومعركة جادو يوم (19 يونيو 1922م) وقد انتهت الحرب في الجبل الغربي بعد معركة جادو كما اورد غراتزياني وغيره.

وقال القشاط بعد ان اكد ان الزنتان والرجبان قد خرجوا من المعركة ما يلي :

وهكذا اصبحت المنطقة من جادو الى وازن خاضعة للنفوذ الفعلي الايطالي.

وفيما يلي ما ذكره غراتزياني عن معركة جادو التي حدثت مباشرة بعد معركة السلامات، احتلال جادو (19 يونيو 1922م)

بدأ الرائد (تراكيا) دون تأخير في تعقب العدو طوال الليل، وفي صباح يوم 19 احتل بلدة جادو وهنا ايضا رفع رايتنا فوق قلعتها القديمة بين تهليل البربر وغبطة الجنود، ولقد كان اعادة احتلال هذا المركز ومركز كاباو قد نتج عنه نزوح جميع اهالي الزنتان والرجبان الى (القبلة) فضلا عن بعض جماعات اخرى كما ادى الى تسليم الاسلحة والى استسلام جميع اهالي الجبل العرب من جادو الى نالوت، وقد تم احتلال هذه البلدة الاخيرة على يد الرئيس (كورو) في الساعة الحادية عشرة من يوم 6 يوليو ورفعت فوق قلعتها البربرية القديمة الراية الايطالية من جديد بعد ان قام خليفة بن عسكر مرتين بالحاق الاهانة والعار بها، ذلك الرجل الذي شنق بعد ذلك بقليل في الزاوية.

ويطرأ هنا سؤال معهم، فاذا كان الزنتان والرجبان قد انسحبوا الى القبلة، واذا كان الجبل جميعه قد احتل في نفس اليوم التالي لمعركة السلامات فاين اولئك الذين كان تقدم القوات الايطالية من نالوت يهددهم من الخلف، بمعنى اذا كان الصيعان يمثلون جبهة فاين اصبحوا بعدئذ ... واذا كان الزنتان والرجبان قد نزحوا الى القبلة بالطبع رفضا للتسليم ورغبة في مواصلة القتال بالتأكيد، ذلك ان من بقي في الجبل قد استسلم فماذا حدث للصيعان ... واذا كانت جميع الوثائق

تؤكد ان معركة السلامات قد استشهد فيها اثنان واربعون مجاهدا من الزنتان والرجبان ولم يكن بين هؤلاء الشهداء واحدا من الصيعان فكيف يمكن لاحد ان يصدق روايات القشاط عن تلك المعركة او غيرها...

ويضيف غراتزياني في كتابه (نحو فزان)، فيقول :

وهكذا بقيت مرحلة من اهم مراحل انتفاضتنا الطرابلسية غير معروفة، تلك المرحلة التي كانت لها نتائج مماثلة لاعادة احتلال سواحل مصراتة وانتهاك حرمة ذلك الخط الجبلي الذي كان زعماء الثوار يعتقدون انه منيع لا يمكن الوصول اليه باي حال من الاحوال، والذي كان لامتلاكه اثر كبير على العمليات المستقبلة لاعادة الاستيلاء على الاقاليم الباقية.

وبعد اتمام احتلال جادو يجب تقرير ما اذا كان من المناسب او غير المناسب ترك الجيوش النظامية فيها لتعمل سويا مع جماعات خربيش.

وكانت هناك اسباب كثيرة تدعو لقبول الحل الاول ومن اهم هذه الاسباب هو ان نظهر للجميع كيف وصلت الحكومة الى الجبل بجيوشها، ويشير بعد ذاك الى فرار الناس امام القوات الايطالية الخ.

وعندما ينتهي غراتزياني الى هذه الاقوال فانه في الحقيقة لا يهمنا كثيرا معنى الكلمات كالقول بانهم فروا مذعورين، لانه من الطبيعي ان يخاف الانسان عندما تواجهه قوة عاتية مدمرة، والخوف في طبيعة المخلوق، وهؤلاء المجاهدين في الواقع يقاتلون في سبيل الله والوطن وهم يواجهون قوة باغية تعتمد على جيوش نظامية مزودة باحدث الاسلحة المعروفة وقتئذ انما الذي يهمنا هو ان هؤلاء الناس يقاتلون ورغم فرارهم على حد تعبيره فانهم يواصلون الجهاد، ونرى هنا ان القلة قد انضمت الى الاغلبية وهذا لا يعيرها او يقلل من قيمتها، اما ان يقال العكس، اي ان تلك الاقلية هي التي حاربت بينما هرب الاخرون فذلك خلط وهدر.

وجاء في كتاب موسوعة روايات الجهاد الذي اصدره مركز الجهاد الليبي حول الوضع في الجبل الغربي، ما يلي :

استعان الايطاليون بخربيش فقاد ما يقارب 1500 مسلح وخرج على

جنزور والزاوية وكان محمد بن حسن المشاي في صف الايطاليين وكذلك اولاد بو سيف وكافة الجبل باستثناء الزنتان والرجبان الذين تركوا الجبل واتجهوا الى القبلة وكذلك ككله لم تكن في صف الطليان، اما غريان فقد وقعت بين الايطاليين من ثلاث جهات، من جهة الجبل والعزيزية والرابطة وشعر الهادي كعبار بحرج موقفه خاصة وان سوف وتمسكت والي جانبهما المختار كعبار كانوا يريدون محاربة الايطاليين ولذلك استدعى اغلب الاهالي في غريان لاستشارتهم واخذ رأيهم، ووجه كلامه لكل من سوف وعبدالله تمسكت وقال، اذا كنتم مستعدون للتصدي للايطاليين القادمين جهة الرابطة فنحن على استعداد للحرب، وهكذا ذهبت مجموعة لملاقاة الايطاليين وحين وصلوا الى بئر الغنم وجدوا ان لا قدرة لهم على محاربة الايطاليين فقفلوا راجعين الى القواسم، وهنا استشار الهادي كعبار اعيان غريان واشار عليهم بالتسليم امام ما رآه من ظروف راهنة، وهكذا تم مكاتبة غراتزياني وقد وقعت مضبطه من اعيان غريان وكنت احد الموقعين واشترط الهادي كعبار العفو عن غريان فيما مضى والابقاء على بعض السلاح في يد الاهالي وشروط اخرى وحين اطلع غراتزياني على هذه الشروط رد عليها بان الحكومة غير ملزمة بهذه الشروط، واشترط غراتزياني ان لا تطلق رصاصة واحدة عند دخوله غريان، وهنا طلب الهادي كعبار من اعيان غريان الالتزام بهذا الشرط واكد على عدم الاخلال به.

وكان اللقاء بين كعبار وغراتزياني بالقرب من قرية تبادوت، وكان نافع وعاكف وبن حسن والغياط وخريبيش الى جانب غراتزياني بالاضافة الى اعيان آخرين.

وكانت مجموعة من الذين رفضوا التسليم في تغسات، وخوفا من تبادل اطلاق النار الذي يترتب عليه اخلال بالاتفاق حرص كعبار على طرد هذه المجموعة من تغسات وكلف مجموعة من المسلحين لهذا الغرض فانسحبت تلك المجموعة إلى القواسم وكان من بينها المختار كعبار واحمد راسم، وبقيت ستة او سبعة ايام في القواسم بعدها تقدم اليهم الايطاليون وحاربوهم واخرجوهم من هناك، كان شخص ثري من جنزور في بلدتنا واراد ان يفر من الايطاليين فذهب الى القواسم

وهناك وقع في ايدي الايطاليين فاعتدوا على امواله واخذ احمد العياط حصانه بسرجه الفاخر وبعد ان وصل غراتزياني الى القواسم اصبح كل الجبل تحت الايطاليين باستثناء الزنتان والرجبان والقواليش فقد اتجهوا الى القبلة، ونظرا للعداوة التقليدية بين الزنتان والمرابطين فقد جهز احمد العياط حملة واتجه بها الى القبلة لمطاردة نجوع الزنتان وكان مع الحملة محمد بن حسن وخربيش، ومرت الحملة على قرية المغاربه وباتت هناك ثم استأنفت سيرها متجهة الى الحمادة لاداء مهمتها ودارت هناك معارك بين هذه الحملة والمجاهدين قتل احمد العياط في احداها (ص 6-7 من نفس المصدر).

ونلاحظ ان الجنرال غراتزياني في كتابه نحو فزان يورد عبارات قال انها كتبت على جدار بيت فكيني، وهي :

من هذه اللحظة وصلت عناية الله الى اعدائنا ولذلك لم يبق امامنا الا المساعدات التي يمكن ان تأتي من الشرق.

وهذا يدل على ان محمد فكيني كان يحس بالحاجة الماسة للتنسيق بين قوى الجهاد في ليبيا لمواجهة الهجمة الايطالية التي بدأت بعد صلح (سواني بن يادم) ويأخذ مؤلف كتاب معارك الدفاع عن الجبل الغربي هذه الرسالة ذريعة للتشكيك فيقول :

اصبحت الطريق في صيف 1922م ممهدة للايطاليين ان يبدأوا عملياتهم العسكرية فالزعماء ايضا صار يتسلل الى بعضهم الخوار وضعف العزيمة، ومما يدل على ذلك هذه الرسالة التي يرسلها محمد فكيني زعيم الزنتان والرجبان الى أمحمد المريض رئيس هيئة الاصلاح المركزية واخيه الصغير المريض زعيمي ترهونة.

وهنا ملاحظتين كانتا هدف مؤلف الكتاب وهما :

الاولى، التأكيد على ان فكيني هو زعيم الزنتان والرجبان معا وفقط

والثانية، انه اصيب بالخور وهو يبحث عن مخرج ليتفادى مواجهة الايطاليين (وقد اكد عدة مرات ان فكيني لا يرغب مقاتلة الطليان).

واذا كان زعيم الجماعة لا يريد المواجهة فان ما يقوم به هذا الزعيم لابد انه يحظى بتأييد تلك الجماعة، وهذا غير صحيح للاسباب التالية :

اولا، ان محمد فكيني لم يكن زعيما للزنتان ولكنه في حقيقة الامر زعيم جبهة كاملة هي جبهة الجهاد في الجبل الغربي كله، اما الزنتان على حده باعتبار ان فكيني ينتمي الى الرجبان فان زعيمهم الشيخ سالم بن عبد النبي الناكوع، ونحن عندما نذكر هذا فاننا لا نقلل من قيمة او دور محمد فكيني، ومن العجيب ان الكاتب لا يعتبره زعيما للزنتان والرجبان الا في هذه الحادثة بينما نراه يورد في رسالة اخرى بعثها فكيني الى غراتزياني ان فكيني ينوب عن الزنتان والرجبان والصيعان وذلك ما اورده على الصفحة (112) والرسالة تاريخها يونيو 1922م تحت توقيع (خادم البلاد، محمد فكيني وجميع اهالي الزنتان والرجبان والصيعان).

وثانيا، ان محمد فكيني باعتباره زعيما لجبهة جهاد تشمل الجبل الغربي كله لابد له ان ينسق مع الجبهات الاخرى التي يتوقع منها المساعدة وكان في رسالته يطلب الرأي ويؤكد ان جبهته متماسكة حيث يقول :

فمن اجل اموركم وافكاركم رأيت اننا محبين لكم بالقلب والقالب، ها هو ارسلنا اليكم اخونا الحاج بوبكر لتعرفونا تفكيركم او تقدموا لجهاتنا لاصلاح الامور او للتدابير المقتضية لانه تقول انتم والنواحي والعزيزية، ونحن من يتبعنا ان شاء الله رأيا واحدا، اما تأتوا بالجيوش والاتفاق والنصر المبين اوتأتوا بالرأي الذي يهنيء اوطانكم... انتهى.

ولو كان هناك انصافا او نظرة موضوعية لاحداث التاريخ لقيل ان الحاج محمد فكيني ومن معه من زعماء المجاهدين كانوا يدركون خطورة الموقف وكانوا يعرفون ان الايطاليين يعملون على بث الفتن والخلاف في صفوف المجاهدين وكانوا اولئك الطليان يسعون الى تشتيت الجهود، وهو ما حدث بعد ذاك اذ وجدوا بعض ضعفاء النفوس وبعض الآذان التي تصغي للاغراء، ولقد حدث الخلاف في النوايا وتباينت المواقف وظهرت الثغرات التي نفذ منها العدو، ومن العجيب ان يأتي هذا الذي ينظر الى الاحداث بربع عين وبخمس عقل ليقول لنا ان فكيني ومن

معه من قادة الزنتان والرجبان قد رحلوا الى الحمادة الحمراء، الى القبلة بعد سقوط مصراتة وبن وليد وغيرهما، فاذا كانت رسالة فكيني اصلا تؤكد على اهمية توحيد الصفوف والجهود وتنبه الى الخطر القادم، واذا كانت القوة الغازية قد تغلبت على المجاهدين في بعض المواقع وهي تتقدم للاجهاض على البقية الباقية، واذا كان تبعا لذلك هناك خياران، اولهما الانسحاب الى مواقع اخرى من اجل اعادة التنظيم وتوحيد الصفوف والامكانات لمعاودة الكرة في الجهاد، وثانيهما تسليم السلاح والاستسلام للعدو، سؤال بالطبع واضح، ايهما افضل، الانسحاب او الاستسلام... ولكن اصحاب النوايا السيئة يقولون دائما (لا تقربوا الصلاة، ولا يكملوا الآية).

قال الله في كتابه العزيز، **﴿الاخسرين اعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا﴾**.

صدق الله العظيم

3

الفصل الثالث

اختلط المرعى بالهمل، واللب بالقشر،
والصادق بالكاذب،
والى الله عاقبة الأمور

ابن خلدون

لابد من نظرة منصفة متجردة موضوعية الى احداث التاريخ عند التعرض لها، ويجب التعامل مع التاريخ الوطني من خلال منظور علمي يضع مصلحة البلاد فوق كل اعتبار ولقد حدث مع الاسف ان صار التعامل مع احداث التاريخ الليبي بحس قبلي ومنظور سياسي وموقف جهوي، وان لم يكن هذا عاما فقد كان غالبا، وما نعني بالمنظور السياسي والموقف الجهوي والحس القبلي ليس البحث في احداث عاشها الانسان او تعامل معها بالسمع او القراءة والبحث حتى لو كانت متصلة به وبعائلته او منطقته، بل ربما امكن القول ان ذلك محبب ويمكن اعتباره مساهمة في القاء اضواء على زوايا قد تكون غابت او هي مجهولة، ولكن المعيب والمكروه والمسئ هو تفصيل الاحداث لتناسب اناس كاظهار الحاكم ومن يتصل به بمظهر البطولة والنضال دون ان يكون له شئ من ذلك، واختلاق معارك وهمية بحيث تنسب الى قبيلة او منطقة او عائلة دون ان تكون هناك معارك على الاطلاق وغمط حق اناس بحيث يذهب ذلك الحق الى غيرهم، كما ان التهوين والتهويل يعتبر تجني واساءة تلحق القريب والبعيد، ولقد رأينا ان هناك من يأتي بتهم مفصلة على قياس اشخاص واكاليل غار جاهزة لآخرين، والتاريخ، اي تاريخ هو احداث متصلة ومتواصلة تؤثر في حياة البشر، ولا يجوز ان يكون الخلاف القبلي او السياسي او الديني سببا في الغائها او تحريفها او حتى تجاهلها، ولقد كان مع الاسف للمرحوم الطيب الاشهب دورا تخريبيا في تفسير احداث تاريخ الجهاد الليبي، وربما جاء بعده من سار على نفس الطريق وبذات الاسلوب، اسلوب الارضاء والتقرب والمداهنة والتملق من جانب، والاساءة والتجني والتزوير من الجانب الآخر، على اننا لا نستطيع ان ننكر ان التعامل مع احداث تاريخنا الوطني ليس هين وميسر، ذلك ان عقلية القبيلة والفردية والحساسية المفرطة وعدم تقبل النقد حتى ولو كان بناءا وانكار الحقيقة، كلها امور ما تزال سائدة في مجتمعنا

على الرغم من اننا مسلمين جميعا ونعرف انه **﴿لا تزر وازرة وزر اخرى﴾** و **﴿ما ابرئ نفسي ان النفس لامارة بالسوء﴾** و **﴿والعصر ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾** واذا ما نظرنا الى تاريخ نضال الليبيين المعاصر سنجد انه ينقسم الى فترتين تميزتا بظاهرتين :

الفترة الاولى، وهي بداية الغزو الايطالي، وقد تميزت بالاتفاق على الجهاد في سبيل الله والوطن، اي انها جهاد تحت راية الاسلام ضد الكفره او الذين حملوا صليب السيد المسيح زورا، ذلك ان الحرب في وطننا العربي مشرقه ومغربه لم تكن بين المسيحية والاسلام وانما كانت حربا بين غاز طامع ظالم وصاحب ارض وعرض يدافع عنهما، وقد كان كل الليبيين ضد الغزو سنتي (1911م – 1912م) والفترة الثانية، بعد نزول الايطاليين على شواطئ ليبيا واستخدامهم مختلف الوسائل كالبطش والاغراء والاثارة وتأجيج الفتن وأساليب الخداع، وقد استمر ذلك طيلة سنوات النضال الوطني، حتى سنة 1931م، وقد تميزت هذه الفترة بالخلافات القبلية والشخصية والطائفية، ويمكن اعتبار ان الجهاد قد حدث في مناطق ثلاث مختلفة وبانواع من الزعامات المختلفة كذلك، فلقد كانت هناك جبهة النضال الوطني في الشرق، وكانت هناك جبهة اخرى في الوسط، وجبهة ثالثة في الغرب، وبذلت محاولات كثيرة لجعلها جبهتان خصوصا بعد ظهور هيئة الاصلاح الوطني، وان لم تنجح تلك الجهود، وكانت جبهة الشرق تحت قيادة موحده تمثلت في السنوسيين بينما كانت الجبهتان الاخريان تتجاذبهما قيادات مختلفة شعارها واحد واغراضها مختلفة، وطالما اننا نتحدث عن حقيقة معارك الدفاع عن الجبل الغربي، وهذه حلقة من حلقات سلسلة الجهاد الليبي فلا بد لنا من حصر البحث في اطارها وعلى الرغم من ان معارك الجبل الغربي لا يمكن فصلها عن غيرها تأثرا وتأثيرا الا انها تمثلت في عدة معارك تعتبر مفاصل في تاريخ تلك الفترة، وهي الوخيم والجوش والسلامات وبئر الغنم ويفرن وغريان، وهذه جميعها تؤدي الى القبلة ثم الى الجنوب، ومثلما ان هذه المعارك هي المفاصل فان هناك قيادات وطنية كانت هي المفاتيح سلبا او ايجابيا، وهذه القيادات هي،

الحاج محمد فكيني والشيخ سالم بن عبد النبي والشيخ احمد السني والحاج محمد بن عبدالله والشيخ سليمان الباروني والهادي كعبار وخليفة بن عسكر ويوسف خربيش والصويعي الخيتوني، وكانت لهؤلاء جميعا اغراض وارتباطات ومصالح شخصية وقبلية وسياسية بعيدة كانت او قريبة برغم النوايا الحسنة، ولقد ساهموا جميعا في الجهاد الوطني كثيرا او قليلا باستثناء يوسف خربيش الذي كان منذ البداية مرتبطا بالغازي الاجنبي قلبا وقالبا، وعلى هذا فاننا نميل الى تحليل ادوارهم في تاريخ الجهاد الوطني في سياق تاريخي يأخذ في الاعتبار كل الظروف التي احاطت بهم، مادية واجتماعية وسياسية ونفسية، ولهذا فان ما اورده الاستاذ خليفة التليسي في كتابه (بعد القرضابية) يتميز بالانصاف والموضوعية، ومن اجل تعميم الفائدة نورده هنا .

يقول الاستاذ التليسي :

وكان الجنرال غراتسياني يردد في كتابه (نحو فزان) العبارة التي وردت على لسان احمد العياط تعليقا وتلخيصا للاحداث التي صاحبت العمليات العسكرية الايطالية في الجوش والتي انتهت فيما بعد بسقوط غريان، (ان نيران الجوش انضجت خبز غريان) وهذه العبارة على ايجازها واضحة في الدلالة على ان الاعمال الوحشية وعنف العمليات العسكرية في منطقة الجوش والانتقام على نحو شامل واسع من القبائل التي كان لها مشاركة في المقاومة، وملاحقة المناضلين وما تبع ذلك من كافة الوان العسف والجور والنهب والسلب وانتهاك الحرمات والاعراض، ومحاولة استمالة القبائل بالتهديد واحيانا بتدمير مضاربها ومصادرة حيواناتها وقتل رجالها، وبالترغيب احيانا، كان له الاثر الاقوى في تحديد مواقف الجبهات الاخرى بعد ان تردد صدى هذا العمل في جميع المناطق الواقعة بين جادو ونالوت وغريان مما سهل فيما بعد وقوع بعض هذه المناطق في قبضة الايطاليين دون مقاومة اتقاء للشر وتحسبا للنتائج وتقديرا للمواقف وشعورا بعدم تكافؤ الفرص وتكافؤ القوى، ولا بد لنا ونحن ندرس الموقف الوطني في جبهة غريان الا نندفع مع الانفعالات الذاتية وان لا نلقي بالا لكثير من الاتهامات التي ترددت وتتردد في بعض المصادر العربية عن مواقف بعض زعماء المنطقة قبل ان نحاول وضع الصورة في اطارها وندرس الواقع في نطاق الاحداث التي صاحبته،

ولقد سبق ان اوضحنا في الفصل السابق الاسلوب السياسي الذي اتبعه غراتسياني في هذه المنطقة الهامة الحساسة والذي يقوم على سياسة الترغيب والترهيب والتطبيق العملي لشعار الحملة العسكرية، الابادة المعنوية والمادية واستغلال الاوضاع الاجتماعية المختلفة ببراعة خبيثة وان يتجنب بواسطته خوض كثير من المعارك ومواجهة كثير من الصعاب، وليس علينا ان نعتب على هذا القائد المعادي لانه استغل كل هذه الاوضاع وانما علينا ان نعتب على انفسنا ونلوم واقعنا المتخلف الذي يهيئ له فرصة ذهبية ما كانت لتتاح له لو كانت هناك وحدة في المواجهة وفي جميع الصور وفي جميع العهود وفي الظروف القاسية التي مرت بها الامة العربية الاسلامية لم يؤخذ ولم تضرب الا من خلال انقسامها الذي حاول المستعمرون على الدوام ان يستغلوه وان يستفيدوا منه وان يعمقوه الى ابعد الحدود، فهم في النطاق الاقليمي الضيق كانوا يعمقون الخلافات القبلية والطائفية والعنصرية والجهوية، وهم على النطاق الوحدوي الشامل كانوا يعمقون الحس الاقليمي بكل ما يتفاعل فيه من العناصر التي يعتمدون عليها في تحديد ملامح الواقع الاقليمي (ومن الواقع الذي يجب ان نعترف به) وتفهمه الاجيال الناشئة ان غراتسياني انما استولى على الجبل الغربي بايد ابنائه من العرب والبربر على حد سواء واقام مجده العسكري على انتصارات الخونة والمرتزقة،... انتهى

هذه امور حقيقية ذكرها الاستاذ التليسي في كتابه وهي في حاجة الى فهم وتدقيق وبحث وطرح بحيث يمكن تحديد مواطئ الخلل وتقبل النقد الموضوعي الذي لا ينبني على الوهم او الخيال والعواطف او الاغراض الشخصية، ونرى ان التهم المفصلة الجاهزة قد طالت كثيرين حتى ان السيد عبد الرحمن عزام اصبح عميلا لايطاليا وهو الذي لعب دورا عربيا اسلاميا بارزا مع المجاهدين الليبيين وكانت له اراء في مصير ومسار هيئة الاصلاح الوطني ونحن نعتقد انها كانت صائبة، اما التهم وتغيير الوقائع وتحليل الاشياء في غير سياقها التاريخي فانه ليس تأريخا، ولما كنا نود ابراز حقيقة معارك الدفاع عن الجبل الغربي كجزء من تاريخ الجهاد الليبي فانه يجدر بنا ان نمر على تاريخ النوايا الاستعمارية الايطالية والدول الغربية في افريقيا.

ويذكر ان موسوليني على الرغم من ان حزبه قبل ان يصل الحكم كان ضد التوسع والمغامرات الاستعمارية، قال ذات مرة ان البحر الابيض المتوسط اذا كان ممرا للاخرين فانه يمثل حياة لنا، ومن الطبيعي ان نعرف بداهة انه اذا كان البحر الابيض حياة لايطاليا فانه ليس ممرا مائيا او بحيرة وانما هو ارض وماء، ولقد كانت ايطاليا مثلها مثل غيرها من الدول الاستعمارية تبحث عن موارد واسواق ومناطق نفوذ وعمالة رخيصة وربما ايضا مناطق تجارب اسلحة وادوية واختراعات اخرى، وايطاليا مثلت كأنما هي عش غراب يضيق بفراخه الذين يطيرون مباشرة عندما يظهر عليهم الريش، والشعب الايطالي مهاجر ومغامر ومكتشف حسب اعتقاد قادته في الفكر والسياسة والعلوم ولا يغيب عن بال هؤلاء الايطاليون امثال كولومبس وغيره، واذا كانت الدول الاوروبية الاقل شأنا قد تمددت وتوسعت وحكمت مثل هولندا والبرتغال فما بال ايطاليا تتقاعص، ولقد قال مازيني قرابة منتصف القرن التاسع عشر ان شمال افريقيا يجب ان يكون طرف كم القميص الايطالي وكان بالتأكيد يقصد تونس وليبيا وما يتصل بهما جنوبا لان فردة الحذاء (ايطاليا) لا يمكن ان تبقى معلقة في الهواء، وكانت بريطانيا وفرنسا وهولنده وبلجيكا واسبانيا قد احتكرت بعض المناطق في افريقيا وصارت تعجن ما فيها وتخبز قبل وبعد منتصف القرن التاسع عشر، وعندما تبين لايطاليا انها تأخرت نسبيا على الرغم من وضع قدميها في كل من اريتريا والصومال فقد فقدت تونس وما كان لها ان تصبر حتى تفقد ليبيا التي ما زالت تحت حكم الرجل المريض الذي يحكمها بنظام الباشوات ذوي الشنب المعقوف، ولقد قال فرانسيسكو كريس رئيس وزراء ايطاليا قبل موسوليني ان مياه البحر الابيض بين صقلية وخليج سرت يمثل مضيقا ايطاليا، وبطبيعة الحال فان قادة ايطاليا السياسيون في عهد كريس وبعده كان يدغدغ مشاعرهم مجد الرومان الاول حيث كان البحر الابيض يعد بحيرة رومانية، وعندما تدخلت ايطاليا في منطقة البحر الابيض او الشمال الافريقي او بالتحديد في ليبيا سلميا في بداية الامر بواسطة التجار والرحالة والاستثمارات وعسكريا فيما بعد بالاساطيل والطائرات والجنود كانت تنافس دول اوروبا الغربية الاخرى، وان كانت مشاكل ايطاليا في الحبشة سنة 1896م واسلوب التعامل مع تركيا قد اخرا المخطط الايطالي لبعض الوقت،

وليبيا هي بالضرورة اغنى وافيد من اريتريا والصومال وهي اقرب لايطاليا، ونظرا الى ان المواطن الايطالي مزارع جيد كما هو صانع فان الارض الخصبة في بعض نواحي ليبيا فرصة طيبة له، كمناطق المرج وتوكره والجبل الاخضر شرقي بنغازي وكذا منطقة طرابلس، ويذكر ان الرحالة الايطالي (مانفريد كابيرو) كان اول من اقترح اقامة مستوطنات زراعية في منطقة الجبل الاخضر شرقي بنغازي (وكان بعده هذا الموضوع قد طرح على زعماء الحركة الصهيونية لانشاء وطن يهودي في برقة) ولم تتوقف المطالب او الكتابات الصحفية الايطالية عن الفوائد والثروات الزراعية في ليبيا واحقية ايطاليا في الاستفادة من هذا البلد الذي لم تنميه تركيا (التنمية هنا لا علاقة لها بالطبع باهل البلاد الاصليين) وعلى اثر ذلك وضعت الخطط العسكرية وصارت السفن الايطالية تزور بشكل منتظم الموانئ الليبية، وبدأ الاعداد للغزو الثقافي والفكري والمالي متمثلا في المدارس الايطالية وبنك روما الذي كلف بمهمة السيطرة على التجارة من والي هذا البلد، ولقد حقق ذلك المطلب بحلول سنة 1910م ولولا خوف إيطاليا من امتداد النفوذ الفرنسي إلى ليبيا أو ضم هذه إلى تونس ربما كان يمكن ان تستمر المساعي السلمية للسيطرة على البلاد ولما كانت ايطاليا تخشى النفوذ الفرنسي كمنافس لها فانها لابد ان تلجأ الى الشريك الآخر في الاستعمار وهو بريطانيا خصوصا ان الرجل المريض بدأ يترنح، ولا يمكن بالطبع لبريطانيا ان تنسى لفرنسا مساعداتها للثورة الامريكية ضد بريطانيا، وعلى الرغم من الاتفاق البريطاني الفرنسي على مناطق النفوذ سنة 1880م فان تركيا لم تستسلم بعد وتنسحب الى داخل دارها وان ايطاليا قد رفعت صوتها كصاحبة مصالح في افريقيا ولابد ان تعرف اين يقف النفوذ البريطاني الفرنسي في المناطق القريبة والبعيدة، وبحلول سنة 1898م كانت ايطاليا قد دخلت كطرف في المساومات مع الدولتين وحصلت على وعد من فرنسا بعدم معارضة تدخلها في ليبيا مقابل امتداد نفوذ فرنسا الى مراكش بينما وافقت بريطانيا مع شريكتها فرنسا على اساس المواقف السابقة في الامريكيتين وغيرهما وسنرى فيما بعد ان نفس العمل يتكرر في كل من الجزائر ومصر خلال منتصف القرن العشرين.

وبحلول خريف سنة 1911م كانت ايطاليا قد هيأت خططها العسكرية وهيأت وعبأت الرأي العام الايطالي، وضمنت موافقة وزير الخارجية البريطاني السير (ادوارد قراي) وقبلئذ حصلت ايطاليا على تطمينات من فرنسا التي ستلتزم بالاتفاقيات السابقة وكذا روسيا والنمسا والمانيا على الرغم من ان الاخيرتين كانتا تتمتعان بعلاقات ودية مع تركيا، وهذا الموقف يؤكد انه دائما عندما تتأزم الامور يصبح الشرق شرق والغرب غرب، وكانت تركيا تعلم بكل الاستعدادات الايطالية الا انها كانت غير قادرة على عمل شيئ وبالتالي كانت قد سحبت قواتها وبدلا عن ذلك ارسلت اسلحة واعتدة الى المواطنين في طرابلس قدرت بحوالي عشرين الف بندقية ومليونان من الاطلاقات وبعض المدافع وعندما علمت ايطاليا بهذا العمل وجهت انذارا الى تركيا على اعتبار انه عمل لا يساعد على تهدئة الامور في البلاد، بمعنى انه عمل عدواني ضد ايطاليا وكان على تركيا ان تحدد موقفها خلال اربع وعشرون ساعة اذ ان حياة المواطنين الايطاليين ستكون في خطر وان ايطاليا ستدخل الى بنغاري وطرابلس من اجل حماية مواطنيها، كان الانذار يوم 27 سبتمبر وردت تركيا على ذلك يوم 29 سبتمبر وكان الرد غير مرض لايطاليا وبالتالي اعلنت الحرب في نفس اليوم على ليبيا وكان ذلك بقرار من رئيس وزرائها السيد (جيولوتي) ولم تكن ايطاليا في حاجة الى اي مبرر ومهما كان الرد التركي فهي لابد ان تتدخل، وقد بدأ الاسطول البحري الايطالي يمخر عباب البحر في اتجاه الارض (الجديدة ليبيا) في اكتوبر سنة 1911م وقيل ان الحرب انما هي ضد تركيا وقد كان الاسطول يتكون من مدمرات وزوارق طربيد وقوارب حربية وسفن مدرعة وسفن مساعدة ونقل، ولم يكن لدى الدولة التي اعلنت ايطاليا الحرب ضدها سفن حربية قريبة، وكان الايطاليون يعرفون ذلك جيدا وكانوا قد هيأوا السفن بالقنابل المخصصة لقصف المدن والتحصينات الارضية، وقد قصف ذلك الاسطول طرابلس لمدة يومين اي من يوم 2 اكتوبر الى يوم 4 اكتوبر وبعدئذ احتل المدينة حيث ان القوات التركية القليلة وغير المستعدة كانت قد انسحبت قبل القصف ربما لانهم كانوا يدركون ان لا فائدة من الدفاع عن المدينة ورغبوا تنظيم صفوف المواطنين الليبيين للقتال خارجها، وهكذا حدثت معارك سيدي المصري والشط في 26 اكتوبر 1911م، وكانت القوات الايطالية قد اتجهت

إلى الشرق واحتل الاسطول طبرق في 4 أكتوبر ودرنة في 18 منه، وفي بنغازي قاتل المواطنون ببسالة قوات ايطاليا الغازية بمساندة القوات التركية الا ان القوات الايطالية احتلت المدينة في يوم 19 اكتوبر وكان على الليبيين ان يقيموا تحصيناتهم خارجها ولم ينتهي شهر اكتوبر الا والقوات الايطالية تتمركز في سواحل خمس مدن ليبية هي طبرق ودرنة وبنغازي والخمس وطرابلس، وكانت قواتهم قد بلغت قرابة اربعون الف جندي مدعومة بعدد 265 سفينة وقارب حربي واعداد من المدافع الميدانية والجبلية والخيول، وقد ظهرت الطائرات لاول مرة في نوفمبر سنة 1911م والتي سنرى ان دورها كان مثيرا ومؤثرا في الحرب الليبية الايطالية اذ لم تكن معروفة ولا مألوفة للمجاهد الليبي الذي يستخدم البندقية والفرس في جهاده ضد هؤلاء الغزاة.

بعد هذه العمليات اصدر ملك ايطاليا (فيكتور عمانويل) مرسوما ملكيا يحدد علاقة طرابلس وبرقة بايطاليا واعتبارهما تابعتين للتاج الايطالي، وربما كان الايطاليون يعتقدون ان الليبيين سوف يرحبون بهم على اعتبار ان الحكم التركي حكم ظالم مستبد، والواقع انهم كانوا مخطئين في هذا التقدير لسببين اساسيين :

الاول، ان ليبيا عربية مسلمة وكانت تركيا هي دار الخلافة الاسلامية .

والثاني، ان انعكاسات الاحتلال الاوروبي البريطاني الفرنسي لكل من مصر وتونس كانت شديدة ومحسوسة وبالتالي فان الحرب كانت تعتبر بين الاسلام والمسيحية، اي ان ما يقومون به هو جهاد في سبيل الله، والموقف هو الخيار بين بلد مسلم وآخر غير مسلم وقتئذ، **﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾** و **﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت. فقاتلوا اولياء الشيطان ان كيد الشيطان كان ضعيفا﴾** صدق الله العظيم.

وكان من المتوقع ان تهدأ الامور في البلاد وان تهنأ ايطاليا الا ان الرياح تأتي بما لا تشتهي السفن، فلقد كان ايمان الليبيين عميقا بالجهاد في سبيل الله والوطن فصمموا على الجهاد، وحدث ايضا تغير في الظرف الدولي ذلك ان المانيا التي كانت قد سكتت على الغزو الايطالي غيرت موقفها وبدأت تزود المجاهدين

الليبيين ببعض الاسلحة ربما لانها ارادت ان تكوّن لها رأي عام مؤيد بحيث توقف ضد الانجليز في مصر، وكانت ايطاليا قد احتجزت بواسطة بحريتها سفينتا شحن المانييتين قيل انهما كانتا تقلان اسلحة لليبيين، وكان على ايطاليا والحالة هذه ان تتقدم لتحتل وهذا يتطلب مزيدا من الجنود وكثيرا من التضحيات ذلك ان احتلال سواحل البلاد لا يحمي القوات الغازية ولا يثبت اقدام حكومة ايطاليا وتقرر التقدم الى زواره وقرقارش ثم كان عليهم ان يقفلوا الحدود مع تونس لمنع تسرب الاسلحة والمواد الغذائية منها الى المجاهدين، وبعد ذلك احتلوا جنزور سنة 1912م واعتقدوا انهم يمكن ان يحصلوا على فترة راحة لان تركيا انشغلت في البلقان والمجاهدون ضربوا على الانف، وهكذا حدثت مباحثات لوزان بسويسرا بين تركيا وايطاليا خلال شهر يوليو 1912م وصدر اعلان الاتفاق على السلام في 17 اكتوبر 1912م وصدر باسم السلطان مرسوما بموافقة ايطاليا يمنح برقة وطرابلس الاستقلال على ان يكون هناك راعيا للمصالح التركية في البلدين على ان يكون شكل الاستقلال ووضع راعي المصالح التركية تحت السيادة الايطالية، وعلى الرغم من ان الليبيين لم يطلب رأيهم الا ان ذلك الاعلان لم يكن موضع قبول، وان كان ملك ايطاليا قد اصدر مرسوما ملكيا يعلن فيه ان الليبيين جميعا اصبحوا تحت السيادة الايطالية، وقد اعترفت القوى الكبرى بذلك، وكانت الاتفاقية قد ابقت على جزء من السلطة الدينية في ليبيا للسلطان بالاضافة الى راعي المصالح التركية كان للسلطان حق تعيين قاضي القضاة، ولأن الاتفاق في لوزان لم يكن مقبولا من وجهة نظر المجاهدين الليبيين فقد اجتمع زعماء الجهاد في العزيزية لبحث مستقبل البلاد وقد حدث خلاف شديد بين من يؤيدون السلام والقبول بالامر الواقع وبين اولئك الذين يرون ضرورة استمرار الجهاد ضد ايطاليا الغازية، كان الجناح الاول بزعامة محمد فرهد والثاني بزعامة سليمان الباروني، اي ان الخلاف بين مجاهدي الجبل ومجاهدي الساحل، ولقد حدث ان احتلت القوات الايطالية بمساعدة الجناح الاول اغلب المناطق الطرابلسية الا ان قواتهم عندما تقدمت الى يفرن في الجبل في مارس 1913م اصطدمت بالمجاهدين الذين رفضوا الاستسلام او السلام حسب التعبير الايطالي.

ولم يستمر القتال طويلا حيث احتل الايطاليون يفرن في 12 ابريل 1913م، ويكون بذلك الجبل الغربي قد احتل ايضا وقبلئذ خرج الباروني الى تونس ومنها الى تركيا وقررت ايطاليا مد نفوذها الى الجنوب الليبي، فقام الضابط الايطالي الكولونيل (مياني) بقيادة قوات كبيرة لاداء تلك المهمة وقد احتل اجزاء من فزان لكنه لم يستطع احتلال المنطقة كلها وكان السنوسي احمد الشريف قد تيقظ الى ان الفرصة سانحة لمحاربة ايطاليا هناك في فزان، وقد جعل من (زله) قاعدة للمجاهدين ولقد حدث اول صدام مع الطليان في 26 اغسطس 1914م ابيدت فيه القوات الايطالية التي كانت في صحراء الحمادة وهذا مثل البندول وحركته في الاتجاه المعاكس للايطاليين في انهاء احتلالهم لفزان، ولقد قطع المجاهدون طرق الامدادات عن القوات الايطالية في فزان وابادوا حاميتي (ادري) و (اوباري) كما احتلوا اهم قلعة حربية وهي قلعة (قاهرة) او كما يطلق عليها بالدارج (قاره) وبعد سقوط مرزق لجأت القوات الايطالية من غات الى حدود الجزائر لتطلب حماية الفرنسيين وتراجع الضابط الايطالي الذي يقود الحملة الكولونيل (مياني) الى سوكنه ومنها الى الساحل في مصراتة وبذلك اضطر الايطاليون الى التخلي عن غدامس وغريان وفي تلك الاثناء انضم احد قادة فزان (احمد سيف النصر) الى المجاهدين ضد ايطاليا وكانت ايطاليا قد سجنته ثم افرجت عنه لانه وعد بتهدئة رجال الصحراء، وعندما سقطت واحات (ودان) و (هون) و(سوكنه) وتراجعت الحاميات الايطالية الى بني وليد قرب الساحل لم تستطع قواتهم البقاء في خط (مزده نالوت) وذلك خلال فبراير 1915م وهكذا يكون الايطاليون قد خسروا مناطق الجنوب والجبل الغربي وقد حلت بهم الهزيمة وخارت عزائمهم بينما قويت شوكة المجاهدين ذلك ان من لم ينسحب كان قد قتل او اسر بحلول شهر يوليو 1915م في مزده والقصبات وترهونة وبني وليد وغريان والعزيزية، وبحلول اغسطس لم يبق تحت سيطرة القوات الايطالية الا مدن قليلة هي طرابلس وتاجوراء والخمس ومصراته، وكانت هذه الجولة طامة كبرى على الايطاليين وتذكر المصادر الرسمية انهم خسروا اعتدة ومؤن كثيرة اضافة الى 2400 اسير و3000 قتيل و31 مدفع و15 الف بندقية، ولقد تزامنت هزيمتهم هذه مع الحرب في اوروبا سنة 1915م لتلقي بظلال كثيفة على مستقبل ايطاليا نفسها، واذا كانت للنصر مزايا

وامجاد فانه ايضا كان مصحوبا بخلل وعيوب، فلقد حدث الخلاف الشديد بين قادة الجهاد الليبي ذلك ان القيادة اصلا لم تكن موحدة، فلقد حمل المجاهدون جميعا السلاح وقاتلوا تحت زعامات متفردة ضد الغزو الايطالي الباغي باسم الاسلام، وعندما تحقق النصر بدأت زعاماتهم تفتش عن المكاسب المعنوية والمادية، ومما زاد تلك الخلافات اعلان قيام الجمهورية المستقلة التي كانت عاصمتها مصراته على الرغم من الموقف التركي المؤيد والمساعد اذ كانت تركيا تزود هذه الجمهورية ببعض احتياجاتها كما انها زودت احمد الشريف بالاعتدة والسلاح والمدربين، وظهر جليا الخلاف بين السنوسيين وقادة المجاهدين واستطاعت الدعاية الايطالية ان تلعب على كل الاطراف بالتأليب والتشجيع والخداع والدسائس، وبعد فترة الهدوء النسبي الذي ساد بين المجاهدين وقوات الغزو التي انكمشت في مناطق ساحلية بذلت مساعي متعددة من طرف هيئة الاصلاح التي صار يعصف بها الخلاف الداخلي والمؤامرات الخارجية، واذا كانت هذه قد حصلت على تأييد من تركيا والمانيا والنمسا فانها لم تتمكن من فرض مطالبها رغم النصر العسكري الذي حققه المجاهدون، ذلك ان المبادرة التي كانت تهدف الى التنسيق مع السنوسيين والحصول على مساندتهم قد باءت بالفشل لاسباب كثيرة، اهمها ان الانجليز كانوا يسعون لتثبيت وضع الامير السنوسي على برقة وكان الوضع بينهم وبين الايطاليين هناك ايضا شبيه بوضع قوات المجاهدين والايطاليين في طرابلس اذ كانت القوات الايطالية تتمركز في السواحل بينما يسيطر المجاهدون على الاطراف، ويظهر ان الامير ادريس او مساعدوه كانوا يخشون مواجهة القوات الايطالية اذا قبلوا بمد النفوذ السنوسي الى طرابلس، وكانت جمهورية طرابلس قد اعلنت واتخذت لها عاصمة هي مصراته الا ان الايطاليين صاروا يعززون قواتهم وتدفقت السفن التي تفرغ حمولاتها من العتاد والدبابات والطائرات والمدافع الثقيلة وذلك بحلول شهر مارس 1919م، وقد اعلن الجنرال (تيروزي) أن العملية سوف لن تكون طويلة وربما تستغرق شهرين في اسوأ الحالات، ولابد ان ذلك كان اسلوب العصي والجزرة اذ بدأ القائد (تارديتي) في المفاوضات مع بعض قادة المجاهدين الليبيين يتقدمهم سليمان الباروني ورمضان الشتيوي وعبد الرحمن عزام، وكانت هناك مماطلات ولم ينتج عن المفاوضات شئ غير تبادل عبارات

التهديد بين الطرفين، ثم اتفق الزعماء الذين اجتمعوا في مؤتمر العزيزية خلال شهر سبتمبر 1920م على عقد مؤتمر وطني ليقرر مستقبل البلاد، وانعقد المؤتمر المذكور في غريان خلال شهر نوفمبر واصدر اعلانا يوم 18 نوفمبر 1920م يدعو الى اقامة حكومة طرابلسية يكون نظامها اسلامي وبرئاسة زعيم مسلم تتولى جميع شئون البلاد الطرابلسية لا تكون فيها سيادة لايطاليا، وعندما نقل الاعلان الى ايطاليا بواسطة الوفد الذي قاده خالد القرقني وعند لقاء وزير المستعمرات الايطالي للمناقشة جاء وفد آخر بترتيب من السلطات الايطالية بقيادة حسونه باشا القرمانللي مؤكدا انه يتحدث باسم اهالي طرابلس وبعض مناطق الجبل الغربي،،هنا هزأ الايطاليون من وفد الثوار وحقروه اذ قالوا انه وفد يمثل مثيري الشغب والخارجين على القانون وان كان قد حصل على بعض التأييد من قوى اليسار الايطالي اي الاشتراكيين والشيوعيين واحزاب المعارضة التي كانت مواقفها ضد الحكومة لاسباب حزبية، اذ سنرى ان الحزب الفاشي كان اشد تعنتا في مقاتلة المجاهدين الليبيين عندما إستولى على الحكم في ايطاليا، وليس معروفا بشكل محدد لماذا تصرفت الحكومة الايطالية على هذا النحو مع وفد الثوار على الرغم من انه ربما كان يمكن ان يمثل جبهة ضد امارة برقة التي تأسست بجهود بريطانية الا اذا كانت السلطات الايطالية قد رأت ان الثوار قد ينحازون الى فرنسا وبالتالي تكون طرابلس مع فرنسا وبرقة مع الانجليز ولا يكون هناك شئ لايطاليا، ولعله يمكن القول انه من حسن الحظ ان تقف ايطاليا هذا الموقف لسببين:

الاول، ان الوفد لو قوبل بتفهم من طرف ايطاليا ووفق على بعض مطالبه ربما كان قد عاد بخلافات اعمق اذ ان الصراع حينئذ سيكون على زعامة طرابلس او امارتها كلها، وكان يمكن ان تنشأ امارة اخرى في مقابل امارة برقة ويكون امرا واقعا قد حدث قد لا يمكن التغلب عليه مستقبلا.

والثاني، ان الجهاد الوطني ما كان يمكن ان يتأجج ويستمر رغم ما حدث من تضحيات، اذ انه في حالة ما اذا تم الاتفاق مع الوفد ربما ما كانت ايطاليا في حاجة للحرب مرة ثانية، وربما استطاعت ان تحقق بالتسويات ما لم تستطع تحقيقه بالسلاح (وهذان الرأيان هما نوع من الاجتهاد الشخصي على ضوء ما

حدث بعد ذلك باكثر من ربع قرن) بعد ذاك لجأ الثوار الى اظهار القوة والاستعداد للحرب اعتقادا منهم انه ربما كان ذلك مفيدا في اقناع ايطاليا بالالتفات اليهم ولكنها في المقابل بدأت ضدهم بعض العمليات الحربية التي هي ايضا كانت تهدف الى التأكيد انه لا جدوى من اللجوء الى السلاح، وكأنما ارادت ايطاليا تحسيس المجاهدين في طرابلس بعدم جدوى التفكير في التعاون مع السنوسيين في برقة حيث اقدمت على اتمام اتفاق الرجمة الذي وقع في 25 اكتوبر 1920م والذي صار بموجبه ادريس اميرا واعترف به سيدا علي اجدابيا باعتبارها مركزه الاداري وواحات الكفرة والجغبوب وجالو والعقيلة، وتكوّن برلمان برقاوي من ستين عضوا بينهم ثلاثة من الايطاليين يمثلون جالياتهم الايطالية، واعتقد الايطاليون انهم اصبحوا طلقاء في طرابلس حيث بدأ (جيوزيبي فولبي) عملياته لاعادة احتلال طرابلس وفي المقابل ورغم ما حدث بدأ قادة الجهاد في طرابلس محاولات جديدة للتعاون مع السنوسيين، وفي اول اجتماع وافقوا على ان يكون امير برقة اميرا على ليبيا كلها، ولكن الامير ومساعدوه ماطلوا في تلبية الطلب رغبة منهم في هضم ما حصلوا عليه وربما رغبة في عدم اثارة الايطاليين او عدم ثقة في قادة المجاهدين الطرابلسيين، وحتى عندما عرض الامير فكرة التوسط ابلغ من طرف روما انه يتدخل فيما ليس له به شأن، وعلى هذا فان الثقة المفقودة بين طرفي الجهاد تعمقت اكثر، واذا كان تأخر السنوسيين في تلبية طلب قادة المجاهدين في طرابلس كان خطأ كبيرا فقد ادركوا ذلك متأخرا عندما دارت عليهم الدوائر لان ايطاليا لم تكن صادقة في نواياها معهم اذ سرعان ما دقت طبول الحرب هناك.

استمرت هيئة الاصلاح الوطني في ممارسة بعض الاعمال كمراسم جمع الضرائب وغير ذلك في حين صار الحاكم الجديد والذي اختير للقيام بالمهمة الصعبة (جيوزيبي فولبي) الذي عندما عين واليا على طرابلس كان يقول لا مع الزعماء ولا ضد الزعماء ولكن بلا الزعماء، صار يهئ للحرب وكان في ذات الوقت وفد الثوار يجري اتصالات في روما مع احزاب المعارضة الايطالية بحثا عن فرصة تفاهم ولقد اختير رمضان الستيوي ليكون اميرا على طرابلس واقترح اسمه عبد الرحمن عزام، وعندما قتل تم الاتفاق على احمد المريض، ولم يكن فولبي يولي اي

اهتمام للثوار وان كان هناك في ايطاليا من يرى ان مواقف عبد الرحمن عزام وزعماء الجهاد هي مقدمة لثورة عربية اسلامية معادية لايطاليا والغرب، ولقد سعى هذا الحاكم الجديد قبل ان يبدأ العمليات العسكرية الى ان يطبق نوع من الادارة واجراء انتخابات في طرابلس دون ان تكون هناك هيئة قيادية فرد كانت او جماعة للبلاد كلها، بمعنى انه يريد الهاء الناس في انتخابات وربما صراعات جانبية بحيث لا يتفقوا على شئ، وعندما اعد فولبي هجومه على مصراته يوم 18 يناير 1922م كانت هيئة الاصلاح الوطني قد طلبت من كل المجاهدين بدء عمليات الهجوم على جميع المواقع الايطالية في كل مكان، ولقد هاجمت القوات الايطالية ميناء مصراته في البداية بينما هاجم المجاهدون قوات اريتيرية في العزيزية وحدثت معارك صغيرة هنا وهناك، ولأن كانت قوات فولبي قد تجهزت بكل المعدات الا انها لم تنجح تماما في هجومها على ميناء مصراته رغم قلة عدد المدافعين الليبيين عن ذلك الموقع، من هنا بذلت مساعي جديدة من اجل هدنة مؤقتة تراءت للمجاهدين على انها تعني تراجعا من جانب الحاكم الجديد عن خطط الحرب بينما كانت الحقيقة ان هناك مشاكل داخلية في ايطاليا، ولقد حدث تغيير وزاري جاء على اثره وزير ايطالي جديد يعرف باسم وزير المستعمرات وهو السيد (امندولا) وكان على حاكم طرابلس جيوزيبي فولبي ان يسافر لشرح الموقف للوزارة الجديدة وفي ذات الوقت بدأت مفاوضات فندق الشريف بين المجاهدين والغزاة، ولئن كانت هناك آمال فان المفاوضات لم تأتي ثمارا اذ تمسك كل طرف بموقفه السابق، وكان وزير المستعمرات الجديد قد اعلن امام البرلمان ان الحكومة تسعى لان تستمر في المفاوضات مع المجاهدين على انه في نفس الوقت اكد ان ايطاليا لابد لها ان تحصل على حقوقها بالقوة اذااقتضى الامر، وهنا يكون قد قضى على الفرصة الاخيرة في امل السلام، وعند انتهاء الهدنة في 10 أبريل 1922م بدأت المعارك وكانت القوات الايطالية قد عززت بحيث وصلت خمسة عشرة الف جندي في مقابل قوات المجاهدين التي تقل عن سبعة آلاف مع الاخذ بعين الاعتبار تواصل الامدادات العسكرية الايطالية جوا، وقاد غراتزياني قواته حيث تمكن من احتلال ساحل طرابلس زواره ولم يحل منتصف شهر مايو حتى كان قد احتل سهل الجفارة كله، ومن هنا تقرر تكليفه باحتلال الجبل الغربي، ومع

اعلان حالة الحصار والطوارئ التي كان قد اعلنها جيوزيبي فولبي كان غراتزياني قد وصل نالوت بحلول 5 يوليو 1922م ولقد تدعمت طموحات فولبي في المغامرات العسكرية بوصول موسوليني وحزبه الفاشيستي الى سدة الحكم في ايطاليا يوم 28 اكتوبر 1923م وهكذا بدأت مرحلة جديدة من القتال والتدمير وحرق الاخضر واليابس في طرابلس، وفي العهد الجديد اصبح وزير المستعمرات هو السنيور (لويجي فدرزوني) واذا كان الجنرال غراتزياني قد اصبح قائد الغزو الاستعماري فقد صار لويجي اول حاكم فاشيستي في برقة، اي ان هناك جنرالان يقومان بالحملة على ليبيا، غراتزياني في طرابلس ولويجي في برقة، وتقرر ان يكون احتلال ليبيا كلها واجبا مقدسا وهو جزء من عقيدة الفاشيست على اعتبار ان النظام الجديد يحتاج الى تأكيد قوته في اوروبا بالدق على رؤوس الليبيين، وقد بدأت حملة حرق كل شئ وذبح المواشي ومعسكرات الاعتقال بالجملة، وكان الاعدام واعواد المشانق سمة تلك الفترة ذلك ان المواطن الليبي يمكن ان يعلق على عود المشنقة في ميدان عام لاتفه الاسباب.

وبعد معارك صفيط وام الجرسان ويفرن واحتلال غريان اصبح الوضع مختلفا، فلقد تأكد لاول مرة منذ بداية الغزو وحتى يوم 30 اكتوبر 1922م للطليان انهم فعلا قد سيطروا على الجبل الغربي كله، ونظرا لأن الهدف النهائي بالطبع كان احتلال فزان او اعادة احتلال فزان فقد كان من الضروري القضاء على قوات المجاهدين الذين رفضوا الاستسلام وانسحبوا الى القبلة، وهذه مناطق صحراوية يخشاها الايطاليون كثيرا برغم كل ما توفر للجنرال غراتزياني من قوات كان قد حشدها من اجل احتلال غريان بعد سقوط يفرن وقد بلغت 8750 بندقية و 750 فارساو 8 قطع مدفعية.

ولقد احتلت القوات الايطالية سيناون في 7 فبراير 1924م ثم زحفت لاحتلال غدامس وكان ذلك في 15 فبراير 1924م بعد معركة الوطيه التي جرت في 9 مارس 1924م ومعركة ودي الخيل يوم 11 مارس 1924م واحتل الايطاليون مزده في 15 يونيو 1924م ولم تنتهي معارك القبلة الى سنة 1928م، ولا استطاع الايطاليون الثبات في موقع هناك وانما كانت المعارك دائرة وكانت الجولات في مد وجزر، وبعدها صارت عمليات احتلال فزان، فقد احتلت براك في

5 ديسمبر 1929م ومرزق في 23 يناير 1929م وكانت آخر قوات المقاومة في تلك الجيوب التي استمرت القوات الايطالية في مهاجمتها بالطائرات وغيرها تتكون من الزنتان والرجبان والمشاشي واولاد ابي سيف والمقارحة واولاد سليمان والقذاذفه.

وانتهت العمليات العسكرية في فزان بنهاية شهر ابريل 1930م وبذلك يكون الجنوب قد احتل.

لقد احتل الجبل الغربي في 30 اكتوبر 1922م.

واحتل الجنوب في 30 ابريل 1930م.

وبين هذه التواريخ كانت بطولات وكانت تضحيات لابد مَن ذكرها تفصيلا.

ويلاحظ انه اذا كانت المدة قد امتدت عشرون سنة كاملة منذ دخلت ايطاليا في ليبيا غازية، اي من سنة 1911م الى سنة 1931م فانها في الحقيقة لم تسيطر على البلاد رغم ما حشدت من قوات الا بعد تلكم العشرون سنة التي تواصل فيها القتال بين اهل البلاد وبين الجيش الايطالي الغازي بقضه وقضيضه، ومع ذلك فان ايطاليا لم تهنأ حتى بعد الاحتلال في هذا البلد الصغير الا حوالي سنوات عشر.

وبين هذه التواريخ كانت بطولات قد يعجز القلم عن التعبير عنها، اي قلم، الا انها يجب ان تذكر وان عجز الكلام عن وصفها، لابد من ذكرها في سياقها التاريخي بطبيعة الحال وليس كما نسبت احداثها الى غير اهلها ونحن نعتقد ان الرجوع للحق فضيلة كما يقال لان منهج البحث العلمي في التاريخ يستوجب الرجوع عن الرأي عندما يتضح خطؤه ونحن ندعو مؤلف كتاب (معارك الدفاع عن الجبل الغربي) الى استدراك الخطأ اذا اراد لنفسه ان لا يكون كذوبا، ولقد صدق الاستاذ مصطفى الرافعي عندما قال (يبدو ان الانسان كما يكذب في الكلام يكذب في الفهم فهو ابدا يحتاج (لشقوته) من هذه الطبيعة الى اشياء تضل عواطفه كما يحتاج الى اشياء تهديها ومن هنا اقتحمت اهواءه ونزعاته على الطبيعة وعلى الشرائع والاديان والتبست رأيه معاني الاشياء التي تتصل بنفسه).

ولقد كانت بلادنا مع كل تلكم الاهوال والمعاناة، كانت فقيرة، غاية الفقر،

يفتك باهلها المرض والجوع، وكانت نسبة الامية تصل الى 90٪ ودخل الفرد لا يزيد على 15 جنيها في السنة وكانت مقسمة ومجتمعها قبلي، وكانت عربية مسلمة، ولقد جاهد أهلنا باسم الاسلام والعروبة ضد قوى البغي والعدوان، والآن وبعد ان توفرت البلاد على ثروات وحققت بعض التقدم التعليمي والصحي والثقافي فانه ليس من الجائز تفسير تاريخها على اساس ومنظور قبلي ضيق، واذا قبلنا بالاساس القبلي مع رفض المنظور فانما يجب ان نتحدث عن الواقع الاجتماعي والظرف الحياتي والعامل النفسي للناس وقتئذ، لنقول للمحسن احسنت دون اي تمييز لاولئك الناس ودون تحريف لتلك الوقائع، وهو ما سأحاول عمله وما اهدف اليه بما اكتب الآن الا انني وقد ذكرت فترة الغزو الايطالي ومدة النضال الوطني فلابد من المرور على ظروف وواقع المنطقة وقتذاك.

نعرف ان ايطاليا كانت ترى ان احتلال ليبيا هو المخرج لها في التغلب على التزايد السكاني ولهذا فان الغاية منذ البداية هي غاية استعمار استيطاني ذلك ان ليبيا قريبة من ايطاليا جغرافيا،مناخها ايضا مشابه او هو قريب من المناخ الايطالي وبها اراض زراعية جيدة، وكانت كذلك تعتقد ان سكانها لن يقاوموا الغزو الايطالي اما لأنهم غير قادرين على المقاومة باعتبارهم بدو ومتخلفين، او لأنهم ضاقوا ذرعا بالاحتلال والبطش التركي، وهي بهذا الاعتقاد تكون، او يكون المفكرون فيها والمخططون السياسيون قد نسوا اهم عامل في حياة الليبيين يجعلهم يقاتلون دفاعا عن بلادهم بوجود الاتراك او بدونهم وهو (عقيدة الاسلام) ذلك ان كل الليبيين مسلمين دون استثناء، اما مسألة البداوة فتلك من الامور التي لا يدركها اولئك النفر من الايطاليين بالتأكيد وقد ثبت لهم فيما بعد انهم اذا كانوا قد احتلوا المناطق الحضرية في مدة سنة ونيف فلم يتمكنوا من احتلال المناطق البدوية قبل عشرين سنة من القتال وما استطاعوا ان يستقروا ويهنأوا بها على الاطلاق، ويقول جمال حمدان[1]

نستطيع ان نميز بوضوح تام في التجربة الايطالية المراحل التقليدية الاربع في الدورة العامة للاستعمار الاستيطاني وهي :

(1) دراسات في الجغرافيا السياسية، جمال حمدان.

الابتلاع السياسي وتفريغ السكان الاصليين، وتوطين المعمرين.

اولا، الابتلاع السياسي، في اواخر مرحلة الاستقرار فقط بعد ان كان قد قطع شوطا كبيرا بالفعل في اقرار الامر الواقع، كشف الاستعمار الاستيطاني عن حقيقته بصورة رسمية، فتماما كما فعلت فرنسا في الجزائر من قبل، اعلن (ليبيا الايطالية) جزءا لا يتجزأ قانونيا من ايطاليا الام، لا يفصلهما البحر الابيض الا كما يفصل نهر (التيبر) بين ضفتي روما، وساحلها هو الشاطئ الرابع بعد الادرياتي والتيراني والمتوسط، وولاياتها الاربع طرابلس وبنغازي ومصراته ودرنة مقاطعات ايطالية تماما شأنها شأن ابروتزي او كلابريا او بيدمونت..الخ. وسكانها اما رعايا ايطاليون كاثوليك او رعايا ايطاليون.

ثانيا، تفريغ السكان، ايا كان مدى صحة تقدير السكان، الثلث او النصف كما رأينا، فالامر المحقق ان الاستعمار الايطالي مسؤول عن عملية تناقص رهيبة في سكان ليبيا، وهذا التقدير الذي لا نعرف اساسه بالضبط قد لا يكون بعيدا جدا عن الحقيقة وذلك اذا تذكرنا ان حرب السنوات السبع في الجزائر فيما بعد قد كلفتها مليون شهيد ونصف المليون، وعلى اي حال فلا شك في خطورة وجسامة عملية التناقص، فالمقدر ان عدد سكان ليبيا قبل الاحتلال الايطالي كان قد بلغ مليون ونصف مليون نسمة وربما مليونان، فاذا صح هذا التقدير لصح كذلك تقدير تناقص السكان بنسبة النصف في ظل الاستعمار الايطالي لان مجموع سكان ليبيا في سنة 1938م قد بلغ 888400 الليبيون منهم 763200 أي نحو ثلاثة ارباع المليون، واذا صح هذا الاستنتاج بدوره لكان معناه في الوقت نفسه ان السكان بتناقصهم الخطير هذا قد عادوا الى مثل ما كانوا عليه في النصف الثاني من القرن 19 حيث قدروا كما رأينا بنحو ثلاثة ارباع المليون، وهذا كله يعني ان قرنا او نحو قرن من التوقف السكاني الصافي، للاستعمار الايطالي هو المسؤول عنه، وتلك في الحقيقة ظاهرة تكاد تنفرد بها ليبيا حيث ان معظم المستعمرات المعاصرة بما فيها ما تعرض للاستعمار الاستيطاني عرف نموا محسوسا في الفترة نفسها، واذا كانت ليبيا تنفرد من الناحية الاخرى بانها تعد من آخر البلاد التي وقعت ضحية الاستعمار الاوروبي، كما كان الاستعمار بها من

اقصره عمرا، فان معنى هذا كله انها كانت اول بلد يتحمل ضراوة الفاشيستية في تاريخ الاستعمار الحديث وهذا اساسا ما يفسر مأساتها السكانية.

وقد تم تناقص السكان في عصر الاستعمار الايطالي عن طريقين اساسيين:

1 - زيادة الوفيات.

2 - الهجرة الخارجية.

وقد حدثت الاولى بدورها بطريقين، مباشرة وغير مباشرة، فعوامل الموت المباشرة في ميدان القتال وعمليات الابادة المتقنة بين المدنيين حصدت عشرات الآلاف عبر عقدين متصلين.

اما العوامل غير المباشرة فتتمثل فيما تعرض له السكان من ظروف بالغة القسوة في الحياة وفي التشريد الذي فرضه الاستعمار سواء في الجبل او في الصحراء حيث طرد مئات الآلاف بالجملة وقذف بهم خارج المعمور الحقيقي وخارج نطاق المطر، حيث اتبع حتى سياسة سد الآبار، فكانت القطعان تهلك بالجملة جفافا وعطشا، بينما تتفشى الاوبئة بالتالي بين القبائل وتحصدهم بالآلاف، وينبغي ان ندرك هنا ان فناء الحيوان (اساس حياة المرعى) كان يعني بالضرورة فناء الانسان، ويمكن لذلك ان يتخذ مؤشرا له ومقياسا، وفي هذا الصدد قدر الايطاليون بانفسهم ان تناقص القطعان في برقة وحدها فيما بين 1926-1933م فقط كان على النحو التالي :

الاغنام من 800 الى 98 ألفا، الابل من 75 الى 3 آلاف، الماعز من 70 ألفا الى 25 ألفا.

هذا عن قوى تناقص السكان الطبيعية، اما عن الهجرة فقد عرفت ليبيا عملية (خروج حقيقي) وشتات، بعيد المدى في الهجرة، فمنذ البداية تقريبا تحولت ليبيا وخاصة برقة الى منطقة طارده تلفظ بموجات اللاجئين في نبض يكاد منتظما وموقوتا بحملات العدو المتواترة، وتقدر هذه الهجرات بسهولة بمئات الآلاف.

وقد كانت مصاب الهجرة هي على ترتيب احجامها (مصر وتونس وسوريا)

ونسبيا لبنان فبينما كانت مصر بحكم الموقع الملجأ الطبيعي لاغلب لاجيء برقة كانت طرابلس تجد لها ملجأها الطبيعي في تونس، وبينما كانت بمصر اكبر جالية من الليبيين خارج الوطن، لم تكن جاليتهم بسوريا بقليلة الاهمية كذلك[1].

3 - اغتصاب الارض، الارض هدف كل استعمار استيطاني مثلما هي محكه، وكانت ايطاليا قد وضعت مخططا في هذا السبيل مسبقا وحتى قبل الاقرار كانت سياسة اغتصاب الاراضي ومصادرة الاملاك العامة والملكيات الخاصة ماضية بلا هواده، وبالاخص في الاراضي الخصبة في الجبل والسواحل.

4 - توطين المعمرين، شأن كل استعمار استيطاني، لم يكن الاستعمار الايطالي يستهدف اقل من تحويل التراب الليبي وتغيير طبقة الارض وفرض (لاندسكيبية) الحضاري، وذلك بزرع مجتمعه المهجر زرعا في التربة الجديدة لذلك فقد وضعت خطط ضخمة للتهجير والتوطين (خطط) الاستصلاح الشامل ورسمت كل برامجها وتفاصيلها مسبقا واعدت خرائط ورسوم مئات القرى للمعمرين قبل ان يتحركوا من الوطن، ولم تكن هذه هجرة مدن او تجار بل اساسا وعن عمد هجرة زراع من ريف الى ريف بل وعلى ان يستبعد العامل الوطني منها تماما.

ولقد جعلوا من اولئك المعمرين تجمعات زراعية سكانية متكاملة بحيث لا يشعرون بالغربة كأن يقوموا بنقل قرية كاملة من ايطاليا الى الجبل الاخضر او ضواحي طرابلس وسهل الجفارة، وهذا يشبه ما عملته فرنسا في الجزائر، ولقد اعطوا هذه التجمعات السكانية اسماء ايطالية كتثبيت للامر الواقع (كبينيتو وجاريبالدي وماركوني وغراتزياني الخ) وكانت هذه العملية الاستيطانية على قدم وساق في كل مناطق ليبيا الزراعية على انه يمكن التأكيد بانها في طرابلس كانت اسبق واكبر (وعرفت باسم، خطة بالبو) واذا كانت الحرب العالمية الثانية قد جاءت سريعة في اعقاب تلك العملية وربما تكون قد عرقلتها نسبيا الا ان الاستعمار الاستيطاني بقي حتى بعد هزيمة ايطاليا في تلك الحرب.

وكانت احلام وآمال الايطاليين واسعة بحيث اعتقدوا انهم يمكن ان يبعثوا

---

(1) المرجع السابق، وإن كان فاته أن يذكر تركيا أيضاً كانت ملجأ لليبيين في الهجرة.

مجد روما، الامبراطورية من جديد وتأجج هذا الشعور وتقوي الجموح بشكل ملحوظ مباشرة عند استلام الفاشيست السلطة في ايطاليا وخصوصا ان ظهور هذا الحزب جاء في فترة استعمار غربي وتمدد على حساب امبراطورية الرجل المريض وتقسيم اطرافه، وما كان يمكن لحزب يريد ان يبني امجاده على المشاعر الوطنية ان لا يستغل فرصة كهذه ليضرب على اوتارها.

ويقول جمال حمدان.

وفي عهد الفاشية اتسعت احلام ايطاليا الى امبراطورية عظمى افريقية اسلامية تبدأ من تونس وليبيا فلا تنتهي الا في الصومال واليمن وبذلك يبتلع جسمها كل الاستعمار البريطاني في حوض النيل سواء في مصر والسودان الى جانب القرن الافريقي كما يرتكز هيكلها على البحرين الابيض والاحمر، وفي هذا الاطار الامبراطوري الشاسع كانت ترى في ليبيا بالدقة عتبة او مفتاح الامبراطورية، ان موقعها الجغرافي فذ من هذه الزاوية ويمكن ان تقدم نموذجا مثاليا للاستعمار الاستراتيجي، فهي لا تتوسط ساحل البحر الابيض المتوسط الجنوبي في مواجهة ايطاليا مباشرة فحسب ولكنها كذلك تقع بين قوسي الاستعمار البريطاني في شمال شرق افريقيا والفرنسي في شمالها الغربي، وهي بذلك خشبة قفز من القاعدة الام، وموطئ قدم على اليابسة الافريقية، ورأس حربة داخل محيط الاستعمار القديم، وبهذا لم يكن الهدف الايطالي من استعمار ليبيا ان تقدم قاعدة امامية للزحف شرقا او جنوبا في اتجاه واحد ولكن دائريا يمينا ويسارا شأنها شأن الجزائر في المغرب الفرنسي.

ولقد اعتقد النظام الفاشيستي بسبب البريق الذي احاط وصوله الى سدة الحكم انه فعلا اصبح قوة عظمى ودولة فاعلة يمكن ان تتقاسم المصالح والنفوذ مع دولتي الاستعمار الاوروبي وقتئذ وبريطانيا على حوض المتوسط والاحمر، ولهذا قررت ايطاليا ان تزاحم فرنسا طالما ان هذه قد سبقت الى تونس، ان تزاحمها من حدود ليبيا، من فزان، وان تجعل بريطانيا تحسب حسابها عندما تضع قدميها في الجغبوب جنوب شرق ليبيا، دون ان تحسب للشعب الليبي اي حساب رغم تجربة الغزو والحرب الطويلة مع الليبيين، وذلك شأن الاستعمار على اي حال مع الشعوب التي يحتل اراضيها بحيث يعتقد انها تهدأ لمجرد تقديم

بعض الفتات اليها، واذا كانت ايطاليا قد استطاعت ان تكوّن لها وجودا مدنيا متمثل في الخدمات والمصالح الاخرى فقد نجحت في هذا الشأن ايضا في تونس ومصر وذلك ما اعطاها الشعور او الاطمئنان بانها ستكون قادرة على التأثير في هذين البلدين بعد احتلال ليبيا ان لم يكن هناك امل في ان تحل محل كل من بريطانيا وفرنسا خصوصا انها موجودة في اريتريا والصومال اي في القرن الافريقي، ونصل هنا الى ما استنتجه الاستاذ جمال حمدان والذي يقول :

بهذه النهاية يمكن ان نصل الى بضعة انتهاءات عامة عن تاريخ حياة الاستعمار الايطالي في ليبيا، نكاد نكون جميعا (كما يتفق) حول الحدود القصوى و (افضل التفضيل) وتعطى ليبيا صفات خاصة تنفرد بها في تاريخ الاستعمار، على الاقل في العالم العربي، وهذه الخصائص هي :

1 – آخر بداية، يعتبر مجئ الاستعمار الايطالي هنا متأخرا للغاية من الناحية الزمنية اذا ما قورن بتواريخ الاستعمار الاوروبي الحديث في العالم العربي فضلا عن العالم الثالث عموما، وتعد ليبيا بهذا من آخر الدول العربية سقوطا للاستعمار الغربي، فاذا كان العالم العربي قد وقع للاستعمار في موجات تاريخية ثلاث معروفة، ثلاثينات القرن 19 ثم ثمانيناته، ثم حوالى الحرب العالمية الاولى، فان ليبيا تنتمي الى الاخيرة، وتتعاصر بذلك مع الشرق العربي عموما اكثر منها مع المغرب العربي الذي تنتمي اليه جغرافيا، وليس من شك ان جزءا هاما من السبب في تأخر ليبيا للاستعمار الاوروبي يرجع الى سيادة الصحراء عليها، فهي وحدة جافة فقيرة الامكانيات قليلة الجاذبية والاغراء للطامحين، تكاليف الاستيلاء عليها قد ترجح ارباحها المادية، انها ميزة الصحراوات والفقر، والملاحظ بالفعل ان ما افلت من الاستعمار اصلا في العالم العربي انما هي الوحدات الصحراوية اساسا، وفي مقدمتها قلب الجزيرة العربية خاصة.

2 – اول نهاية، كانت ليبيا ايضا من اسبق الدول العربية، فضلا عن الافريقية، حصولا على الاستقلال، فهي من ناحية اول دولة استقلت بعد الحرب العالمية الثانية في العالم وبالتالي ثاني دولة استقلت في افريقيا العربية بعد مصر، وفي الوقت نفسه اتت رابع دولة مستقلة في افريقيا بعد مصر واثيوبيا وليبيريا.

ويلاحظ ان مرحلة التحرير في العالم العربي جاءت مضغوطة جدا بالقياس الى مرحلة الاستعمار، نحو عقد وبعض عقد، وبينما لم يسبق ليبيا في هذا الصدد الا سوريا ولبنان اللتان تحررتا اثناء الحرب نفسها، كانت ليبيا هي التي افتتحت عقد التحرير الفعال بعد ذلك على مستوى الوطن العربي كله كما كانت فاتحته في المغرب العربي حيث كان لوقع استقلالها وعدواه الاثر نفسه الذي كان لسوريا ولبنان في الشرق، ومن المحقق ان النضال الوطني لعب دورا في التبكير بالتحرير في ليبيا، كما ان البيئة الصحراوية والمعاقل الجبلية ساعدت في هذه النهاية، ولكن من الثابت ايضا ان صراع القوى الكبرى ساهم في التعجيل بنهاية الاستعمار.

3 - اقصر عمر، وترتيبا على ما سبق فقد جاء عمر الاستعمار في ليبيا من اقصر ما عرف في العالم العربي، دعك من غيره من مناطق العالم الثالث، فمع بداية متأخرة للغاية ونهاية مبكرة نسبيا اختزل عمر الاستعمار الايطالي في ليبيا الى الحد الادنى (اي نحو 30 سنة، من سنة 1911م الى سنة 1941م او نحو 40 سنة اذا اضفنا عقد الاحتلال المتمثل في الحلفاء من سنة 1941م الى سنة 1951م) وهذا اقل قليلا من عمر الاستعمار في مصر او تونس واقل كثيرا من ربع عمره في الجزائر او عدن، واقل كثيرا جدا من عشر عمره في مناطق كثيرة من افريقيا وآسيا[1] ومن الناحية الاخرى لا يقل عنه في الدول العربية الا سوريا ولبنان بينما لا يعادله بالتقريب الا عمر الاستعمار في مراكش، في حالة اضافة عقد الاحتلال، وفي كل هذا تبدو ليبيا لا شك اسعد حظا (في معنى) من كثير من غيرها من الدول الأخرى العربية او غير العربية، لكنها من الناحية الاخرى كانت بلا شك اسوأ من كثير من الآخرين من حيث انها تلقت ضربة الاستعمار في اشد صورها ضراوة ووحشية فمأساة ليبيا انها رغم قصر عمر الاستعمار بها هي التي تحملت ضراوة الفاشية لاول مرة، لم تكن تعرف النازية بعد.

وحين ظهرت النازية لم تعد لها مستعمرات، ومن قبل كان استغلال الامبراطورية الشاسعة قد اغنى بريطانيا وفرنسا عن الدكتاتوريات المباشرة واتاح

(1) ربما لم يعرف المؤلف ان الاستعمار الايطالي من اسوأ أنواع الإستعمار لأنه متخلف أيضاً.

لها قناع الديموقراطية وفي ليبيا الايطالية اجتمعت كلها لاول مرة مع الاستعمار الاستراتيجي والاستيطاني ولهذا كانت مأساة ليبيا لا تقارن الا بمأساة الجزائر تقريبا من قبل وربما فلسطين من بعد، وهذا وحده هو الذي يفسر لماذا كانت ليبيا من الدول القليلة التي تعرضت لتناقص سكاني خطير في ظل الاستعمار.

4 – دور صراع القوى في البداية والنهاية، من الحقائق الجيبوليتيكية المثيرة واللافتة للنظر ان ليبيا كما وقعت في البداية للاستعمار نتيجة للعبة القوى حصلت على استقلالها في النهاية بفضل صراع القوى، والفارق بين الحالتين هو التواطؤ والاتفاق الى حد الحرمان المتبادل في الثانية، ولا شك ان هذا الفارق يشير ايضا الى اختلاف روح العصر، ففي الحالة الاولى كان عصر الاستعمار القديم في ذروته اما في الحالة الثانية فقد كان عصر الاستعمار الجديد على الافق، كذلك فهو يشير الى تغير دور الشعوب بين العصرين، فان الشعوب، الشعب الليبي في هذه الحالة، كانت قد اصبحت اكثر يقظة ونضجا واكثر ايجابية في الضغط وقدرة عالية من اجل التحرر والاستقلال.

كان لابد من هذه اللمحة او الاحاطة التاريخية قبل ان ندخل في الحديث عن تفاصيل المعارك والمواقع والاحداث، لان هذا يمكن ان يكون اطارا يؤدي الى فهم ظروف المعارك التي خاضها المجاهدون الليبيون، على اعتبار ان ما حدث في ليبيا هو جزء مما حل بالوطن العربي والعالم الثالث وقتئذ، وان كنا نود ان نوكد مرة اخرى ان الجهاد في ليبيا ضمن تلك الظروف ينفرد بخصائص تختلف عن غيرها، كما ان القوة الغازية ايضا تختلف عن قوى الاستعمار الاخرى فلقد كانت ايطاليا متأخرة كثيرا علميا وثقافيا وحضاريا عن بريطانيا وفرنسا والمانيا بل وحتى هولنده واسبانيا، وكانت محكومة بعقد التعالي والغطرسة لما كان لها في الماضي.

ومن الناحية الثانية فانه لم تتوفر للمجاهدين الليبيين المساعدات المعنوية والمادية والاعلامية والعسكرية التي توفرت لحركات النضال العربي والافريقي الاخرى ولا يمكن منطقا قبول المقارنة بين الجهاد الليبي والجزائري او الفلسطيني ضمن الظرف التاريخي، على اننا لا نقلل من تضحيات كل الشعوب التي ناضلت من اجل حريتها واستقلالها.

4

الفصل الرابع

المواقع والأحداث والمعارك

قد لا يكون من المهم من يتولى قيادتنا العامة اذا كان الله هو قائدنا

كرومويل

وصف شيشرون، هيرودوتس بأنه أبو التاريخ، وهو محق في هذا الوصف، وكان هيرودوتس يقول عن الأحداث التي يسجلها منقولة من أحاديث الناس (أنني مضطر الى ان أقص ما ينقل إليّ ولكني غير ملزم بتصديقه، وأحب أن يصدق قولي هذا على كل قصة أرويها في هذا التاريخ).

وعندما يتعرض كاتب لأحداث أي تاريخ معتمداً على روايات وأحاديث منقولة شفاهة فإنه بالتأكيد مزل مخطئ إذا صدقها جميعاً، هذا إذا لم تكن تلك الأحداث تتصل به شخصياً أو بأهله، فإذا كان الأمر متصلاً به فإنه في هذه الحالة يكون مغروراً أو كذوباً مثله مثل أولئك الذين استحدثهم، وليس من الجائز أن يكون التاريخ تجريماً لفئة من الناس دون إرجاع الأمور إلى أسبابها، سياسية كانت أو شخصية قبلية أو طائفية يحدثها أو يستخدمها ويؤججها المستعمر الغازي كالحالة التي أسماها غراتزياني (الحرب بين البربر والعرب سنة 1921م) ولقد ذكرنا فيما تقدم أن الليبيين قاتلوا صفاً واحداً ضد الإيطاليين في بداية غزوهم لليبيا، وهذا يؤكد ما نذهب إليه والمتصل بالخلاف الوطني بعدئذٍ، ويهمنا أن نؤكد على كلمة (وطني) لأننا لا نفرق بين الليبيين سواء كانوا من أصل عربي أو بربري أو جرمانتي أو حتى فندالي وبيزانطي (إن وجد) لأن الليبيين ليسوا خلافاً لما حدث على مر التاريخ في مسألة تكون الأمم والشعوب في أي مكان من العالم المسكون.

وفي صدد بداية الغزو وموقف الليبين، يقول الأستاذ محمد بن مسعود:

وإيطاليا التي تسكن الجزيرة المعروفة باسمها وهي من ذرية الرومان الذين تقدم لنا تاريخهم وقد مرت عليها سنون طويلة قضتها في أشد الأحوال متاعب، فبعد أن اضمحل الرومان في القرون الوسطى تكاثرت عليها غزوات الدول

الأوروبية القوية، فأخذت النمسا من بلادها طرفاً من الشمال، واستولت فرنسا على بعضاً من أراضيها الغربية وسيطر البابوات على روما والمناطق المجاورة لها وأنشأوا فيها حكومات خاضعة لنفوذهم الديني، وتكونت في البندقية وجينوا ونابولي وصقلية وسردينيا دويلات صغيرة وقد مرت بنا أسماء بعضها في حروب طاغور وأيام يوسف باشا، ولكن إيطاليا استطاعت أخيراً بقيادة رجالاتها العظام أمثال غاريبا لدى وكافور وأسرة عمانويل أن تتغلب على جميع مشاكلها السياسية والاجتماعية وأن تتحد كلمة ابنائها على الحرية والاستقلال التام ثم جاهدوا في ميادين الحضارة الحديثة بالعزيمة الصادقة والنشاط الوافر حتى وصلوا في أقرب فرصة إلى مرتبة الدول العظمى وساهموا في رقى الإنسانية مساهمة أدهشت العالم وظفرت منه بكل ثناء وإعجاب، وكفاهم فخراً في هذا المضمار العلامة ماركوني مخترع الراديو، غير أن تلك العصور التي خضعوا فيها للنفوذ الأجنبي أضرتهم عن التوسع الاستعماري فلما ازدحمت بلادهم بالسكان واتموا أسباب نهضتهم حاولوا هم أيضاً أن يأخذوا من الشرق المغزو جهة من إحدى قارتيه، آسيا أو إفريقيا فوجدوا أبناء جنسهم الآري الذين سبقوهم في النهوض قد تقاسموا أخصب أراضيه بقاعاً ولم يبق فيه موضع للاستغلال الاقتصادي سوى البلدان التابعة لتركيا التي كان الاوروبيون يعبرون عنها بالرجل المريض فأي أرض بعد هذا التوزيع يمكن أن يأخذوا فيها مكاناً تحت الشمس.. أتغزوا سوريا أم فلسطين أم العراق.. كلا فهي وإن كانت بلاد غنية بثروتها الطبيعية فإن الرجل المريض له فيها أبناء أشداء وقوة برية هائلة بل الحقيقة أن الدول الكبرى تقاسمتها سراً قبل أن يموت المريض[1] وأخيراً استولت في الجنوب الشرقي من إفريقيا على بلاد قاحلة هي الصومال الإيطالي الكائن على شاطئ المحيط الهندي وأخذت بعدها أريتريا الممتدة على ساحل البحر الأحمر، ومع كل هذا فالقطران كلاهما ليس فيهما أنهار عظيمة ولا غابات خضر ولا فضة ولا تبر ورأت أن نفقاتها دائماً أزيد من منافعها، ولما شعرت الدول بأنها حقاً لم تترك لها نصيباً ذا قيمة استرضت غضبها بالتنازل لها عن ليبيا، ومنذ ما اتفقت هي وفرنسا سنة 1908م

(1) تاريخ ليبيا العام، الجزء الثاني، الصادر سنة 1950، طرابلس.

أخذت تستعد للاستيلاء عليها بالخطط المذكورة قبلاً، إلى أن أعلنت على تركيا الحرب في 29 سبتمبر 1911م.

وفي اثناء اتجاه قواتها الى ليبيا ارسلت لحكومة السلطان محمد رشاد تقول لها اذا تنازلت لي عن طرابلس وبرقة فسأعوضك لقاء هذا التنازل بمبالغ جسيمة من المال وتبقى للخليفة التركي السيادة الدينية، وتقصد بهذا ان الاهالي مثلا يخطبون باسمه في ايام الجمع ويتبعونه في ايام الصيام والاعياد، فلم ترد عليها حكومة السلطان بشئ ومعنى هذا السكوت هو مقابلة التحدي بالحرب، وفي يوم 3 اكتوبر 1911م وصلت البوارج الحربية الى مياه المدينة، وبادرت إحداها المسماة (بنديتو برين) العمل الخطير فأطلقت على الميناء اول قنبلة من نيران الحرب الليبية.

ولم يمض وقت طويل حتى تهيأ الجيشان للحرب، فاقترب العرب من خطوط الطليان الامامية وابتدأ الطليان يحاولون التوسع بالزحف، وصارت المناوشات بينهما تقوى يوما بعد يوم وفي يوم الاثنين الواقع في 23 اكتوبر 1911م جرت في محلة الهادي من ارض المنشية اولى الملاحم الكبرى،وهنا يقول، اليك ما وصفه المسيو (دريمون) في احدى الجرائد الفرنسية وقد شاهد بعينه بعضا من حروب المجاهدين الطربلسيين مع الطليان فقال بالنص (واذا سمع هؤلاء نداء الحرب قامت قيامتهم واندفعوا كالسيل من الجبال وبالجملة فالحرب عندهم اشهى لذة تتصورها عقولنا) ويواصل الاستاذ بن مسعود، لم يجرأ الطليان على الخروج من مواقعهم حتى انعقد بينهم وبين الترك الصلح، ففي ابريل سنة 1912م اتضح للناس الفارق الكبير بين ايطاليا العظيمة باسطولها وجيوشها واستعداداتها وبين الترك والليبيين العزل من القوى، وكما اخطأ الطليان في ظنهم انهم سيتغلبون على العرب في شهر واحد او اقل كذلك أخطأ الليبيون فظنوا ان التغلب عليهم في معارك حامية الوطيس سيجليهم عن البلاد بتاتا، والواقع ان الترك كانوا يريدون التسليم من اول مجيئهم ولكنهم خافوا من ان يرميهم المسلمون بالتقصير فثبتوا وافتكروا انهم اذا سايروا الليبيين يغنمون من الطليان بعضا من الفوائد السياسية ولكنهم حين فوجئوا في السنة المتقدمة التاريخ بثورة الاهالي في البلقان باوروبا وجدوا انفسهم قد وقعوا بين نارين نار الحرب الايطالية ونار الحرب البلقانية،

فعجزوا لهذا السبب عن مداومة الحرب هنا ولقد تكبدوا فيها خسائر مالية جسيمة لا تقدر، فاجبرتهم الاحوال السيئة على ان يصالحوا ايطاليا بمعاهدة (اوشي في 18 اكتوبر 1912م) تلافيا للخطر الذي يهدد عاصمتهم، الاستانة،وكان هذا الصلح في جانب ايطاليا وحدها فتنازلوا لها عن ليبيا واثنتي عشرة جزيرة مجاورة لولاية ازمير بالاناضول ومنها جزيرة رودس، وطلبت من ايطاليا ان تمنح الليبيين الاستقلال الاداري، ولكن هذا الطلب من الترك مغالطة يريدون بها ان يحافظوا على كرامتهم امام الليبيين اذ ما هو الضمان العملي الذي ضمنوا به تنفيذه، وهناك حقيقة قد يجهلها الكثيرون وهي ان ايطاليا اعتبرت نفسها خصما للترك فلما تغلبت عليهم وصالحوها على ان يخرجوا من البلاد وتنفرد هي بحكمها لم تر نفسها ملزمة باي وعد آخر، وانما الذي يصح ان تؤاخذ عليه هو عدم ارتباطها بالعهود المقبلة التي صرحت بها للوطنيين الخلص ورضيت باعلانها في ظروف حربية لم يكن للترك فيها اي دخل، وبعد هذا الصلح تجمع الترك الموجودون باقاليم طرابلس وركبوا من طرابلس والخمس في بواخر ايطالية مسافرين الى الممالك العثمانية القريبة من افريقيا فانزلتهم في موانئ فلسطين التي كانت تابعة للترك، واعترف الطرابلسيون بالامر الواقع فسالموا ايطاليا مخدوعين بما اوحاه اليهم الترك من ذلك الاستقلال الاداري، وفي خلال سنتين جمعت منهم السلاح واحتلت المناطق الداخلية،[1] انتهى.

نحن نورد هذا الكلام للتدليل على أن فترة الجهاد الاولى لم تكن بين الليبيين وايطاليا مدعومة بليبيين آخرين، والذي حدث ان ايطاليا هي التي اصطنعت او اججت الفتن بين الناس وبالتالي استخدمتهم في أغراضها، وسنعود الى إيضاح ذلك الاسلوب المتبع منذ قديم الزمان بعد ان نورد ما ذكره الجنرال غراتزياني في هذا الخصوص، يقول في كتابه (نحو فزان) :

---

(1) الواقع ان الإستاذ المسعود قد أجمل ما ذكر كأنما أراد أن يتحدث مباشرة عن النهاية لأن الليبيين لم ينخدعوا جميعاً بالوعود التركية ولا هم سلموا جميعاً او قبلوا بالمعاهدة التي وقعت بين ايطاليا وتركيا، ولقد حدث ان البعض منهم فقط قد قبلوا بالمعاهدة اما الأخرين فقد واصلوا الجهاد، وان خارج مناطق الساحل.

وقد ذهب سليمان الباروني الى الجبل ينصح (خليفة بن عسكر) بالصلح مع اهالي (الزنتان والرجبان) ولكن عمله دل علي العكس من ذلك، على انه كان يحرضه على الصراع، وفي الواقع ان سليمان استطاع ان يحول الى جانب البربر كل بلاد يفرن والرياينه وقام بمفاوضات مع اهالي المشاشي ويوسيف الذين كانوا يعطفون على البربر وعلى خليفه، وقد انتقل بنفسه في فبراير 1921م الى يفرن ولكن قام في وجهه الزنتان فضلا عن اهالي الرجبان وكذلك اهالي غريان وترهونة.

وكان الجميع يرون في سليمان الباروني الرجل الذي يسعى لتكوين امارة بربرية، وهي الامارة التي كان قد اقترح انشاءها في اثناء حرب 1912م - 1913م قبل هزيمة الاصابعة، اما الحكومة فرغماً من أنها كانت تبدي عطفاً على البربر عن طريق قيادة زواره وكانت تساعدهم الى حد اشاعت بأنها أرسلت اليهم ذخائر ومدفعين من مدافع المتراليوز.

اما هذا التردد بين جانب وآخر الذي كان يبدو انه قد تم بقصد تطبيق نظرية (فرق تسد) فقد ظهر انه لا جدوى منه بل كان له أسوأ الاثر وضاراً بنا، وذلك لأن هذا العمل السياسي لم يكن يعتمد على مركز حربي قوي يستطيع في الوقت المناسب فرض ارادة الحكومة على الجميع، ولسوف نرى كيف تغير فيما بعد هذا الاسلوب فان خليفة بن عسكر قد عاد الى نالوت في اواخر فبراير بعد زيارة قام بها لبلدة (جادو) واعطى تعليمات مناسبة تتصل بتلك الاشاعات الذائعة حول إنشاء محلة الزنتان والرجبان في القبلة.

وسرعان ما وقعت بعد ذلك بقليل بعض الحوادث.

فانه لما ذهب احد اهالي (فساطو) الى اراضي الرجبان التي كانت قد عادت اليها بعض الأسر من شهرين أو ثلاثة شهور إعتدى عليه بالضرب رجال مسلحون من الرجبان وجردوه من أمتعته، وقام اهالي فساطو بدورهم وذلك أخذاً بالثأر لأنفسهم بقتل رجلين من الرجبان كانا يقومان بالعمل في أراضيهم، وقد أثار هذا العمل رغبة شديدة في الانتقام وفعلا حدثت بعد ذلك بقليل غارة ألحقت اضراراً باهالي (جادو).

في ذلك الوقت أقام عدد كبير من أهالي الزنتان والرجبان بقصد الرعي ايضاً خيامهم في (رأس الحسن) وهي جهة على مسيرة سبع ساعات تقريباً من جادو، وقد شغل هذا العمل بعض اهالي فساطو وأخافهم فقامت كوكبة كبيرة منهم كانوا فرساناً في أواخر أبريل من جادو وقصدت الى (رأس الحسن) واستولت على بعض قطعان الماشية بعد أن قتلت نفراً من أهالي الزنتان فاجتمع المسلحون في المخيمات في الحال وساروا في أثر المغيرين وأستردوا منهم الماشية بعد ان أوقعوا بعض الخسائر في كوكبة الفرسان التي لجأت إلى بلادها وأثاروها ونبهوها الى الخطر.

فهرع أهالي فساطو الى حمل أسلحتهم ولكن معظم رجالها كانوا منتشرين في أنحاء البلاد للقيام بجني المحاصيل الزراعية.

وعاد معظم الاهالي الى بلادهم وتلا ذلك ان لاذ الجميع بالفرار وعلى رأسهم سليمان بن سعيد والقاضي، وإندفع معظم الاسر الى شكشوك ومنها الى الوطية وإنتشر الهياج أيضاً في الرحيبات على أن بعض الزعماء فهموا ان هذا الفزع كان لا مبرر له اذ انه بعد صدام مع المسلحين من البربر إنسحب أهالي الزنتان والرجبان ولاذو بالفرار.

وسرعان ما هرع خليفة بن عسكر من نالوت وأوقع بالقائمقام والقاضي عقوبة شديدة لأنهما ضربا أسوأ الامثلة للاهالي، وقد خشيت الحكومة من إندلاع نار القتال وأرسلت الى جادو خربيش ليقوم بإعادة تنظيم الأهالي ورجال فساطو المسلحين.

ويتحدث غراتزياني عن واقعة أخرى فيقول :

وسرعان ما أرسل بن عسكر من نالوت بعض الرسل لإثارة بربر فساطو والرحيبات وحثهم على الانتقال الى نالوت ولكن لم يلب طلبه هذا سوى عدد يزيد قليلا على المائتين من بين تسعمائة من المسلحين، بينما لم يشأ الاخرين وأسرهم ترك (رقدالين) والاراضي الساحلية وقد انقضى شهرا اكتوبر ونوفمبر في هدنة نسبية في الجبل حيث كان الطرفان يتأهبان لاستئناف القتال في أقرب وقت.

ولم تر الحكومة بدا من الخروج من صمتها وأمدت خليفة بن عسكر علنا

بالاسلحة والذخائر بينما كانت تسعى في تلك الاثناء بكل ما لديها من وسائل وما لها من نفوذ لجعل فكيني يسمح للبربر بالعودة الى أراضيهم بسلام.

وقد وضع خليفة بن عسكر في أوائل ديسمبر قيادته العمومية في (كاباو) حيث استعرت نار القتال مرة ثانية على حين غفلة في يوم 7 ديسمبر وإمتدت حتى يوم 8 منه وقد أبلى البربر وبن عسكر شخصياً بلاءً حسناً وأبدوا شجاعة فائقة ولكنهم اضطروا الى الخضوع إزاء العدد الضخم من القوات التي كانت تحاربهم.

ولما رأى خليفة بن عسكر أن كل شئ قد ضاع جمع عددا قليلاً من الابطال واحتل بهم مضيق (فرسطه) الخطر الوعر وهكذا منع في اليومين الثامن والتاسع تعقب رجال الزنتان لقواته وأرسل في تلك الأثناء الى أخيه عمر في نالوت إخطاراً عاجلا للقيام باجلاء السكان والسير بهم في طريق الحدود المؤدية الى (بيشول) وبأنه سيلحق به وقد نزل من فرسطه الى الجفارة وجمع كل المسلحين الذين استطاع جمعهم وسار بهم على سفح الجبل حتى الى نالوت التي اتجه منها الى (بيشول) بمحاذات جموع اسر البربر اللاجئة التي كانت تتجه عن طريق الحدود صوب (بيشول) والوطيه، وهي تكاد تكون محرومة من كل شئ وذلك للدفاع عنها ضد اي غارات يحتمل وقوعها من جانب اهالي الزنتان).

وفي يوم 11 نقل ثلاثة من السباهيس الذين كانوا موجودين في الجبل من نحو اثني عشرة يوما الى طرابلس خبر الهزيمة بكل تفاصيلها وقد اعلن خطاب تالي كتبه ابن عسكر من (بيشول) كيف تم الوصول الى الوطيه في اليوم الثاني عشر، وبعد ان ترك البربر نالوت واصبح كل الجبل الغربي ابتداء من يفرن حتى الحدود التونسية تحت سيطرةالعرب الذين كان غضبهم الوحشي المدمر يصيب كل المراكز الرئيسية.

وفي أواخر ديسمبر خيم في الوطيه حوالي عشرة الاف شخص من الجائعين المهلهلي الثياب وهكذا كانت هيبتنا تنزل الى الحضيض باستمرار قد بدأ ان هذا هو الحادث الاخير من حوادث ذلك الصراع القديم العهد القائم بين البربر والغزاة العرب، اذ ان خمسة عشرة قرناً من الحكم الاسلامي في افريقيا لم تنجح في جعل البربر ينسون ماضيهم وأسماء أجدادهم، فهم يعيشون في عزلة تامة عن

الاسر العربية التي ترجع اصولها واسماؤها الى أشخاص آتين من الشرق يؤمنون بالتعاليم القرآنية، وبمعزل ايضا عن الكتلة الاسلامية الكبيرة لأنهم ينتمون الى الطائفة (الاباضية) التي تحاول اعادة شتات الخوارج القديم الى ما كان عليه بان اتخذت لنفسها لغة خاصة وتقاليد خاصة سواء في زوارة او في جبل نفوسه وغدامس وسوكنه وغات، وهم يشعرون بانهم تسيطر عليهم كل السيطرة تقاليد قديمة تفوق على التقاليد الاسلامية، ويرجعون الى فترة الحكام (البيزنطيين) وغارات الفندال والى المعارك الدوناتية الحامية الوطيس ويتمسكون بها، ويرجع البربر بذكرياتهم الى قرطاجنة ولما كانوا مقتنعين ان الله قد منحهم الارض التي يسكنونها ولو انهم عاجزون على ان يجعلوا من أنفسهم شعباً متحداً قوياً فإنهم يحتفظون بروح المغامرة كاملة ويحمى الاستقلال وتخليصهم أحد أبناء (كسيلة) او (الكاهنة) أو (إبن خالد بن حامد الزناتي) وهذه كلها اسماء محاربين إقترنت أسماؤهم باساطير مجد المعارك التي وقعت بين وديان مراكش السحيقة في مضارب القبائل وفي سهول تونس ومنحدرات جبل نفوسه ومسالكه الملتوية، وفوق صفحات الصحراء التي لا تبلغ العين مداها حيث قام اجدادهم بالقتال في سبيل الحصول على استقلال بلادهم، وينتهي في هذا الشأن غراتزياني الى القول :

ولقد قاتل البربر أثناء حرب احتلال طرابلس الغرب قتالاً عنيفا تحت قيادة سليمان الباروني ولما ألحق بهم الهزيمة الجنرال (ليكويو) في ألاصابعة إستسلموا في يفرن ومن ذلك الحين أخذوا يناصرون الحكومة، وفي سنة 1922م نزلوا الى الميدان الى جانبنا ضد عدونا المشترك (العرب) ثم ساعدوا في كل الحملات التي جهزت لاعادة الاحتلال وقدموا الدليل على اخلاصهم التام ومناصرتهم لقضيتنا، انتهى.

ورغم دموع التماسيح ومحاولة إثارة النعرات والثارات القديمة فإن محاولة دق الاسفين واضحة وضوح الشمس، واذا كان غراتزياني قد ذكر اسمى (كسيله) و (الكاهنة) فانه تحاشى أن يذكر (يوسف بن تاشفين) مثلاً، والسبب بطبيعة الحال واضح اذ أنه إضطر أن يعترف بأن هؤلاء الذين يقول عنهم أنهم منعزلين وانهم ينتظرون مخلصاً ليرفع عنهم نير السيطرة العربية قاتلوا ايطاليا في بداية

غزوها ليبيا ولم ينظروا اليها على اساس انها مخلصّ، ولم يكونوا يقاتلون من اجل (كسيله) ولكن من اجل ليبيا العربية الاسلامية، ونحن نعرف موقف (كسيله) و (الكاهنة) اذ ان ذلك حدث قبل الاسلام وكانا قد قاتلا مع الاجانب في بداية الفتح الاسلامي وكانت هناك مصالح وقوى اجنبية، اولا للرومان وثانيا للبيزنطيين، ورأينا كيف قاتل يوسف بن تاشفين عندما إستنجد به ابن عباد في الاندلس ضد ملك قشتاله، وما قول ابن عباد (اني والله لاسعد بأن ارعى الجمال عن ان ارعى الخنازير) اما ما حدث بعد الاحتلال الايطالي فهو معروف ولقد حدث ذلك من قبل في ليبيا وغيرها من بلاد وشعوب العالم، واذا كنا نتحدث عن ليبيا فهذا مثال على ذلك :

يقول الدكتور عبد اللطيف البرقوقي ما يلي:

سبق أن أشرنا الى التحدي الاغريقي بزعامة قورينه لسلطة قرطاجة الفينيقية في تونس، وقد بيّنا كيف فشل ذلك التحدي ثم أشرنا الى ان روما ورثته فيما بعد ضمن التركة الاغريقية التي ورثتها فسارت بذلك الشوط الى النهاية.

ولقد كانت قرطاجة تدرك من موقعها الاستراتيجي المهم أهمية مضيق (مسينا) الصقلي للتجارة العالمية في البحر الابيض المتوسط، ولذلك فانها أزعجها أن يبدأ الاغريق بإنشاء مستوطنات لهم في صقلية لان سيطرتهم عليها كانت تشكل تهديداً خطيراً للتجارة الفينيقية في الحوض الغربي من البحر الابيض المتوسط، وقد لاحظنا قبل قليل ان قرطاجة ذهبت الى حد مهادنة اغريق قورينا والتساهل في اقرار الحدود بينها وبينهم لتتمكن من التفرغ لحرب اغريق صقلية والسيطرة على هذه الجزيرة المهمة فاستولت قواتها على مسينا المتحكمة في المضيق المسمى باسمها سنة 264ق م، ولما كان الرومان في هذه المرحلة التاريخية قد اصبحوا قوة نامية بدأت تحل محل الاغريق في المرحلة الاولى من تكوين الامبراطورية الرومانية فانهم لم يسكتوا على احتلال قرطاجة لمسينا بل خفوا لمكافحة ذلك الاحتلال بوصفهم حماة للاغريق والحضارة الاغريقية وان كان ذلك مجرد ستار لنواياهم التوسعية من جهة ولدفع الخطر القرطاجي من جهة ثانية عن أبوابهم، فكان هذا إيذاناً ببدء الحرب البونيقية الاولى بين روما وقرطاجة،

واستمرت تلك الحرب ثلاث وعشرين سنة (264-241ق . م) وانتهت بخروج قرطاجة من صقلية، وبالرغم من هذه الخسارة الفادحة فقد استطاعت قرطاجة ان تشمر عن ساعدها من جديد بعد مضي ثلاث وعشرين سنة على انتهاء الحرب البونيقية الاولى لتبدأ الحرب البونيقية الثانية ضد روما (218-202ق.م) وتميزت هذه الحرب الثانية بغزو القائد القرطاجي هانيبال لايطاليا عبر جبال الالب ووقوفه على ابواب روما، ولكن الرومان استماتوا في سبيل الدفاع عن مدينتهم، ولم تلبث حملة هانيبال ان باءت بالفشل فاغتنم الرومان هذه الفرصة وغزوا شمال افريقيا بحملة يترأسها (سكيبيو افريكانس) وما ان نزل هذا القائد على الشاطئ الافريقي حتى تحالف مع مسينسا، أحد رؤساء القبائل الغربية الليبية،وانتصرت القوات المتحالفة على القرطاجيين انتصاراً حاسماً في موقعة (زاما) فلم يبق أمام قرطاجة الا أن تفاوض الرومان المنتصرين لتنقذ نفسها، وانتهت المفاوضات مؤكدة على القول التاريخي (ويل للمغلوب) فقد فرض الرومان المنتصرون شروطا تضمن لهم عدم انتعاش قرطاجة مرة اخرى، فرضوا عليها ان تتخلى عن اسبانيا، وان تدفع غرامة كبيرة وتخفض عدد سفن اسطولها الى عشرة سفن فقط، ولكي يشل الرومان قرطاجة نهائيا شجعوا مسينسا في اطماعه الاقليمية فاعترفوا به ملكاً لملكة نوميديا المستقلة (الجزائر وبعض أجزاء تونس) ورغم انهم سمحوا لقرطاجة بالاحتفاظ بمستوطناتها الفينيقية على الساحل الطرابلسي الا انهم ضمنوا الاتفاقية الخاصة بالصلح بينهم وبينها هذه العبارة المطاطه (تشمل مملكة نوميديا كل المدن والمناطق التي سبق لمسينسا او اجداده ان ملكوها) وفي الوقت ذاته حظرت المعاهدة على قرطاجة شن أية حرب الا بعد استئذان من روما، ولم يكن مسينسا في حاجة لمزيد من التشجيع فقد كان يتمتع بذكاء خارق وقوة جسمانية فائقة استخدمها الى أقصى حد ممكن في سبيل تحقيق حلمه في اقامة مملكة ليبية موحده، ونجح في تحويل عدد كبير من البدو الليبيين الى مزارعين مستقرين وعمم بينهم استعمال الادوات والطرق الزراعية الفينيقية فتمكن بذلك من اقامة مملكة ليبية امتدت حدودها اثناء حياته من شرقي المغرب الاقصى الى غربي برقة، ولكن بقاء قرطاجة مستقلة رغم عجزها كان بمثابة شوكة في جانب مسينيسا فبدأ يتعدى على المناطق التي ظلت تابعة لقرطاجة بموجب المعاهدة، وبدأت قرطاجة

تشتكيه الى روما بعد كل عدوان، ولكن روما كانت في معظم هذه المناسبات تقرر في صالح مسينسا، وفي الستينيات من القرن الثاني قبل الميلاد احس مسينسا ان بوسعه ضم المستوطنات الفينيقية على الساحل الطرابلسي الى مملكته فادعى انه يريد المرور بها لمطاردة ثائر هارب الى منطقة برقه ولكن قرطاجة رفضت ان تسمح له بذلك فاعتبر هذا الرفض حجة تبرر اعلان الحرب وهاجم المستوطنات الفينيقية على ساحل منطقة طرابلس، ولكن قرطاجة استطاعت رغمْ ضعفها ان تدافع عن مستوطناتها وتصد غارة مسينسا كما انها استطاعت بعد اجتماعات كثيرة لدى مجلس الشيوخ الروماني ان تنجح في اقناع المجلس بارسال لجنة تحقيق تنظر في المشكلة، وجاءت اللجنة ودرست الموقف ولكنها قررت في صالح مسينسا فاصدرت روما بناء على تلك التوصيات امرا لقرطاجة بالتخلي عن المستوطنات الفينيقية على الساحل الطرابلسي وتسليمها لمسينسا سنة 162ق.م ويدفع غرامة له قدرها خمسمائة (تالنت) نظير احتفاظ قرطاجة فيما مضى بتلك المستوطنات بصفة غير شرعية.

وفي سنة 150ق.م استنفر مسينسا قرطاجة حتى اضطرها لمهاجمته بجيش غير نظامي استطاع مسينسا ان يقضي عليه بسهولة واستغلت روما فرصة نقض قرطاجة للمعاهدة فهاجمت مسينسا دون اذن مسبق من روما فقامت القوات الرومانية بمهاجمة قرطاجة في حرب ثالثة هي الحرب الفينيقية الثالثة التي استمرت ثلاث سنوات وانتهت سنة 146ق.م بمأساة زوال قرطاجة من عالم الوجود وتسويتها بالارض، وحتى تحول روما دون استشراء خطر خليفة مسينسا فيما لو استولى على بقية الشمال الافريقي شكلت ولاية رومانية مما كان قد تبقى من قرطاجة من املاك في تونس، وعينت الحدود بين هذه الولاية وبين مملكة نوميديا بحفر خندق متصل فيما بينها عرف باسم خندق (سكيبيو) واتخذت مدينة (يوتيكا) الحرة الواقعة على بعد عشرين ميلا الى الشمال من موقع قرطاجة عاصمة لهذه الولاية.(1)

ولا يمكننا على اي حال ان نعتقد ان غراتزياني لم يكن يعرف تاريخ روما

---

(1) التاريخ الليبي القديم، د . عبد اللطيف البرقوقي، دار صادر، بيروت ـ 1971م.

والرومان وهو الذي يتحدث عن الفتح العربي وكأنه غزو وجريمة ارتكبت في حق اناس ابرياء، وان تحول المجتمعات الانسانية من مكان الى آخر ومن وضع اجتماعي وسياسي وحتى جغرافي الي ما يخالفه امر طبيعي وقد حدث على مر التاريخ، وان تكّون الامم والحضارات قد جاء نتيجة لتلك التحولات، وتاريخ الرومان ملئ بمثل هذه الاحداث، ولابد انه يعرف ان بداية تكون الامة الرومانية جاء من انتقال عديد من القبائل وكثير من الصراعات بين مختلف الاجناس، نذكر على سبيل المثال قبائل (الاونسوس) الذين وفدوا من افريقيا ابان العصر الحجري، وقبائل الالوريين الذين جاؤا في اواخر العصر البرونزي والداوني والبيوقيتي والمسابئ والبقنس والبقنتس والهرنيقي والفابيسقي والاومبري. الخ.

ثم اننا لا نعرف على وجه اليقين كيف فات الجنرال غراتزياني ان يدرك ان اغلب القبائل العربية في منطقة الجبل الغربي والجنوب هي قبائل بربرية مستعربة فيما عدا قبيلتان او ثلاث، واذا كنا نعرف تماما كيف أمكن أن يستغل الظروف الحياتية والمعيشية والنفسية التي يحياها الناس في ظل الحكم العسكري الغازي الاجنبي الايطالي الباطش وكيف انه كان قد نجح في تأجيج الثارات والخلافات القديمة، ونكأ بطبيعة الحال الجروح القديمة بمنتهى الفطنه، ولا احد يمكن ان يلومه لانه لابد ان يستغل كل شئ حتى لو كان خسيساً في سبيل انجاح حملته العسكرية، اذ كما انه لا اخلاق في السياسة فلا رحمة في الحرب، ولربما يكون مفيدا ان نأتي ببعض الامثلة عن كيفية التمازج بين الاجناس وما حدث في تاريخنا غير البعيد.

يورد لنا الدكتور جواد على هذا المفهوم حول العرب العاربه والعرب المستعربه حيث يقول :

ان مصطلح العرب العاربه، والعرب المستعربه، فهما على ما يتبين من روايات علماء اللغة والاخبار من المصطلحات القديمة التي تعود الى الجاهلية، ولكننا لو درسنا تلك الروايات خرجنا منها ونحن على يقين بأن الجاهليين لم يطلقونها بالمعنى الذي ذهب اليه الاسلاميون بل قصدوا بهما القبائل البعيدة عن ارض الحضارة، والقبائل القريبة منها، فقد عرفت القبائل النازلة ببلاد الشام

والساكنة في اطراف الامبراطورية البيزنطية بالمستعربه، والمستعربه مصطلح أطلق على هذه القبائل وعلى القبائل النازلة في سيف العراق من حدود نهر الفرات الى بادية الشام، فهو يشمل اذن القبائل النازلة على طرفي الهلال الخصيب وفي القوس الذي يحيط بحدود الامبراطوريتين ومن المستعربه، غسان وأياد وتنوخ، وقد فضلت غالبية هذه المستعربه السكن في اطراف المدن في مواضع قريبة من البوادي والصحاري عرفت عندهم (بالحاضر) فكان في اكثرية مدن بلاد الشام حاضر يقيم به العرب من تنوخ ومن غير تنوخ، وقد وجدت في تاريخ الطبري خبرا زعم انه جرى بين (خالد بن الوليد) وبين (عدي بن عدي زيد بن العبادي) يفهم منه ان العرب، عرب عاربه واخرى مستعربه، وقد جرى بينهما على هذا النحو.

قال خالد، ويحكم ما انتم .. أعرب .. فما تنقمون من العرب .. او عجم .. فما تنقمون من الانصاف والعدل .. فقال له عدي، بل عرب عاربه واخرى مستعربه، فقال، لو كنتم كما تقولون لم تحادونا وتكرهوا امرنا، فقال له عدي، ليدلك على ما تقول انه ليس لنا لسان الا بالعربية.

فيفهم من هذا الحديث ان العرب، عرب عاربه وأخرى متعربه، وهم اناس تعربوافصاروا عربا، وهو كلام معقول مقبول، ولا سيما بالنسبة للحيرة والعراق وبلاد الشام حيث تعرب فيها كثير ممن لم يكن عربا في الاصل فصاروا عربا لسانهم لسان العرب، ولا يفهم من هذا الكلام بالطبع تقسيم العرب بالمعنى المفهوم عند اهل الاخبار والتاريخ.

لقد نقلنا هذا الكلام وغيره في صفحات سابقات للتأكيد والتدليل على ان الصراع بين مصالح الدول قائم وموجود، وان هذه الدول ومصالحها تستوجب غالبا استخدام كل الوسائل وعقد الاتفاقات واستعمال القوى المحلية ذات المصلحة الخاصة، ونرى هنا ان مسينسا وهو زعيم وطني قد استخدم بواسطة الرومان ضد القرطاجيين كما استخدم فيما بعد كسيله وكذا الكاهنه، ومن هنا نلاحظ ان غراتزياني قد عمد دون شك الى إظهار ان البربر في ليبيا على الرغم من أنهم ليبيون يسعون الى التعاون مع الأجنبي للتخلص من سيطرة العرب، والحديث عن أمجاد البربر في معارك كسيله والكاهنه وإحياء مملكة مسينسا بالتأكيد يصب في

هذا الاتجاه فلا البيزنطيين ولا الوندال او الرومان كانوا قد جاءوا لتخليص فئة من الناس مقهورين من فئة اخرى غالبة قاهرة وإنما جاء هؤلاء وغيرهم من أجل مصالح ومطامح خاصة ببلادهم وبالتالي استعملوا بعض الناس اما بالاغراء او بالارهاب والدسائس واستحداث الفتن، ويبدو لنا انه لا مندوحة من الحديث عن المعارك الدوناتية التي قال غراتزياني أن البربر يتمسكون بها على اعتبار انها تمثل بعض امجادهم، لان ذلك غير صحيح، اذ انها تمثل صراع طائفي وهرطقة دينية، ولربما يتذكر قارئ هذا الكتاب اننا اوردنا قصة ابن عباد واستنجاده بابن تاشفين، ونود ان نعيد الى الاذهان، ان ابن عباد عندما عرف بحشود الفرنجه وما يرتبه ملك قشاله فكر في طلب النجدة من العرب المسلمين، وقد استشار قادته في الامر فقالوا، نعم للنجدة، ولكن ارضنا خصبة وبها خيرات كثيرة واذا استنجدنا بعرب افريقيا قد لا يخرجون منها بعد ذاك، فقال (اسعد بان ارعى الجمال عن ان أرعى الخنازير) وهذا دليل قاطع على أنه لا فرق بين العرب وقت المحن علما بأن ابن عباد عربي وابن تاشفين من أصل بربري، ولكنهما في الجهاد عربيان مسلمان.

يقول الاستاذ أ . ف . غوتييه.

وتطلع الفاتحون الى القيروان جوهرة الصحراء وهي المدينة الواقعة على الطريق المؤدية الى مصر وتصلح ان تكون مركزا للهجوم والتراجع، كما انها تواجه الاوراس، ففي هذه المدينة وليس في غيرها من المدن الشمالية يكمن العدو المهيب الجانب، ذاك العدو هو الذي لا يمكن القضاء عليه في المرتفعات الجبلية والوديان العالية الممتدة نحو الشمال، تلك هي نوميديا الرومانية والقرطاجية بالضبط، ومما لا شك فيه أن أقوى صدام وقع في السنوات العشر الاولى للفتح العربي كان حول الاوراس، وظل الوضع كما هو عليه عندما عاد البيزنطيون للاستيلاء على المنطقة، وقد ركز سليمان الخصي قائد البيزنطيين معظم جهوده العسكرية على الاوراس ونوميديا ولم تتكرر هذه الظاهرة مرة اخرى ولم يعد احد يأتي على ذكر نوميديا الا لماما في تاريخ المغرب، ذلك ان قلب المغرب النابض قد تحول الى مكان ثانٍ، وكل ما نعلمه علم اليقين ان تحولاً عظيماً قد لحق بنوميديا زمن السيطرة الوندالية فجميع المدن الرومانية او اكثريتها الساحقة قد دمرت

تماما ولم يعثر على آثارها الا بعد خمسة عشرة قرناً وكانت آثاراً عظيمة، ولكن لماذا لم تستمر الحياة كما كانت عليه في نوميديا؟؟ مرد ذلك، الصراع بين مفهومين اقتصاديين، المراعي والزراعة، ذلك أن الزراعة قد ضعفت تماما في عهد السيطرة الجديدة وأصبحت المراعي تشكل المورد الاقتصادي الاول، واذا بنوميديا تتحول كما نلمح من خلال (بروكوب) الى موطن للقبائل البربرية الكبرى الملتفه حول أمراء أقوياء نذكر منهم يبداس الذي كان حاكما للاوراس على ما يبدو، وارتياس الذي حكم هدنه، والاثنان من اسلاف كسيله والكاهنه، ولكن ما الذي تميزت به القبائل البربرية في ذلك الحين ؟؟ هنا ايضا تكمن الصعوبة.

فمجال الافتراض هنا كبير، فالطبقة الزراعية المنتمية للفرقة الدينية الدوناتية لم تزل في الوجود واذا خفتت مطالباتها فلأنها استجيبت غير أنها حافظت على طبيعتها الثورية العنيفة الي جانب تأثراتها الرومانية والمسيحية، ولعلها فقدت من عنفوانها دون أن تفقد سمعتها المميزة بعد ان اصبحت مالكة لحقول الزيتون الشاسعة، وهكذا تحولت هذه الطبقة الشعبية نحو اتجاهات اخرى وبدأت تنتظم في قبائل وتنطوي تحت حكم أمراء أقوياء، وليس من المستبعد أن يكون هذا التحول مفاجئاً لأن الفوضى تتحول الى الدكتاتورية، وهذه حقيقة يعرفها الناس منذ أرسطو، وكان لنوميديا القديمة جيران شديدو البأس ساهموا في نقل نظامهم اليها سواء عن طريق مباشر او غير مباشر.

ولو نظرنا من خلال بروكوب لحملات الجيش البيزنطي في القرن السادس لوجدنا ان لنوميديا نوعين من الاعداء، سكان الاوراس، اي قبيلة يبداس التي تعقبها البيزنطيون حتى أعالي الجبال، هذا من جهة، ثم القبائل الصحراوية الطرابلسية في جنوبي تونس وشرقها وهي تحت سلطة أمراء بربر آخرين من مثال انطلاس وكتزاناس وكذلك قبيلة لواته التي اعتمدت الجمل في الحرب وقصدت بعد هزيمتها الى الصحراء لتعيد تنظيم صفوفها، واحرز ليمان القائد البيزنطي نصرا حاسما ضد يبداس واتباعه الاوراسيين في حين قتل في معركة خاضها ضد بني لواته، هناك اذن فئتان من البربر كانت تتنازع فيما بينها بتحريض من البيزنطيين، احداهما فئة الزناته الجمالين الكبار.

ويضيف المؤلف قائلا، رأينا أن كسيله والكاهنه كانا طليعة زعماء المقاومة البربرية للفتح العربي وقد استطاعا السيطرة على بلاد المغرب لسنين طويلة، ويصل بينهما وبين اسلافهما الذين ذكرهم (بروكوب) و (كوريبوس) ما ينيف على القرن، ونحن لا نعرف شيئاً عن عالم البربر من 500 سنة وحتى عهد كسيله، وكان كسيله والكاهنه من الوثنيين لذلك لم يعطف عليهما المؤرخون المسلمون، لكنهم اتفقوا على سرد اخبارهما فوردت متشابهة الى حد ما لدى كل من ابن عبد الكريم والنويري وابن خلدون والبيان وابن الأثير.

وخلفت الكاهنه كسيله لكنهما لا ينتميان لقبيلة واحدة فكسيله من بني اوربه الذين يرجعهم ابن خلدون الى البرانس منذ أكثر من ثلاثة وسبعين عاما كما يؤكد، ولقد سبق لنا ان أشرنا الى أهمية التمييز بين البرانس والبتر.

ويقول ابن خلدون ان سر كديد الرومي كان مساعدا لكسيله وكلاهما اعتنق النصرانية ويذكر لنا علاقته بالفرنجة اي اللاتين، ومن المرجح أن كسيله وأتباعه حافظوا على علاقتهم بالمسيحية واللاتينيين، وتاريخ كسيله مركز في بلاد الاوراس فقد تمكن من قتل سيدي عقبه بجوار بسكره جنوب غربي الاوراس وفي الشرق بين القيروان والاوراس فقد عرشه وحياته.

ويؤكد مسكوراي أن بلاد الاوراس الغربية كانت على صلة مع بني اوربه وكسيله، اما ابن خلدون فلا يشدد على وجود هذه القبيلة في الاوراس او أي مكان اخر فالدقة في هذا المجال كانت تعوزه، ويبدو من خلال روايته ان كسيله وبني اوربه كانوا على صلة بالاوراس والتل الوهراني وبمنطقة تلمسان وحتى ممر تازه، وقد سبق لابي المهاجر سلف سيدي عقبه ان سجن كسيله عند ينابيع تلمسان، وبعد انتصار العرب طاردوا بني اوربه حتى مولويه، فعاش من بقي منهم في فلبيس، ليس هذا الامر جديدا او مدهشا على اي حال، فقد كان الامراء النوميديون امثال صفاقس ومسيناسا وجوغورتا يتنقلون بين الاوراس ومولويه، وقد نزل سيلا في رشتون مرفأ تلمسان حين كان في طريقه لزيارة صفاقس فالهضاب العالية التي تفصل الاوراس عن مولويه كانت على الدوام رابطا طبيعيا بينهما.

وجدير بالذكر هنا تلك القبور التي لا تزال آثارها قائمة جنوب غربي تاهرت وهي قبور الجّدار، القبيلة البربرية التي عاصرت الاحتلال البيزنطي، ويورد بعض المؤرخين العرب انه قد عثر على كلمات باليونانية للجّدار في القرن العاشر تقول، انا سليمان السرديقوس، ثار سكان هذه المدينة فارسلني الملك اليهم وساعدني الله على قهرهم، ولا يسهل علينا بالطبع تصديق كتابات كهذه نقلت الينا من القرن العاشر لا سيما وان المعارك التي قادها سليمان واوردها بروكوب وقعت في الاوراس وليس من المستبعد على كل حال ان تكون احدى الاسر البربرية قد وسعت سيطرتها في الشرق فبلغت الاوراس وحدود افريقيا للبيزنطية كما ان الآثار التي بقيت على الجدار قد احتاجت للفن البيزنطي، فهل يصح الاعتقاد بأن لكسيله وبني اوربه صلة (بالجدار) ليس هذا مستحيلا غير انني اعجب من اغفال افتراض كهذا ليس بالطبع مؤكدا، لكن من المؤكد ان بني اوربه ينتمون للبرانس المتصلين باللاتين والمسيحية ولعل الانتصار على سيدي عقبه كان انتصارا للبيزنطية أكثر من أي انتصار بربري آخر لا سيما وانه لفرط أهميته أصبح له صدى كبير في العالم الاسلامي وقد اعطى المؤرخون العرب عن كسيله صورة حية، وبوفاة كسيله انتقلت الزعامة لقبيلة اوراسية اخرى هي قبيلة جراوه التي كانت مسيطرة على الاوراس الشرقي، وحافظ المغرب على النوميديين كرؤساء له حتى أن جراوه اعرق في اوراسيتها من اوربه.

وفي سنة 69 للهجرة (688-689م) قام حسان بن النعمان الغساني حاكم مصر بمهاجمة الكاهنه وتمركز على شاطئ نهر مسكيانه شمالي الاوراس.

وقادت الكاهنه جيشها لمحاربة المسلمين وقاتلتهم بعناد وحملتهم على التراجع بعد ان قتلت منهم الكثير، ولم تضع فرصة في مطاردتهم ونجحت في اقصائهم الى خارج منطقة قابس وارغمت قائدهم على اللجوء لمنطقة طرابلس، وهناك استطاع حسان الصمود وراء خطوط محصنة دعيت بقصور حسان، وقضت الكاهنه خمس سنوات في السيطرة على افريقيا وفي حكم البربر، وفي عام 74هـ 693م شن العرب هجوما عنيفا بقيادة حسان نفسه واستطاعوا فيه قهر البربر وقتلت الكاهنه نفسها في مكان يدعى اليوم (ببئر الكاهنه) وحين قتل

زهير وهو يتراجع في المنطقة الطرابلسية لم يكن البربر هم الذين قتلوه وانما الروم الذين استعانوا باسطول منظم، أي البيزنطيين المتعاونين مع البربر ويقول البيان أن الروم انتهزوا الفرصة حين علموا بتوجه زهير من افريقيا الى برقه،وكان للكاهنه كما يقول البيان، ولدان واحد بربري والثاني اغريقي، وهو امر يسهل تفسيره، فلقد كان للبيزنطيين حتى في ذلك الوقت كتائب مبعثرة في الحصون التي لم يستطع العرب اقتحامها وظلت وسائل الاتصال حرة بين قرطاجة وبيزنطة وكانت المدن لا تزال بيزنطيه قلبا وقالبا، فعمدت بيزنطه لتمويل البربر وتسليحهم مع اسداء النصح اليهم.(1)

نلاحظ فيما اوردناه كرد على ما ذكره غراتزياني بشأن الخلاف بين العرب والبربر كما قال، اربعة أمور هامة وهي :

اولا، أن سليمان الخصي كان قائدا بيزنطيا ولم يكن يقاتل من اجل البربر وبالتالي فان عمله لا صلة له بهم.

وثانيا، الخلاف والتقاتل لم يكن عربيا بربريا وإنما كان بين قبائل البربر أنفسهم ولهذا فهو ليس خلاف طائفي ولا مذهبي ديني وإنما خلاف مصالح وطموحات يثيرها ويستخدمها الاجنبي روماني كان او بيزنطي.

وثالثا، أن الدوناتيين لم يكونوا أبطالا يمكن أن يمثل عملهم أمجادا وإنما هراطقة وغوغاء، وليسوا ذوي أصل واحد وقضية محدده.

ورابعا، أن مسينسا وكسيله وبعدهما الكاهنة كانوا يقاتلون او يقودون أناس في القتال أيضا بتشجيع من قوى أجنبية، رومانية وبيزنطية، وان ما قاموا به كان قبل دخول البربر في الاسلام، وذلك لا يمكن أن يفسر على أنه تقاتل بين العرب والبربر وانما هو قتال بين فاتح جديد جاء من اجل رسالة سماوية ومواطن يدافع عن تقاليد وموروثات ويحصل على التأييد والمساعدة من أطراف لها مصالح خاصة، وسنجد أنه حتى بعد أن اسلمت افريقيا كلها او هكذا ظهر أن هناك خلافات قد حدثت ونتج عنها تقاتل بين مختلف الاطراف في افريقيا، وفي هذا

---

(1) كتاب ماضي شمال افريقيا ـ تأليف أرف ـ غوتييه ـ ترجمة هاشم الحسيني.

ايضا تداخلات أجنبية ومصالح خاصة كانت،ما زالت موجودة حتى يومنا هذا، فمثلا يذكر مؤلف كتاب تاريخ الشعوب الاسلامية (كارل بركمان).

الحادثة التالية:

وأحرز العرب انتصارات دائمة على المسيحيين في ميدان القتال الآخر في أفريقيا، فما كادت تنتهي سنة 647 حتى كان ابن ابي سرح أمير مصر من قبل عثمان قد اتم فتح طرابلس الغرب ولكنه اكتفى آنذاك بفرض الجزية على أهلها، وفي سنة 667م إستأنف أمير مصر من قبل معاوية ابن حديج الحرب ضد النصارى في الغرب فاوغل في غزوته الاولى حتى شارف صقليه، ولكن المؤسس الحقيقي للحكم العربي في افريقيا الشمالية هو عقبة بن نافع ابن خالة عمرو فاتح مصر، وكان عقبه قد فتح برقة بعد أن سار عليها بجيوش من مصر، وفي سنة 670 وفق بمعاونة البربر الى القضاء على الحكم النصراني في شمال افريقيا جملة واحدة، ثم عزل بعد أن أنشأ مستعمرة عسكرية في القيروان، ولكن خليفة معاوية (يزيد) اعاده الى عمله سنة 683 فسار في حملة جديدة نحو الغرب وظل يتقدم حتى بلغ المحيط على ما يظهر، وعلى الرغم من أنه إجتاز بجيوشه مناطق القبائل البربرية حتى الاطلس الاوسط فإن البربر لم يخضعوا له كاملا فقد فر زعيمهم كسيله، الذي كان عقبة قد اسره لينظم بالاتفاق مع الحاميات البيزنطية الباقية في البلاد المقاومة ضد العرب، بعد ذلك قسم عقبة جيشه في غير ما حذر، واندفع في الطريق الى جبال الاوراس على رأس فرقة صغيرة، وفي سنة 683 أوقع به البربر عند تهوذا على طرف الصحراء الكبرى فقتل وقتل المسلمون جميعهم، والواقع أن المسجد الذي يضم رفاته في المنطقة التي تحمل اسمه (سيدي عقبة) جنوبي بسكره هو أقدم أثر من فن العمارة الاسلامية في افريقيا، ويعود الى وقت كانت فيه العمارة لا تزال بدائية . انتهى.

لدينا هنا حادث آخر يوضح بجلاء لا لبس فيه أسباب الخلاف والتقاتل.

اولا، فتح العرب المسلمون افريقيا وانتصروا على نصاراها بمساعدة البربر اي سكان البلاد وقد تقدموا حتى الاطلس الاوسط.

وثانيا، أوقع بهم كسيله بعد ذاك عندما ساعده البيزنطيون من خلال

حامياتهم الباقية في البلاد حيث قتل بعدئذ عقبة بن نافع ومن معه من المسلمين، ونجد أن كسيله قد حصل على المساعدة من البيزنطيين وهم النصارى الذين هزمهم عقبة، وكسيلة هذا لم يكن ليقاتل عقبة لانه بربري وذاك عربي وانما لانه وجد المساعدة من البيزنطيين، اصحاب المصلحة في محاربة المسلمين، ولانه كان قد اختلف مع عقبة بعد أن أسره، فقد ذكر لنا التاريخ ان عقبة قد جعله يقوم بعمل لم يكن يرضاه مما ولد لديه حقداً على عقبة، وعندما وجد الفرصة هرب واتفق مع قوة أجنبية ليوقع بالفاتح المسلم الذي هزم النصارى، وهذا تأكيد قاطع رغم كل الذي حاول غراتزياني وغيره، تأكيد ان التقاتل لم يكن بين العرب والبربر كجنسين مختلفين بعد الاسلام، ولكن هي المصالح والاطماع والاحقاد والتدخل الاجنبي السافر دائما، ودائماً بالاغراءات او الخداع او الترهيب والدسائس.

كانت هذه اللمحة ضرورية وهي كمدخل للحديث عن المعارك وحقيقة الدفاع عن الجبل الغربي ونحن نعرف انه قد حدث خلاف في تفسير نصوص معاهدة الصلح التي وقعت بين ايطاليا وتركيا وعرفت بمعاهدة (اوشي – لوزان) اذ كان هناك من نادى بالاعتراف بالامر الواقع وقبول ما ليس هناك بد من قبوله على اعتبار ان تركيا قد قررت التخلي عن ليبياوأنه ليس من العقل محاربة دولة قوية كايطاليا بينما هناك من رفض هذا المنطق وطالب باستمرار الجهاد ضد الايطاليين الغزاة، واضح أن الموقف بعد مؤتمر العزيزية الذي عقد خلال شهر نوفمبر 1912م معقد اذ زحفت القوات الايطالية للاستيلاء على مناطق تعتبر مفاتيح لعمليات قادمة، فقد استولت على سواني بن آدم في 15 نوفمبر والعزيزية في 16 نوفمبر وبن غشير في 17 نوفمبر والعجيلات في 3 ديسمبر والقصبات في 14 ديسمبر وترهونة في 18 ديسمبر، ومن الجانب الثاني تقدمت القوات الايطالية لتحتل منطقة سرت في 30 ديسمبر وفي 15 فبراير 1913م استولت على بن وليد.

وكانت هذه التحركات تهيئة للتقدم إلى الجبل الغربي، وقد عرف الايطاليون أن الجبهة هناك قوية ومتماسكة فصاروا يعدون العدة لمهاجمتها بأكبر قوة ممكنة، وهكذا حدث في 13 مارس 1913م حيث حدثت معركة جندوبة وقد تمكنت القوات

الايطالية من التغلب على قوات المجاهدين بعد معارك عنيفة وغير متكافئة، ومن هنا فقد تأكد للايطاليين أنهم قادرين على السيطرة على الجبل الغربي، فقد تقدموا إلى يفرن في27 مارس وإلى الزنتان في 5 أبريل وإلى جادو في 6 أبريل وإلى نالوت في 12 أبريل، وكانت في ذات الوقت المعارك دائرة بين الايطاليين والمجاهدين في كل من الجوش وبئر الغنم، وتمت لهم السيطرة على غدامس في 27 أبريل 1913م، ولقد غادر المجاهدون منطقة الجبل الغربي إلى القبلة رغبة في عدم التسليم للطليان ومن أجل تنظيم صفوفهم مرة ثانية للجهاد، ذلك أن مصير الجبل الغربي لا بد أن يكون مرتبطاً بالقبلة والجنوب بصورة عامة، ولاعتقادهم بأن الايطاليين لن يستطيعوا وقتئذٍ إلحاق أي هزيمة بهم إذا ما تابعوا زحفهم نحو الجنوب، ومن الجانب الآخر اكتفى الايطاليون مؤقتاً بما حققوه، إذ كانت جهودهم قد وجهت إلى أوروبا، وهو ربما نفس الموقف الذي واجه تركيا عندما تخلت عن ليبيا بسبب انتفاضات مناطق البلقان.

واعتقدت إيطاليا أنها يمكن أن تتم احتلالها لكل الأراضي الليبية في الجنوب بعد أن استولت على منطقة جبل نفوسه أو الجبل الغربي، وكان عليها في هذه الحالة أن تتقدم إلى فزان بحيث يمكن بعد ذاك أن تنهي مقاومة البدو الرحل كما أسماهم غراتزياني في القبلة والحمادة، ولقد جهزت قوات كبيرة يقودها الكولونيل (مياني) الذي يقول عنه غراتزياني بأنه يتمتع بالذكاء، والحصافة والثقافة والأخلاق، وهكذا فإن سبل النجاح قد ضمنت لتلك الحملة، ولقد تحولت تلك القوات في 6 ديسمبر 1913م تحدوها آمال النصر الذي تحقق في معركة جندوبة التي وقعت يوم 13 مارس 1913م بقيادة الجنرال (ليكويو) ووقعت معارك عديدة في الشب واشخدة ومحروقة في 13 ديسمبر 1913م حيث حققت القوات الغازية هدفها وهو الاستيلاء على فزان بعد أن احتلت مرزق في 3 مارس 1914م، وهنا يقول الجنرال غراتزياني.

وبعد معركة محروقة التي هزم فيها وقتل محمد بن عبد الله أكبر زعماء أولاد بو سيف، الذي كان قد نظم المقاومة ضد جيوشنا، أصبح من المعتقد أنه تم التغلب على كل الصعوبات الناشئة من جماعات البدو الرحل الذين كانوا يسيطرون على فزان، ولكن إذا صح أن أولاد بو سيف كانوا قد تلقوا في معركة

محروقة ضربة شديدة وأصيبوا بأضرار فادحة فإنه لم يتم الحصول على شيء نهائي مع هذا الشعب الذي استمر في مجموعة مسلحاً ومعادياً لنا، وكذلك الحال بالنسبة لأولاد سليمان الذين كانت قد عملت الحكومة في ذلك الوقت بسجنها أسرة سيف النصر على إثارتهم، فأنهم قد ارتدوا إلى جبال (هروج) قد بقوا مسلحين ومعادين لنا، وأخيراً فإن المغاربة الذين هم بدو رحل آخرون لهم أهميتهم ويقيمون في سرت رغماً من الدرس القاسي الذي تلقوه في معركة النوفلية لم يعترفوا بهزيمتهم، وليس هذا فحسب بل استمروا في عدائهم وقاموا بمهاجمة حامية النوفلية، ولقد أصبحت حكومة طرابلس الغرب باستيلائها على مرزق مسيطرة على جميع أراضي المستعمرة ولكنها لم تكن قد سيطرت بعد على البدو الرحل المقيمين في القبلة ولا البدو المقيمين في سرت الذين كانوا في جميع الأوقات المسيطرين على جميع الأراضي الليبية الداخلية وسادتها الحقيقيين.

وعلى الرغم من أن غراتزياني عند هذه الفترة يحاول إرجاع موقف حكومته عندما اتخذت قرار الانسحاب مرة ثانية الى الشواطئ الليبية والا نكماش على نفسها الى أسباب تاكتيكية اذ يقول، ان القوات قد توغلت وأصبحت مواصلاتها ضعيفة، ويحاول التهرب من الاعتراف بالحقيقة اذ يسمى الاستمرار في القتال والمقاومة التي أبداها المجاهدون بأنهم جماعات هاربة، ويجمل كلامه في التفسير التالي :

وفي نهاية سنة 1914م كانت هذه الجماعات المحاربة مقسمة على النحو التالي، جانب من اولاد بوسيف وعلى وجه الدقة الرجال الذين كانوا قد اشتركوا في معركة محروقة مع الزعماء محمد بشير وحسن درويش كانوا يقيمون في ضواحي (زله) وكان معهم جانب من اهالي المشاشي، وأما الباقون من أولاد بوسيف ومع بقية المشاشية فقد حطوا رحالهم بين وادي (بي) و (رواوص) كذلك استقر اولاد سليمان فوق جبال (هروج) بينما كان المغاربه يطوفون في منطقة الاتصال بين طرابلس الغرب وبرقة بين مراده والنوفليه، وكذلك الحال بالنسبة للزنتان وهم بدو رحل يقيمون في القبلة فإنهم كانوا لا يزالون يناصبوننا العداء ولو أن الحكومة كانت تدفع لرؤسائهم مرتبات ضخمة وتقدم لهم عطايا سخية من

المال[1] وبعد الهجوم على سبها (27 نوفمبر 1914م) واستيلاء الثوار على قلعتها (قاهرة) اتسع نطاق الثورة اتساعا كبيراً وتلا ذلك سقوط (اوباري) ولما فوجئت الحكومة بهذه الحوادث وكانت تعوزها القوات لمواجهة الموقف أصدرت أمرها الى الكولونيل (مياني) بسحب الحاميات من فزان، ونزولا على هذا الامر أخذ الكولونيل (مياني) بعد أن عمل على إنقاذ مواطنيه في (مرزق) في التراجع من (براك) حيث كان معسكراً هو وجنوده، وإتجه الى (سوكنه) 1 ديسمبر وبلغ مصراته في 25 ديسمبر، وفي هذه الاثناء كان قد بدأ تراجع حامية (غات) وبعد ذلك مباشرة (27 يناير 1915م) تم إخلاء الجفرة، كان عدوان الثوار وهياجهم يزداد باستمرار بعد ترك فزان والجفرة (ما زال الكلام لغراتزياني) وكان لذلك أيضا أثره في المنطقة الغربية ورغبة في قمع الثورة التي كانت الدلائل تدل على أن نطاقها سوف يتسع على وجه السرعة قررت الحكومة القيام بعمليتين حربيتين هامتين سواء في القبلة أو في سرت، ولكن الاولى باءت بالفشل في المعركة المشؤومة التي وقعت في (ودي مرسيط) (7 ابريل) والثانية فقد انتهت نهاية أليمة في قصر بوهادي (29 ابريل)... انتهى.

ولما كانت معركة مرسيط في القبلة متصلة بمعارك الدفاع عن الجبل الغربي فاننا نود ان نفصل احداث تلك المعركة،وهي كما قلنا واحدة من معارك الجهاد الوطني الليبي المتصل الحلقات، وفي هذا الشأن يقول الاستاذ خليفة التليسي :

على أثر الثورة التي اندلعت في القبلة والجنوب وأدت الى انسحاب الحاميات الايطالية بالدواخل وتقلص النفوذ الايطالي، أبدى الوالي الجنرال (تاسوني) محاولات يائسة للتشبث بالمواقع التي كانت بيد الايطاليين، وكان يستجيب في ذلك الى توصيات الحكومة المركزية التي هالها انهيار الوضع، والى شعوره الشخصي بعدم وجود ما يبرر هذه الانسحابات الواسعة، وقد اندفع تحت تأثير هذا الشعور المغرور الى تشكيل قوتين كبيرتين للقيام بعمليتين حربيتين

(1) هذا الكلام مشكوك فيه اذ لم يتمكن غراتزياني من ذكر أسماء اولئك الزعماء (على غير عادته) الذين قال ان الحكومة كانت تدفع مرتباتهم، وقد عرفنا انه لا يتردد في ذكر اسماء الذين يتعاونون معهم او يحصلون على مساعدات.

رئيسيتين في القبلة ومنطقة سرت، وقد انتهت الاولى بالهزيمة المنكرة التي تعرضت لها القوة الايطالية في خرمة الخدامية ووادي مرسيط، والثانية في معركة القرضابية المشهورة، وتعترف المصادر الايطالية الرسمية بأن الواقعتين قد سجلتا نهاية النفوذ الايطالي في القبلة ومنطقة الخليج وأدتا الى تراجع الاحتلال الايطالي وإنحصاره في المراكز الساحلية.

وكانت قد صدرت التعليمات الى الكولونيل (جانينزي) قائد منطقة غريان العسكرية، بالتحول الى مزده لمطاردة المجاهدين المنتشرين في تلك المنطقة، والعمل على إخماد الثورة التي أخذت في التصاعد والانتشار، وقد تحرك من مزده يوم 3 أبريل بقوة تتألف من 1400 مسلح (نصفهم من غير النظاميين) لضرب محلة للمجاهدين كانت تتألف من 400 مسلح، كانوا قد تمركزوا في وادي تاقجه، بين قنطرار واولاد أبي سيف لمواجهة زحف هذه القوة الايطالية، وفي 6 أبريل 1915م وصلت القوة الايطالية الى وادي مرسيط وأرسلت بعض طلائعها للاستطلاع ورصد وجود المجاهدين، وعندما إطمأنت الى عدم وجود أية قوة للمجاهدين في المنطقة اخذت تنصب خيامها عند الساعة الرابعة في وسط الوادي لتمضية الليل به، وفي هذه الاثناء كان احمد السني قد زحف بقوته من المواقع السابقة نحو فروتن وأقام بعض طلائعه في الموقع المعروف باسم (خشم فروتن) وبينما كان جنود القوة الايطالية منصرفين الى نصب الخيام فوجئوا بصوت انطلاق الرصاصة الاولى ثم الثانية والثالثة، فأثار ذلك روح الفزع في معسكر العدو الذي أخذ الرصاص يحصده من كل مكان، ويقول الكولونيل (بيلاردينيللي) في وصفه لهذه المعركة في كتابه (القبلة) (لم يستغرق كل ذلك سوى لحظات قليلة ولكنه أثار الفزع بين القوات غير النظامية التي لاذت بالفرار بعد ان جرت معها بعض أفراد القوات النظامية) وقد اضطر الضباط الى إستخدام السلاح وشهر مسدساتهم في وجوه الجنود النظاميين لالزامهم بالصمود ومواجهة المجاهدين، واستمرت المعركة عنيفة قوية حتى ساعة متأخرة من المساء، وقد قضى عنفها على كل الامكانيات الايطالية وعطل فعاليتها، فقد جرح القائد الايطالي وجرح كل الضباط الايطاليين كما قتل بعضهم الآخر وانتقلت القيادة الى الميجور (سيرتيرانا) الذي أمر بالانسحاب والتراجع ليلا نحو مزده، وما كادت تبدأ الساعات الاولى من اليوم

التالي (7 أبريل 1915م) حتى أخذت الافواج الاولى من هذه القوة الباقية تتسلل تحت جنح الظلام نحو مزده، وحين بدأت تقطع المراحل الاولى من الطريق تعرضت الى رصاص المجاهدين الذي أثار لديها شعور الفزع، وسيطرت الفوضى على صفوفها فشردت الابل وتخلى الجمالون عن الاحمال، وتفرقت القوة غير النظامية (وفي المساء دخلت بقايا هذه الجماعة المشتته الى مزده بلا ذخيرة ولا أمتعة ولا مؤن ولا مدفعية).

لقد كانت هذه المعركة ومعركة القرضابية نهاية للهيبة الايطالية الاستعمارية، وكانت هزيمتهم بهذه الموقعة من أفدح الهزائم التي لحقت بهم في تاريخهم الاستعماري بليبيا بالنظر الى النتائج الخطيرة التي ترتبت عنها، ولم تستطع القوات الايطالية أن تعود الى هذه المنطقة الا في نطاق الحملة التالية.

وتوفرت الاجهزة الحربية الاستعمارية على دراسة الاسباب الكامنة وراء هذه الهزيمة فانتهت الي تحديد العوامل التالية:

1 - ضعف جهاز المخابرات وقلة المعرفة باحوال السكان وأوضاع المنطقة وعدم التقدير الصحيح لقوة المجاهدين وتنظيماتهم.

2 - الطريقة الساذجة التي اتبعت في تجنيد القوات غير النظامية التي كانت تضم عناصر حاقدة على الايطاليين.

ولا بد هنا من الاشارة الى ان الدور الذي قامت به القوات غير النظامية في الانهزام السريع وعدم الالتزام بالمحاربة في المعركة هو الذي قرر وضع المعركة وترجيح الكفه لصالح المجاهدين وهو دور يشبه الى حد كبير الدور الذي قامت به بعض العناصر الوطنية في معركة القرضابية مع تقدم معركة مرسيط زمنيا.

في هذا الحديث عن المعركة التي جرت في وادي مرسيط والتي كانت واحدة من المعارك المجيدة في تاريخ الجهاد الوطني الليبي لم يشأ الاستاذ التليسي ذكر أسماء القبائل او القادة الذين واجهوا الطليان وهو محق في ذلك وفيما ذهب اليه اذ انه كان يهتم بتاريخ الاحداث والمعارك دون الناس الذين قاموا بها لعدة اسباب كان قد ذكر بعضها في أجزاء من كتابه، وربما كان أهمها الحساسية المفرطة بين الاشخاص والقبائل والرغبة في الابتعاد عن وصم بعض

اولئك الناس بما قد لا يقبل او يستصاغ وهو في الحقيقة ما يجب ان يذهب اليه كل الذين يتعرضون لاحداث تاريخ بلادنا الوطني او على الاقل فإن من يكتب عن التاريخ الوطني لا يجب أن تستهويه البطولات الزائفة بحيث يدور معها في الهواء ليتخيل ويستنتج ويقرر من تلقاء نفسه وفي ذلك ما لا يحمد، وقد يحدث أن تتصور فئة ما تبعا لبعض الكتابات أنها صاحبة دور نضالي هو في الحقيقة لم يكن لها، ولما كنت اتحدث عن حقيقة معارك الدفاع عن الجبل الغربي فلا بد لي أن اذكر أسماء القبائل والاشخاص افرادا كانوا ام قادة كيلا يتعلق الناس بوهم الواهمين .

ونود ان نورد هنا نص الاستقصاء الذي جاء على الصفحات (191- 192) بموسوعة روايات الجهاد عن معركة مرسيط. يقول :

كنا مجموعة من اولاد بو سيف مقيمين في العويجة او ابوقيله، والسني والبدوي مقيمين في طبقه وبدأت الاستعدادات من قبل غريان وغيرهم من اجل الانخراط تحت الايطاليين وتجنيد فرق للقضاء على المجاهدين وطلبوا السلاح والذخيرة، وقد زودهم الايطاليون بالاسلحة وكان معهم عدد قليل من الايطاليين وقد قرروا ان يحصدوا محصول الشعير من وادي ويسيق، وكانوا كثيرين ولا اتذكر العدد، وقد اجتمع سالم بن عبد النبي مع محمد الشرع وقرروا الاستعداد للقاء العساكر، واخذ محمد الشرع يجمع المجاهدين من اولاد بوسيف واتباعهم كما اخذ سالم بن عبد النبي يجمع مجاهدي الزنتان واتباعهم وقد كان احمد السني والبدوي من قادة الجهاد بالاضافة الى محمد المريمي (بحر السماح) وكان مقيما في زمزم، واجتمعنا واتجهنا الى فروتين في الوقت الذي كان فيه جنودهم الايطاليين في طريقهم الى فروتن، وبقينا في جبال فروتن 10 او 15 يوما، وكان جماعة من الزنتان يتابعون سير الحملة وعندما قدروا الوقت الذي ستصل فيه الى مرسيط جاؤا الينا واخبرونا انهم يتوقعون ان تصل الى مرسيط غدا، كان عدد المجاهدين بين 300 الى 350 مجاهدا، وطاف علينا السيد احمد السني سبعة اشواط، قرأ الفاتحة واعطى الاذن بالقتال، وكان معنا 10 او 12 من الخيل، مع وقت الضحى وصلت مرسيط، وعند منتصف النهار وصلت الى ام العجرم وهناك قرروا ان يستريحوا، وذهبت خيولنا مع الوادي حتى اصبحت خلف الاعداء واخذ بعض العساكر يجمع الحطب وبعضهم يعد الطعام والبعض الآخر يبني خيمة

للضابط الايطالي وهو جالس الى جانبهم حتى وقعت رصاصة الى جانبه فتساءل عن مصدرها ولما علموا بوجودنا ارسلوا فرقة من العساكر فابدناها وارسلوا ثانية فابدناها هي الاخرى وبقوا في اماكنهم وكنا نبادلهم اطلاق النار بطريقة مقطعة حتى اقبل الليل وكنا نخاطبهم ونطلب منهم الاستسلام ومن حين الى آخر نطلق عليهم النار واستمر هذا الحال الى ساعة متأخرة من الليل وقبيل الفجر بدأوا يستعدوا لمغادرة المكان وسافرت الابل اولا وبعد فترة تحركت السيارات فتبعناهم وكلما امسكنا مجموعة قتلنا افرادها.

كان المجاهدون ينتمون الى اولاد بو سيف واتباعهم والزنتان واتباعهم، وكان معنا خمسة من الجعافرة.. جاء هذا الكلام في موسوعة روايات الجهاد التي اصدرها مركز الجهاد الليبي.

ونلاحظ هنا ان معركة وادي مرسيط وقعت في يوم 7 أبريل 1915م، ولقد تلِي ذلك معركة القرضابية التي كانت ايضا هزيمة نكراء للايطاليين، وقد ابلى فيها المجاهدون بلاءً رائعاً، هذه المعركة التي جرت في 28 أبريل سنة 1915م، والمعركتان كانتا الفيصل والفاصل في هزيمة القوات الايطالية وكسر غطرسة جنرالات ايطاليا.

ولقد كانت القبلة ملجأ المجاهدين العرب الليبيين بعد كل جولة يقومون بها ضد العدو الايطالي المدجج بالسلاح والعتاد، ومنها كانوا دائما يردون كيد العدو ويضعون اصابعهم على انفه، كما كان الجبل الاخضر في الجانب الشرقي من ليبيا وكانت سرت والمنطقة الوسطى، وهكذا فانه عند الحديث عن المعارك التي كانت سجالا بين المجاهدين والعدو الايطالي دفاعا عن الجبل الغربي تأتي القبلة في المقدمة اذ لم يكن ممكنا للايطاليين الاستقرار في مناطق الجبل او التقدم الى الجنوب الا بكسر شوكة المجاهدين في القبلة، وهنا يقول الاستاذ التليسي :

واهتم الايطاليون في هذه المرحلة باحتلال غدامس فوجهوا قوة من قواعدهم في نالوت يوم 4 فبراير 1922م واستولت على سيناون في 7 فبراير واستمرت في طريقها نحو غدامس التي استولت عليها في 15 فبراير 1924م بعد ان خاض المجاهدون ضد القوة الايطالية معركة في وادي الوطية يوم 12 فبراير 1924م.

وتبدأ اعتبارا من هذه الفترة المراحل الشاقة من حروب القبلة والجنوب التي ستتواصل حتى نهاية الجهاد، وكانت وحدات كبيرة من مجاهدي الزنتان تسيطر على القبلة وتهدد المواقع الايطالية خلال هذه الفترة، الامر الذي دفع بالايطاليين الى تجريد قوة كبيرة لتقوم بعمليات ملاحقة ومطاردة لهذه القوة المنتشرة في المنطقة، وأخذت القوة الايطالية تجوب المنطقة منطلقة في حركتها من جادو (اول مارس 1924م) نحو بئر مرهان[1] ثم ودي الخيل واصطدمت في اليوم التاسع من شهر مارس بقوة المجاهدين بين بئر النصرة والطابونية (معركة الطابونية 9 مارس 1924م) وتحولت القوة الايطالية نحو الملاحة يوم 11 مارس 1924م ووصلت يوم 12 منه الى ودي الخيل حيث عسكرت هناك لاستيفاء المعلومات عن المجاهدين وقد فوجئت فجر يوم 16 مارس 1924م بحملة كبيرة من الزنتان تشن عليها هجوما عنيفا مفاجئا.

وحاول الايطاليون خلال هذه المرحلة الدقيقة من حروب القبلة والجنوب اثارة الفتنة القبلية واستغلال الخلافات بين الزعامات واستطاعوا ان يستفيدوا منها في بعض الاحيان الا انها لم تمكنهم من السيطرة على الوضع على النحو الذي كانوا يأملون، حيث نرى بعض العناصر التي حاول الايطاليون استغلالها تتحول فيما بعد الى المواجهة العدائية الصريحة للايطاليين، ومن الانصاف هنا ان ننوه بموقف الزنتان في هذه المرحلة الهامة من حروب القبلة فقد كانوا اصحاب الدور الرئيسي فيها وكانت العمليات الايطالية تستهدفهم في المقام الاول بسبب الموقف الصامد الذي التزموه ضد الايطاليين وقد تمكن الايطاليون من اعادة احتلال مزده يوم 15 يونيو 1924م.

وقامت القوات الايطالية خلال هذه الفترة بعمليات ملاحقة واسعة في منطقة القريات والطابونية خلال الفترة الواقعة بين (18 و 31 أغسطس 1925م) وشملت المنطقة الواقعة بين مزده وطبقه والقريات الشرقية الغربية حتى بئر المره وبئر تاترت.

---

(1) الواقع ان اسمه بئر المرحان وليس مرهان، ولا بد ان المؤلف قد اعتقد انه كذلك تبعاً لنطقه في اللغة الايطالية، والمرحان هم لحمة من الزنتان، أي عائلة.

وكان من الطبيعي ان يتجه الاهتمام الايطالي الى احكام السيطرة على القبلة، خاصة الهدف من عمليات الجفرة والواحات الجنوبية كان هدفا تمهيدياً من أجل تحقيق السيطرة الكاملة على فزان والمناطق الجنوبية من ليبيا والقضاء على احتمالات العودة الى اي وضع يشبه الوضع الذي قام سنتي 1914م - 1915م، ويلاحظ هنا تغير الاستراتيجية الحربية في عملية احتلال فزان الثانية واختلافها عن العمليات السابقة التي تمت في عهد (مياني) في خط رأسي دون الاطمئنان فيه الى الجوانب والمؤخرة، اما في هذه المرة فقد مهدوا لعملية احتلال فزان بالسيطرة اولا على الشريط الساحلي للخليج واحكام الربط بين الولايتين ثم الاستيلاء على الجفرة وزله والواحات الجنوبية من برقه وأخيرا القبلة التي ظلت حتى سنة 1928م خارجة عن نطاق السيطرة الفعلية لايطاليا، وقد اتخذ منها قادة الجهاد قواعد لعملياتهم ضد مواقع العدو ومراكزه وقام المجاهدون فعلا بمحاولات لعزل الحاميات الايطالية وقطع خطوط المواصلات خلال شهر يونيو 1928م، مما دفع بالايطاليين الى تحريك قوة كبيرة لاحتلال القريات (15 يوليو) وشهدت المنطقة عدة اشتباكات ومعارك، منها معركة (خرمة بوغره) كما نشطت المقاومة خلال هذه الفترة في الجفرة وقامت بمهاجمة بعض المواقع الايطالية، واصطدم المجاهدون بالقوات الايطالية في معركة بئر الفاتيه (31 اكتوبر 1928م) وخشي الايطاليون من امكانية توحيد قوى الجهاد في الجفرة والقبلة فركزوا جهودهم الحربية لملاحقة هذه التجمعات وعدم تمكينها من الاستقرار.

ولا بد ان نعود قليلا الى الوراء قبل الحديث عن المعارك التي خاضها المجاهدون الليبيون رغم كل الحشود العسكرية الايطالية والمدد الدائم من الاسلحة والعتاد، وعلى الرغم من نجاح الايطاليين في إثارة المعارك الجانبية بين المجاهدين الوطنيين عندما ضربوا على وتر ربما كان وقتئذ حساسا وهو القبلية والثارات القديمة وخلافات زعماء الجهاد، ونعرف انه بعد الهزائم التي منيت بها ايطاليا وخصوصا بعد معركتي مرسيط والقرضابية حدثت مفاوضات بين الثوار المجاهدين وايطاليا، وصارت تلك الفترة شبيهة بالهدنة غير المعلنة، فقد كانت ايطاليا تستعد للجولات القادمة وكان المجاهدون ايضا ينسقون الجهود هنا وهناك، وفيما عدا مناوشات قليلة استمر الحال على ما هو عليه وربما كان سبب

الموقف اللين من جانب الايطاليين هو انشغالهم في الحرب الاوروبية وما كادت تلك الحرب تنتهي حتى كانوا مستعدين، وقد حشدوا قوات لاستئناف القتال، ويقول في هذا الشأن الجنرال غراتزياني :

ولكن بينما كانت جيوشنا تنتظر وهي مملوءة حماس وحمية صدور الامر اليها بالتحرك انتشر على النقيض من ذلك في ليلة 17-18 أبريل فجأة خبر مؤداه ان المكتب السياسي العسكري عقد اتفاقا مع الثوار ولذلك فقد انتهت العدوانية وتوقفت، وهكذا حصلت المستعمرة على الاستقرار والسلام لا بسبب انتصار جيوشنا ولكن بسبب الصلح السياسي الا ان ذلك الصلح كان صلحا مزعزعا ووقتيا وخداعا في بلد لا يستقر فيه الحكم والهدوء كما تعرفنا وتدلنا ذلك تقاليد القرون الماضية، ويضيف غراتزياني :

وعندما كان هناك في طرابلس ما يقرب من ثمانين ألف جندي من بينهم (فرقة الهجوم) على تمام الاستعداد للاستيلاء مرة ثانية على المستعمرة باكملها وإخضاعها عسكريا رؤي من الافضل إيجاد حل سياسي مشين لهيبتنا بصفتنا شعبا كبيرا خرج منتصرا من الحرب العظمى[1] وكانت ايطاليا قد وافقت على بعض مطالب المجاهدين ولكنها في الوقت ذاته كانت تتآمر عليهم بإثارة الخلافات والفتن كما حدث مع وفد هيئة الاصلاح الوطني الذي ذهب الى روما وفي الوطن كان غراتزياني وضباطه في المكتب السياسي يبحثون عن نقاط الضعف في صفوف المجاهدين لاستخدامها وكانت مع الاسف كثيرة، ونرى هنا ذلك التخطيط الرهيب الذي ظهر من كلام غراتزياني فيما يتعلق باتفاق (خلة الزيتون) والذي وصفه بأن سنواته كانت سنوات اذلال ..يقول :

بعد بضعة أشهر من الاتفاقيات التي قد أبرمت في سنة 1919م تقرر أن يعود أهالي فساطو والرحيبات ويفرن، البربر اللاجئون في زواره الى بلادهم في الجبل وكان جميع الرجال الاصحاء ضمن جماعات خريبيش التي تكونت في اكتوبر 1916م عندما إضطر أهالي فساطو البربر الى ترك منطقتهم والالتجاء الى

(1) كتاب نحو فزان، الجنرال رودولفو غراتزياني.

زواره بعد خمسة عشرة شهرا من معارك مستمرة مع الثوار العرب، وقد تمت المفاوضات بطبيعة الحال في حل هذه الجماعات بعد إبرام الصلح، وسرعان ما ظهر في الجو إتجاهان مختلفان، هل كان من الواجب إعادة البربر الى بلادهم وهم مسلحون او بعد نزع أسلحتهم...

كان الزعماء العرب الذين فاوضوا في الصلح يطلبون نزع أسلحتهم وكانت الحكومة تساند هؤلاء الى حد ما، اما خربيش وزعماء آخرون من البربر يساندهم قائد منطقة زواره والضابط السياسي بمنطقة النوايل فكانوا يصرون على القول بأن من الانسب عودة هؤلاء البربر وهم مسلحون وذلك لان جميع الاهالي المجاورين لاراضيهم كانوا مسلحين تسليحاً تاماً ولذلك كان إرسالهم في غير سلاحهم الى الجبل معناه تعريضهم لاعمال الاخذ بالثأر والانتقام والاحقاد من اعدائهم السابقين.

وأخيرا بعد أخذ ورد طويلين اقتنعت حكومة طرابلس بترك اسلحتهم في أيديهم وكانت هذه الاسلحة تبلغ نحو 1100 بندقية وقرابينه حملها البربر معهم الى الجبل وقد عادت الأسر بأجمعها تقريبا الى الجبل بين شهري نوفمبر وديسمبر، بعد انقضاء فترة اولى وقعت اشتباكات وحوادث ليست بذات اهمية كبيرة مع الزنتان والرجبان، أصبح البربر عاجزين عن التردد على الاسواق الموجودة في الاراضي المجاورة لهم وهكذا كانت العلاقات مقطوعة بينهم قطعا حقيقياً وبين القبائل العربية التي بدورها استعملت الطريقة ذاتها وقطعت علاقاتها بهم، وكان اناس في كلا الجانبين مسلحين جميعاً ويستمرون في البحث بجنون عن البنادق والمؤن والذخائر والخيول، وكانت النفوس بعيدة كل البعد عن الهدوء ومتوترة الى حد بعيد، وكان من الممكن أن يؤدي أقل حادث بدون شك الى استئناف الحرب بين العرب والبربر[1].

نلاحظ هنا بجلاء الخبث والمؤامرات الايطالية فأولاً لو كانت السلطات العسكرية حريصة فعلا على عودة الناس الى بيوتها وعودة الهدوء الى المنطقة فانه

(1) كتاب نحو فزان، الجنرال رودولفو غراتزياني.

كان يمكن اعادة هؤلاء الناس الذين يقول غراتزياني انهم هربوا من قراهم خوفاً من العرب، كان يمكن إعادتهم دون ما حاجة الى تزويدهم بالسلاح ذلك أنه كان هناك ما يخيف هؤلاء الناس فانه يمكن حمايتهم بقوات الحكومة بدلا من تقديم السلاح اليهم وتركهم، وثانياً اذا كان السلاح قد ترك في أيد هؤلاء بناء على نصيحة خربيش فانه من المؤكد ان هذا الاخير وكان قد تحالف منذ البداية مع الايطاليين وهو يقود مجموعات مسلحة تقاتل مع الطليان يهمه تماما آلا تهدأ الاحوال بين سكان المنطقة لأنه المستفيد من الاحداث والتقاتل بين أبناء البلد الواحد ثالثاً أنه من المؤكد أن السلطات الايطالية وقد أعادت اناس مسلحين الى المنطقة فإنها قد سربت أخباراً مفادها أن هؤلاء الذين كانوا قد هربوا من قراهم قد عادوا مسلحين وأنهم سوف يقومون بأعمال إنتقامية كرد على ما حدث لهم، ومن الطبيعي في حالة كهذه ان يستعد الطرف الآخر وان يحاول الحصول على السلاح باي شكل للدفاع عن النفس، ولقد حدث مثل هذا بين قوى وطنية عربية اخرى كانت تجاهد ضد الايطاليين، حدثت الفتنة بينها وكادت تؤدي الى كارثة مروعة ونهايات لا بد ان تكون مفجعة لولا جهود خيرة قام بها السيد عبد الرحمن عزام، لقد حدث الخلاف بين ترهونة ومصراته وكان الطرفان قد استعدا للمواجهة المسلحة وكلاهما كان يبحث عن السلاح والمؤن والذخائر والخيول، نفس الطريقة، وكلاهما ينظر بعين الريبة والشك الى الطرف الآخر، وهذا كله بسبب المؤامرات الايطالية، ويقول الشيخ طاهر الزاوي في هذا الشأن :

كان السيد عبد الرحمن عزام قد قام بجهد ممتاز وكان عنصراً مهماً في تهدئة الفتنة بين ترهونة ومصراته وقد نجح في جمع الطرفين في روضة بيت أبي الاجراس في مسلاته وقد تم الصلح والتسامح بينهما في أواخر سبتمبر 1916م، وكان اتفاق ترهونة ومصراته من أقوى أسباب نجاح الحركة الوطنية، وكان بركة على جميع القطر، وكل ما وقع بعده من أدوار النشاط إنما تم بسببه.

ولقد كانت دائما الفتن والدسائس وإثارة الحساسيات والثارات القديمة أسلحة فتاكة يستخدمها الغزاة في كل وقت وهي غالباً مؤثرة وفاعلة اذا لم تجد أياد بيضاء وأفكار نيرة وقلوب صافية خيرة لايقافها ولمناسبة ما قام به السيد عبد الرحمن عزام يذكر أن فتنة أخرى كبرى كانت قد وقعت في بداية القرن التاسع

عشر، وما أكثر الفتن، وقد تقاتل فيها الاخوة وسالت الدماء غزيرة في مزده بين قبيلتا قنطرار والمقارحة والزنتان وكان يمكن ان تستمر طويلا لولا المساعي الخيرة التي قام بها السيد محمد بن على السنوسي لاطفاء نار الفتنة واكمل تلك الجهود السيد عبدالله السني، فوصلت الاطراف المتحاربة الى التصالح وحقن الدماء سنة 1829م، وهذه كانت ايضا قبلية عرقية مع الاسف الشديد.

ولسنا نشك على الاطلاق ان الفتن والتقاتل بين العرب والبربر في الجبل كانت ايضا بسبب التدخل الايطالي بين الطرفين، ولو وجد الطرف الثالث والجهد الخير لما كانت الاحداث المؤسفة والمؤلمة قد وقعت او استمرت، لو وجد رجل مثل عبد الرحمن عزام لكان الصف الوطني بقي متماسكا موحدا ولما كان الخلاف بين القيادات الوطنية ايضا قد حدث كما الحال في الدور الذي كان مفترضا ان يقوم به سليمان الباروني بين بن عسكر والقيادات العربية الذي اختلف معها، ولا نفهم بشكل محدد كيف حدث أن سليمان الباروني بدل ان يقوم بدور وسيط الخير بين الطرفين كما يقول غراتزياني، واذا ما كان هناك من تفسير لموقفه ذاك فانما يكون قائماً على جموح واطماع شخصية اذا صح ما ذكره الجنرال الايطالي فيما يتصل بالامارة البربرية في الجبل الغربي، ويفسر الامور بعد ذاك غراتزياني حسب رؤياه على الوجه التالي :

عندئذ سنحت الفرصة لمحمد فكيني بأن يناصر الحكومة واخبرها بأنه يستطيع الزحف بقواته (بمحلاته) في الزنتان والرجبان على نالوت للانتقام من ذلك العار الذي لحق به بطرد ضابط الاتصال وقد وعد بأن يقوم بأسر بن عسكر بذاته ... وفعلا كان القصد من تلك الحملة التي يقوم بها زعيم الرجبان هو التخلص من خصمه الوحيد الذي كان ينازعه السلطة المطلقة على الجبل، وقد كلف فكيني بقيادة هذه الحملة ولده حسين الذي كان يدرس الحقوق في مدينة (تورينو) على نفقة الحكومة، وقد اعلن اهالي فساطو حيادهم عندما طلب منهم المشاركة في هذه العملية، ولكن بينما كانت طرابلس تعضد هذه العملية كانت هناك ايضا محاولة سلمية للصلح مع بن عسكر وارسل سليمان الباروني في يونيو 1920م الى نالوت وكان لهذا الاخير نفوذ عليه فاستطاع اقناعه بحسن استعداد الحكومة

ونصح له بالحضور الى طرابلس فانتقل اليها في يوليو 1920م وحصل هناك على العفو من الحكومة بل لقد منحته هدايا وهبات طائلة كما دفعت له مرتباته المؤخرة بوصفه قائمقام، وبعد ذلك إتخذ طريقه في العودة، ولكن عندما وصل بن عسكر الى بيشول في مساء يوم 27 يوليو 1920م وجد عدة رسائل من أخيه (عمر) يبلغه فيها أن فكيني وغيره من زعماء الزنتان والرجبان قد أذاعوا أثناء غيابه إشاعات بأنه تم اعتقاله في طرابلس وأنه لن يعود بعد ذلك الى نالوت، وقد علم كذلك ان جماعة قوية من الزنتان والرجبان قد أغارت على مواشي البربر في يومي 20-21 من يوليو وأخذت معها عدة عائلات عربية، ويضيف.

وقد ذهب سليمان الباروني الى الجبل لكي ينصح خليفة بن عسكر للصلح مع الزنتان والرجبان ولكن عمله دل على عكس ذلك أي أنه كان يحرضه على الصراع وفي الواقع أن سليمان الباروني قد إستطاع أن يحول الى جانب البربر كل بلاد يفرن والريايينه وقام بمفاوضات مع اهالي المشاشة وبو سيف الذين كانوا يعطفون على البربر وعلى خليفة بن عسكر، وقد انتقل بنفسه الى يفرن في فبراير 1921م ولكن قام في وجهه أهالي الزنتان فضلاً عن أهالي الرجبان وكذلك أهالي غريان وترهونة.

يتأكد القارئ هنا من هذا الكلام من عدة أمور :

أولها، ان الخلاف والتقاتل والصراع لم يكن بين البربر من جانب والعرب من جانب آخر بمعنى أنه طائفي اذ ان الريايينه والمشاشه عربا.

وثانياً، ان فكيني عندما قرر الزحف على نالوت كانت اخباراً قد وصلته تقول بأن ايطاليا قد سلحت البربر وهي تشجعهم على القيام بعمليات عسكرية ضد أهالي الجبل وبالتالي أراد ان يستبق الاحداث.

وثالثهما، ان سليمان الباروني وقد كان له دوراً بارزاً في النضال الوطني ما كان يمكن ان يحرض بن عسكر على الشقاق لو لم يكن قد ابلغ اخباراً أقنعته مع الاسف بأن يقوم بذلك الدور الذي لا يخدم العرب ولا البربر ولا ماضيه السياسي شخصياً، ثم اننا نفهم من إستدعاء السلطات العسكرية لبن عسكر والعفو عنه بل ودفع مرتباته انما كان نتيجة اتفاق على القيام بعمل يخدم مصالح

ايطاليا، أي أنه شجع من طرف الايطاليين ولا بد أنه حصل على وعداً بمساعدات ما خصوصاً اننا نعرف أنه كان قد اختلف مع الايطاليين لانهم أهملوه وانحازوا الى صف خرببيش، وهذا ما يؤكده الجنرال غراتزياني نفسه في كتابه (نحو فزان) عندما تحدث عن الخلاف مع بن عسكر مما أدى فيما بعد الى اعتقاله واعدامه، وفيما يتعلق بالنزاع هذا يقول الشيخ طاهر الزاوي ما يلي :

الفتنة الجائحة في حوادث سنة 1916م، تلك الفتنة الجائحة التي وقعت في أوائلها وهي حرب الاباضية والزنتان الاولى، حرب إشتملت على كثير من الشناعات، وقتل الوطن كله فيها بما خلفته من حزازات وأخطاء عجزت الايام عن محوها[1] .

او لم أقل ان هذا الخلاف كان في حاجة الى رجل ذي مقدرة ونوايا طيبة ليصلح بين المختلفين او حتى المتقاتلين كما فعل السيد عبد الرحمن عزام في خلاف ترهونة ومصراته، ولقد حاولت ان أجد مبررا او دافعا لما وقع فيه السيد سليمان الباروني حيال ذلك الخلاف فلم أجد مع الاسف وذلك في الحقيقة أمر عجيب غريب بالنسبة لرجل في حنكة وفطنة الباروني وهو رجل عركته الايام والسنون في السياسة والجهاد، ولا نعرف كيف إنطلى عليه خداع الطليان ومؤامراتهم اذا كان حقاً يسعى الى اقامة امارة بربرية في الجبل الغربي وبالتالي أراد أن يضرب كل طرف بالطرف الآخر، وهذا أيضاً لا يقوم على أساس متين لأنه يعرف أن الايطاليين قد لا يقبلون به بعدئذ، ولا نعتقد أنه كان يمكن أن يكون (مسينسا) إيطاليا.

واذا كانت القبلة كما أكدت جميع المصادر التاريخية الموثوق بها هي القاعدة التي استند اليها وإنطلق منها المجاهدون الليبيون لرد العدوان الايطالي وهي بوابة الدفاع عن الجنوب، وهي أيضاً رأس الحربة في زعزعة الوجود الايطالي في الجبل الغربي، فإن معارك القبلة تماماً تشابه حادثين هامين في تاريخ الجهاد الليبي في المنطقة الغربية، وان كانت معارك القبلة قد تواصلت، الاول كان

(1) جهاد الأبطال تاليف الشيخ طاهر الزاوي.

سبباً في انتشار الثورة الوطنية في فزان وطرد الايطاليين من هناك بعد أن احتلوا وتمركزوا وحاولوا أن يستقروا، والثاني كان يمثل الباب الذي أوصد أمام الهجمة الايطالية الثانية لاحتلال الجبل الغربي.

الحادث الاول هو سقوط قلعة (قاهرة) بسبها في 28 نوفمبر 1914م حيث هاجمها المجاهدون الليبيون وإستولوا عليها لتكون نقطة الشرارة التي إنتشرت في فزان لتقضي على الوجود الايطالي، وفي هذا الحادث يقول الشيخ طاهر الزاوي :

كان سقوط قاهرة يمثل الشرارة الاولى للثورة في فزان اذ بعد القاهرة سقطت اوباري وهكذا إضطر الكولونيل (مياني) للانسحاب من فزان وكان يقيم قيادته في مرزق، وقد إنسحب بضباطه من هناك يوم 10 ديسمبر سنة 1914م، وكانت عملية القاهرة بقيادة الشيخ سالم بن عبد النبي ورفاقه من الزنتان[1] .

والحادث الثاني، تمثل في معركة وادي الوخيم في 3 سبتمبر 1922م، وكانت هذه المعركة من أولى المعارك التي تصد فيها المجاهدون للزحف الايطالي المنطلق من زواره قاصداً القضاء على حركة الجهاد في الجبل الغربي ولقد كان المجاهدون من الزنتان[2] وكان قائدا المعركة هما محمد فكيني وعلى الشنطة[3] ولقد جاء في موسوعة معاركنا الاستعمارية ان المشاركين في المعركة من الزنتان، وان كان الشيخ الطاهر الزاوي ذكر مرة أخرى أنهم من الزنتان والرجبان والصيعان والحرابه.

ولقد تحدث غراتزياني عن هذه المعركة بمرارة حيث قال ان تلك المعركة قد عطلت خططه التي كانت معدة للزحف على الجوش، واوردها الاستاذ خليفة التليسي على النحو التالي :

بعد معركة الوادي الوخيم التي جرت يوم 3 يونيو 1922م إضطر الجنرال غراتزياني الى تأجيل الزحف على الجوش بسبب المتاعب التي تعرضت لها حشوده من جراء المعركة المذكورة ولم يتحرك نحو الجوش الا بعد ان وصله المزيد

(1) جهاد الأبطال تأليف الشيخ طاهر الزاوي. صفحات 197-198.
(2) نفس المصدر.
(3) الأول من الرجبان والثاني من الزنتان.

من الدعم وبعد ان تحسنت الاحوال الجوية بما ساعده على استغلال الطيران الى أبعد مدى ممكن، يقول غراتزياني (كان عليّ أن اختار بين طريقين، اما ان انقض مباشرة في إتجاه الوخيم حيث كان الخصم ينتظرنا في مواقع محصنة مجهزة تسيطر على مداخل جادو عن طريق شكشوك وطريق الجوش واما ان اتجه مباشرة الى الجوش عن طريق العين الجديدة وقد إخترت الحل الثاني الذي يسمح لي بالمبادرة في الحركة ويرغم الخصم على تغيير مواقعه) وهكذا نشبت المعركة في الجوش وهي من المعارك الهامة التي دارت في هذه المنطقة دفاعا عن الجبل، وبدأت المعركة عند الساعة الثامنة والنصف من يوم 12 يونيو 1922م عندما قامت مجموعة من المجاهدين بمهاجمة قوات غراتزياني، وقدأخذت قوة المجاهدين تتزايد بذلك العدد الذي تحول عن الوادي الوخيم الى المواقع الجديدة، وكانت محلات المجاهدين مؤلفة في أغلبها من الزنتان والرجبان والصيعان والحرابه وغيرهم، ويقول عنهم غراتزياني (أنهم أقوام محاربون زادت من جرأتهم الانتصارات التي حققوها ضدنا سنة 1915م) ودارت المعركة عنيفة مريرة طوال اليوم حول العين الجديدة مما دفع غراتزياني الى أن يستخدم الطيران على نطاق واسع، وإلقاء القنابل على صفوف المجاهدين مما حول في النهاية الحرب الى صالحه وإستطاع أن يسيطر على العين الجديدة، التي تشكل مصدرا هاما للمياه، ويعترف غراتزياني بأن قواته قد تعرضت الى خسائر فادحة في الضباط والجنود[1] .

ويختلف الحديث اختلاف طفيف بشأن المجاهدين في هذه المعركة بين ما جاء في الموسوعة وما أورده الشيخ طاهر الزاوي والذي ذكره الاستاذ التليسي، وان كان الخلاف غير ذي بال. اذا استثنينا ما قاله القشاط والذي نعتقد أنه لا يجب أن يبحث لاختلاله الفاضح. ولا بد من عودة للحديث عن تفاصيل سقوط (قاهرة) وهي كما قلنا تمثل الشرارة التي أشعلت الثورة في فزان، وهي أيضا حجر سنمار في البناء الذي أراده الايطاليون في جنوب بلادنا، واذا كانت الروايات قد إختلفت في سرد سير أحداث المعركة فإنها أجمعت على أن سقوط القلعة كان يعني بداية الثورة الوطنية في فزان ضد الوجود الايطالي، كما أن

(1) معجم معارك الجهاد الليبي ـ ص 206 ـ خليفة التليسي.

الروايات التاريخية قد أجمعت أيضاً على أن قائد المجاهدين في تلك المعركة كان الشيخ سالم بن عبد النبي الناكوع الزنتاني، الذي سنورد بعضاً من سيرة حياته في نهاية هذا الكتاب، وإذا كان أحد الكتاب الليبيين قد أراد تزوير الحقائق فأتى بأسماء وأعداد للمجاهدين ونسبها الى أناس قد ماتوا ثم إعتبرها شهادات تاريخية، وهو بذلك كمن يضع ثوباً على هيكل عظمي لا حياة فيه دون أن يدرك أن تزوير التاريخ الوطني جريمة وأن الاباطيل لا تقف شاهداً ضد حقائق أحداث التاريخ وهو بهذا ربما كان يحاول تقليد مسلك الملك (جوبا الثاني) الذي حاول أن يزور الجغرافيا بحيث يجعل أنهار موريتانيا روافداً لوادي النيل !!!! ولقد أسفت كثيراً عندما قرأت ما كتبه ذلك الزميل ليس من أجل التاريخ لأني أعرف أنه لا بد أن يصحح لأنه لا يخضع للمزاج كما لا يخضع للسياسة والاهواء، وإنما أسفت لاولئك الناس الذين وضعهم في موضع النقد وربما حتى الهجوم بينما كانوا بعيدين عن ذلك، ومهما حسنت النوايا فإن من سيتعرض لبحث أحداث ذلك التاريخ كما أفعل الآن، لا بد له أن يدرس دور هؤلاء الناس في تلك الحرب ليضعهم في مكانهم الصحيح، ومكانهم على أي حال لم يكن في مقدمة القيادة على الاطلاق حتى إذا أغضضنا النظر عما أورده القشاط على إعتبار أنه أهواء شخصية.

المهم أن سقوط (قاهرة) كان خيط البارود الذي أشعل فتيل الثورة الوطنية في كل الجنوب الليبي، ونورد هنا بعض ما ذكره القعيد (بيلارديניللي) عن الوضع في الجنوب بعد سقوط القاهرة، وهذه رواية شاهد عيان على تلك الفترة التاريخية.. يقول :

لم يمض وقت طويل حتى قذف به ضدنا (يقصد المهدي السني) في سبتمبر 1914م مع ذلك الفريق الذي كان على شاكلته الطارقي محمد كاوسن.

وبعد أن توغلا في قلب فزان، شرع هذان الشقيان في شن حملة دعائية ضد حكومتنا، وبعد التوقف فترة وجيزة في مرزق ذاتها إتجها صوب الشمال، وعند حلولهما بأم الارانب وجدا أمامهما، مجتمعين، حوالي ستين مسلحا على رأسهم سالم بن عبد النبي ومحمد شرع الزنتاني وحسين التمتام ومحمد بن عطية أحد أعيان برقن وهم في طريقهم لزيارة زعيم السنوسية، وبعد تبادل مشاعر

الحفاوة والترحيب، حسب التقاليد، بدأ المجتمعون يتباحثون ويتشاورون حول الوضع، عندها أخرج المهدي السني من معطفه، راية الرسول، وبعد أن لوح بها، وجه اليهم نداء سيده السنوسي العتيد، وقص على مسامعهم المتلهف لالتقاط الخوارق وما يلهب مخيلتهم المتقده، ما كان رآه في المنام ويتلخص في أنه شاهد الرسول شخصياً الذي أمره بأن يجمع تحت رايته الخضراء جميع مقاتلي قطر طرابلس ليعلنوا العصيان ويثوروا ضد الطليان الكفار حتى يطردوهم من جميع أرجاء القطر، وهكذا بدأت هذه الشرذمة من قطاع الطرق مسيرتها صوب الوادي الغربي، وإنضم اليها وهي في طريقها مقاتلون من جميع القبائل وحوالي مائة طارقي.

وبعد ما حط رحاله بمنطقة بئر زلاف واقام عليها مقر قيادته أرسل المهدي السني مندوبين عنه الى أعالي وادي الشاطئ والى الجفرة والقبلة لاعلان الحرب المقدسة (الجهاد) ضد الايطاليين بأمر من سيده السنوسي الجليل والقوي.

وفي اوائل شهر نوفمبر، وفي الوقت الذي ظل يبعث فيه عابد السنوسي برسائله المتضمنة مشاعر اخلاصه ونواياه السلمية الى الحكومة اندفع العصيان في الشاطئ فجأة وبعنف منذراً بالهول، بعدما كان متستراً يتقد تحت الرمال.

أرسل المهدي السني من مقر قيادته في بئر زلاف أول مجموعة من المسلحين الى أدري بقيادة كاوسن ومحمد شرع، إقتحمت هذه الجماعة حامية جنود المهارى القلائل وبعد التغلب على مقاومتهم الضعيفة في غضون دقائق دمروها في الكامل.

وهذا الانتصار الذي حققوه بسهولة حمس اولئك الوحوش فاندفعت شراذمهم لضرب حامية اوباري وإقتحامها (بطبيعة الحال نحن لا نهتم بالتعبيرات التي يستعملها هذا الضابط الايطالي، مثل، قطاع طرق، وشراذم، ووحوش، الخ لاننا نعتبر هذا الوصف شرف للمجاهدين اذ لا يتوقع من العدو شئ آخر، وهمنا ان ننقل تفاصيل الحدث) ويضيف بيلاردينيللي.

في تلك الآونة كان العقيد (مياني) قد حشد قواته في براك تمهيدا لشن حملة انتقامية على الشاطئ، الا أنه على أثر بلوغه نبأ سقوط قاهرة سبها (28

نوفمبر) مقر المفوضية على يد شرانم السنوسية بقيادة المهدي السني، عدل عن تنفيذ خطته وبسبب تلك الظروف المعاكسه التي كانت تحول دون القيام بالهجوم المضاد قرر التراجع والانسحاب الى سوكنه.

ونفذ ذلك بعد وصول تعزيزات قادمة من تلك البلدة، قوامها سريتان اريتريتان بقيادة الرائد (موسيير) من الكتيبة الاريتيرية الخامسة عشر.

وما ان حل مياني بسوكنه حتى تلقى بواسطة اللاسلكي نداءات ملحة من ناحية اوباري تطالب بالنجدة ثم انقطعت النداءات في الكامل، دفعة واحدة، وعلم فيما بعد ان تلك الحفنة من الابطال رغم تطويقهم من كل جانب وتعرضهم لهجمات متلاحقة من قبل جماعات عديدة من العصاة ظلت صامدة تقاتل بكل إصرار وشجاعة لمدة 15 يوماً، الى درجة ان المهدي السني الجبان الذي كان متوقفا في الزلاف في مقر قيادته ما ان علم بذلك الصمود الرائع الذي ظل يبديه جنودنا حتى أصدر أمره بنقل المدفعين اللذين كان قد غنمهما في قاهرة في سبها الى اوباري بقصد تحطيم ذلك المخفر العنيف بقذائف المدفعين.

الا أن الخسائر الفادحة التي لحقت بالصامدين في الارواح والاصابات ونضوب المؤن وآلام العطش المبرحة أرغمتهم أخيرا على الاستسلام.

ويبدو ان قائد الحامية الملازم (موسيير توكوتيكا) حاول النجاة على صهوة جواده الا أنه طورد وألقى عليه القبض وجر أمام كاوسن وشرع، فقتل شر قتله.

نلاحظ من هذا الكلام غير المترابط وغير المنطقي كيف كان وضع الايطاليين في الجنوب بعد سقوط قاهرة، ومن العجيب ان يبرر هذا الكاتب وهو عسكري محاولة هروب قائد الحامية الضابط الايطالي بعد ان قرر وجنوده الاستسلام، ولكن هذا ايضا ليس غريبا على هؤلاء الايطاليين فسوف نجده أيضا يبرر هروب القائد العام مع جنوده البيض (أي الاوروبيين) تاركا وراءه الجنود الملونين (أي الاريتيريين وغيرهم لمصيرهم، وهذا ما ذكره الكاتب) :

ولقي نفس النهاية التعسه جميع أفراد القوة الآخرين لأن أحداً من اولئك الابطال لم ينج من القتل.

هذا ولم يتمكن العقيد مياني من إنقاذ رجال الحامية في مرزق والبيض) بواسطة قافلة صغيرة من الشاحنات الا بشق الانفس دون علم (المجندين الملونين) أنفسهم الذين تركهم وشأنهم مع كميات كبيرة من الاسلحة والذخائر والمؤن.

وفي 22 ديسمبر 1914م بعد توقفه في سوكنه، واصل الفيلق مسيرته شمالا حتى وصل مصراته في 26 من الشهر والجنود في أقصى حالة من الانهاك بعد ما قاسوه من مشاق لا توصف وبعد أن نزل عددهم الى حوالى ألف رجل، انتهى[1].

لقد تحدث بيلاردينيللي عن التفكك الذي حدث للقوات الايطالية بعد سقوط مقر المفوضية في سبها، أي بعد أن احتل المجاهدون قلعة (قاهرة) في سبها وبعد أن أرغم الكولونيل مياني على لملمة خيامه وبقية جنوده والانسحاب بلا نظام في اتجاه الشواطئ تاركا كل شئ وراءه لقد ترك الأسلحة والمؤن والذخائر بل وترك الجنود الملونين الذين كانوا يقاتلون معه مجندين من اريتريا وغيرها من البلاد ربما ايضا من الصومال على اعتبار ان كلاهما (اريتريا والصومال) كانتا مستعمرتين ايطاليتين، ولقد وصف بيلاردينيللي المجاهدين بالقتله وقطاع الطرق والشراذم الخ بينما كان يقول عن جنود بلاده الذين هربوا، أنهم أبطال، ولم يجرؤ أحد على اطلاق مثل هذه الاوصاف على المجاهدين الليبيين، وحتى غراتزياني كان يسميهم (المجاهدين).

ويتحدث الاستاذ خليفة التليسي عن مكان (قاهرة) في وضع المجاهدين في الجنوب بادئاً بنوايا إيطاليا مباشرة بعد توقيع إتفاقية (اوشي – لوزان) فيقول :

إحتلت فزان مكانة هامة في العمل الاستعماري الايطالي ومخططاته السياسية والعسكرية فما كاد يتم اعلان الصلح بين إيطاليا وتركيا وتوقع معاهدة (أوشي – لوزان) حتى أخذت السياسة الاستعمارية الايطالية تخطط وتستعد لعملية احتلال فزان والمواقع الداخلية من ليبيا وتبرر السياسة الايطالية هذا العمل بالعوامل التالية :

(1) كتاب (القبلة) الذي أصدره مكتب الدراسات، حكومة طرابلس الغرب، العدد 3 مارس سنة 1935م، تأليف الكولونيل بيلاردينيللي.

1 – ان وجود قبائل محاربة في القبلة (طرابلس الغرب) والجنوب، وعند مشارف الاحتلال الايطالي، من شأنه ان يشكل تهديدا دائما للوجود الايطالي في المواقع المحتله.

2 – أثبتت التجارب الايطالية الاستعمارية ان الثورة ضده، كثيرا ما اندلعت من المناطق الجنوبية التي تخرج عن حدود سيطرته والتي يتخذ منها الثوار قواعد لاعمالهم الحربية ضد المحتلين وفقا لاسلوب تقليدي متوارث عبر القرون والاحقاب.

3 – ان هناك أسبابا دولية تدفع الى التعجيل بهذا الاحتلال وتجنب الدخول في مشاكل ومضاعفات سياسية والعمل على تأكيد السياسة الايطالية على كامل التراب الليبي، ومنذ بداية سنة 1913م وبداية التدخل السلمي الذي أعقب إتفاقية (اوشي – لوزان) وقيام إيطاليا باحتلال بعض البلدان الداخلية من طرابلس الغرب اتجهت فيه ايطاليا للعمل على احتلال فزان، وأسندت هذه الحملة الى الكولونيل مياني الذي اعتقد انه سيعيد مجد او أمجاد القائد الروماني (كورنيليو بالبو) وتقرر اختيار سرت قاعدة لهذه الحملة الهامة، على ان تنطلق في المرحلة الاولى نحو سوكنه ثم تتجه في المرحلة الثانية نحو براك ودواخل فزان، واختيرت طريق (سرت – سوكنه) باعتبارها اقصر الطرق واكثرها توفرا على المياه، وتجنب الايطاليون الزحف على فزان عن طريق القبلة، بسبب الموقف الثائر المعادي الذي كانت تقفه قبائلها ضد الوجود الايطالي المجاهد محمد بن عبدالله البوسيفي.

وفي يونيو 1913م حشدت في سرت قوة بقيادة (مياني) تتألف من كتيبتين اريتريتين وقسمين من مدفعية الجبال المحملة على الجمال وفصيلة خدمات وسبع محطات راديو، تلغراف وقافلة كبيرة من الامدادات.

وجرى التمهيد لهذه العملية باحتلال سوكنه في 22 يوليو ثم اتخذت حملة مياني طريقها الى سوكنه التي وصلتها في الثاني والعشرين من شهر اغسطس وقامت بها مدة تزيد على ثلاثة اشهر للاستعداد ومراقبة الوضع في فزان قبل المضي في التوغل، وتحركت منها في 6 ديسمبر 1913م متجهة الى الجنوب نحو براك عبر جبل السوده.

وكان المجاهد محمد بن عبد الله البوسيفي في طليعة القادة والزعماء الذين رفضوا مبدأ قبول الصلح مع ايطاليا واعلن عزمه على الاستمرار في المقاومة واتخذ طريقه هو ورجاله نحو القبلة في الجنوب وقد كان محمد بن عبدالله في هذه الفترة من ابرز زعماء المقاومة اذ اخذ على عاتقه مهمة النهوض بعبء التصدي لقوات مياني الكبيرة القوية الزاحفة نحو فزان وكان مياني يضع في حسبانه في كل مرحلة من مراحل حملته هذه القوة التي انتظمت حول محمد بن عبدالله البوسيفي وكان وجود هذه القوة في خطوط الحملة من الاسباب التي ادت الى إطالة إقامته وأخرته في سيره وقد تصدى محمد بن عبدالله لهذه الحملة واصطدم بها اول مرة في معركة (الشب) التي جرت يوم 10 ديسمبر 1913م وكانت احدى المعارك الضارية العنيفة، وتحول المجاهدون على أثرها الى الجنوب للاستمرار في اعتراض طريق القوة الزاحفة، وقرب آبار (اشكده) وعلى مسافة قريبة من براك جرت يوم 13 ديسمبر 1913م معركة اخرى عنيفة ضد قوات مياني وتقول الموسوعة العسكرية الايطالية ان المعركة التي استغرقت بضعة ساعات قد ادارها الطرفان بشدة وعنف، واضطر المجاهدون ازاء ضغط القوة الكبيرة الزاحفة الى التخلي عن براك والاعتصام بالمناطق المجاورة واحتلت القوة الايطالية براك ولكنها لم تشعر بالاطمئنان الى هذا الاحتلال ووحدات المجاهدين بقيادة محمد بن عبدالله البوسيفي ما تزال قريبة منها.

وكان المجاهدون قد تجمعوا قرب محروقة مما اضطر مياني الى ان يترك قوة كافية في براك ويتحرك بقواته الكبيرة الباقية نحو المحروقة حيث جرت بها يوم 23 ديسمبر 1913م معركة عنيفة حاسمة استشهد فيها محمد بن عبدالله، وكانت هذه من المعارك الحاسمة في تاريخ الاستعمار الايطالي حيث تمكنوا على أثرها من السيطرة المبدئة على المنطقة وظن (مياني) أنه حقق لنفسه ولأمته أمجاد عصره واستولى فعلا على سبها في 17 فبراير 1914م وتحول الى مرزق في 27 منه حيث وصلها في 3 مارس وما كاد ينتهي من هذه العمليات العسكرية حتى بدأت المشاكل في الظهور وكانت اولاها مشكلة المواصلات فاقصر طريق هي طريق غريان ولكن لا بد لهذه الطريق ان تخترق القبلة موطن القبائل المتزعمه للمقاومة

ضد الايطاليين، وكان الكثير من اهالي القبلة قد نزحوا الى مناطق سرت وزله، وضاقت ايطاليا ذرعا بهذا النزوح نحو الشرق وقدرت العواقب الناجمة عنه وما يمثله من تهديد لخطوط المواصلات التي تربط الحملة بالقواعد التي انشئت في سوكنه وسرت مما سوف يؤدي في النهاية الى عزلها، وانقطاعها عن الساحل، ويمكن المقاومة من الانفراد بها وكان ذلك بالفعل مخططا قائما في ذهن قادة حركة الجهاد في تلك الفترة.

ولم تملك إيطاليا ازاء هذا التهديد الا أن تبادر الى القيام بعمليات عسكرية في منطقة سرت فقررت العمل على احتلال النوفلية ثم الزحف بعد ذلك على مراده ومنها الى سوكنه وذلك لتطهير المنطقة من مراكز المقاومة التي اخذت تتجمع وتتكون في هذه المناطق، ولكن المقاومة القوية كما تقول الموسوعة العسكرية الايطالية، التي واجهتها القوات الايطالية سواء في النوفلية او في العوجه قد أرغمتهم على التخلي عن أي فكرة في التوسع، وقد شجع ذلك المجاهدين على متابعة هجماتهم على قوات العدو وقاموا فعلا في 7 يوليو 1914م بمهاجمة سرية ايطالية بين العوجة وسلطان فقتلوا منها ضابطين و16 جنديا وجرحوا عشرة آخرين وبذلك فشلت القوات الايطالية في تحقيق سيطرتها على منطقة سرت، واخذت الاوضاع تزداد سوءاً بعد الانفجار الفجائي للحرب الاوروبية وقد استغل المجاهدون هذا الظرف احسن استغلال[1] .

من المهم ان نلاحظ هنا ان قوات (مياني) قد تفادت في بداية حملتها على فزان المرور عبر منطقة القبلة اذ كان القادة الايطاليون يدركون ان القبلة تمثل عصب المقاومة الليبية وأنه لا يمكن الاتجاه اليها مباشرة ولا بد من عزلها عن بقية مناطق المقاومة الوطنية بحيث يمكن التغلب عليها، فاذا امكن احتلال مناطق الجنوب بعد احتلال معاقل المقاومة في الجبل الغربي فان القبلة تقع تماماً بين فكي كماشة، ومن المعروف ان القبلة هي صحراء قاحلة لا تتوفر فيها سبل الحياة وأهمها المياه (وهي قليلة جداً) واذا كانت حركة المقاومة الوطنية قادرة على التغلب على تلك المشاكل فانه ليس من الممكن ان يحدث ذلك بالنسبة للقوات العسكرية

(1) معجم الجهاد الليبي، خليفة التليسي.

النظامية الكبيرة، فالمقاومة تعتمد على وحدات صغيرة متحركة واناس خبروا ظروف تلك الحياة الصعبة، وهكذا فان الكولونيل مياني وغيره ادركوا بعد فوات الوقت ان فكرة الكماشة ليست ممكنة لان فكيها لن يلتقيا حول رقبة المقاومة، بل العكس هو الصحيح اذ ان قوات مياني في الجنوب اصبحت معزولة ونراه في هذه الحالة وقد فكر في الكيفية التي يتغلب بها على مشاكله انه ايضا تحاشى القبلة في طريق امتداداته من الشمال، فلا يمكنه ان يستخدم الطريق القريب الذي يربط الجنوب بالشمال عبر مزده فغريان، ونحن نعرف ان غراتزياني قد قال ان القبلة هي (حجرة الانفجار) او غرفة الانفجار، واذا كان الامر كذلك فان مزده هي قلب القبلة، وكان المجاهدون يحافظون على هذا القلب الذي لا يمكن الوصول اليه بسهولة وربما يكون من المفيد ان نقدم لمحة عن القبلة وطبيعتها قبل الاستمرار في متابعة وضع حملة (مياني).

يقول الكولونيل أ – بيلاردينيللي ما يلي :

للتأكد على ان القبلة لم تكن تختلف عما هي عليه الآن، أي أصقاع قاحلة بطبيعتها ومحرومة من جميع موارد الثروة الطبيعية، هناك ما يحمل على الاعتقاد بأن مجتمعات قليلة من البشر بالنسبة الى مساحتها يمكن ان يقيموا فيها بصورة دائمة، وانه لبضعة أشهر فقط من كل عام يتقاطر عليها أفواج من الناس من الاراضي المجاورة وذلك عند هطول الامطار الغزيرة التي كانت تمكن من استثمار الاراضي المنخفضة الشاسعة وبطون الوديان وهي الاراضي الوحيدة الصالحة للزراعة الموسمية والرعي.

وفي مكان آخر يقول :

من المعروف انه كلما بدأت حضارة تظهر في شمال افريقيا كلما كان اساسها الشريط الساحلي ومن ثم فإن سكان الدواخل المستقرون منهم والرحل اما انهم ظلوا يتنصلون من سيطرة الدولة الحاكمة على الساحل واما يرضخون صوريا الى سيطرتها لان بعدهم عن الساحل والصحارى التي لا ينتهي وتفصلهم عن بعضهم بعضا وعن الحكومة على الساحل، كانت تجعل من الصعب، ان لم يكن من المستحيل، ربط اية صلة مباشرة وبالتالي تنعدم السيطرة عليهم، وان

فرضت فلفترة قصيرة، وحتى في الاحقاب التي بلغت فيها الدولة المسيطرة على المناطق الساحلية أقصى قوتها كانت توجد دائما بقعة قصية نائية لا يجرؤ احد على التسلل اليها، او ما هو أصعب من ذلك، على فرض سيطرة او خدمة عسكرية الزامية عليها، وهكذا ترك هؤلاء الاهالي وشأنهم مستقلين يحكمهم زعماؤهم وامراؤهم التابعون اسميا للدولة او السلطة بالساحل، والقبلة كانت احدى هذه البقاع ومع أن القبائل ترفض الاستسلام لنير أي كان، ظهرت فيها حركات غزو وتناحر ما زالت عالقة بذهن الاهالي الحاليين، ورغم ما كان يحف بها من مخاطر وما تتسم به من فقر للموارد الطبيعية ظلت القبلة أبداً الموقع المفضل لتبادل المنتجات بين الدواخل والساحل لانها كانت اقصر طريق لذلك.

يصدق القول هنا في انها كانت اقصر طريق بين الساحل وجنوب البلاد، وكان هناك دائماً تواصل تجاري بين الجنوب والشمال الليبيين، ولكن الحقيقة تبقى ان الحكومات او السلطات التي تنشأ او تأتي لتسيطر على المنطقة الساحلية وهي غالباً غريبة غازية تحاول بسط سيطرتها على جنوب البلاد وشمالها وبالتالي فهي لا بد ان تحاول سلوك اقصر طريق، وهذا الطريق القصير هو الاصعب دائماً ولهذا لجأت السلطات الغازية الى إثارة الفتن واحداث القتال بين المواطنين أنفسهم من أجل اضعافهم واستغلالهم رغبة في الحصول على موطئ قدم على هذا الطريق القصير الذي يربط الشمال بالجنوب، حدث هذا في جميع فترات التاريخ ومع الاسف فقد حدث التقاتل والتناحر بين القبائل الليبية في مناطق القبلة ايضا على مر التاريخ لاسباب كثيرة وان كان أهمها التدخل الاجنبي الا ان المهم انه لم يحدث ان سيطر أجنبي على القبلة وإستقر هانئاً بها، ونعود الى شرارة الثورة التي تفجرت إثر سقوط القاهرة، ونلاحظ انه مع كل الظروف المنذرة بالشر لم يتخل الكولونيل (مياني) عن احلامه في توسيع الاحتلال الايطالي وترسيخه فاحتل اوباري، وبعد أشهر قليلة من ذلك ارسل قوة بقيادة (جيانيني) لاحتلال غات خوفا من ان يقوم الفرنسيون باحتلالها، وقد استولت القوة الايطالية على غات في 12 اغسطس 1914م وبذلك استطاعت قوات (مياني) ان تحقق أكبر توسع ممكن في منطقة فزان ولكنها أصيبت أيضا باكبر تشتت ممكن اذ انتشرت وتوزعت على عدة

حاميات وعدة مواقع وكان هذا الانتشار سبباً من أسباب الكارثة التي حلت بها، وكان محمد بن عبدالله البوسيفي قبل استشهاده يعتمد على هذا العامل ويؤمن بانه سيكون كفيلا بالقضاء على القوة الايطالية الامر الذي تحقق فعلا فيما بعد.

وفي نهاية اغسطس كانت طرق المواصلات بالساحل مقطوعة تقريبا وتعذر على حكوة الولاية القيام بأي عمل لانقاذ الوضع المتداعي فاصدرت التعليمات بتركيز كافة الحاميات في براك، وكانت الثورة قد انتشرت في فزان منذ نهاية سبتمبر 1914م وشملت (واو) و (زله) ومناطق سرت، ويلاحظ هنا ان كافة القوى الوطنية في الغرب والشرق والجنوب قد ساهمت كلها في إذكاء هذه الثورة الشاملة التي انطلقت شرارتها من المقاومة الاولى التي قادها محمد بن عبدالله بحيث يمكن اعتبارها نتيجة لموقفه وتصعيدا له، وقد جمع الكولونيل (مياني) قواته في براك ثم نهض على رأسها للقيام بحملة تأديبية ضد الشاطئ على أمل السيطرة على الاوضاع واسترداد مكاسبه الضائعة الا ان المجاهدين استغلوا فرصة خروجه من سبها وهاجموا قلعتها (القاهرة) واستولوا عليها بمساعدة الحرس الفزاني[1] الذي كان قد جنده مياني نفسه، وقد اضطرت هذه العملية الناجحة مياني الى الانسحاب في مساء اليوم نفسه (28 نوفمبر 1914م) الى سوكنه رأساً إثر استلامه لنبأ وقوع سبها في أيدي الوطنيين دون ان ينتظر وصول حامية غات التي كانت قد صدرت اليها التعليمات قبل ذلك بالتحول الى مرزق.

ومن المعروف يومئذ ان الكولونيل (مياني) قد الح في طلب النجدات من الحكومة في طرابلس وبدأ يعد للانسحاب النهائي من مناطق الجنوب جميعها بعد ان تأكد ان الكارثة سوف تحل بالقوات الايطالية اذا بقيت في تلك المناطق مهما كانت قوتها ذلك ان ضباطه وجنوده اصيبوا بالرعب من تطور عمليات المجاهدين واقدامهم وفي عمليات انسحاب القوات الايطالية نرى كيف انهم كانوا يميزون بين البيض والملونين اي بين الايطاليين وغيرهم فقد تركوا (كما ذكرنا في صفحات

---

(1) هنا تختلف الروايات فهناك من يقول ان الجندي وآخر معه كانوا قد اجبروا بواسطة المجاهدين على المساعدة، وهناك من يقول انهما تطوعا للقيام بذلك العمل الذي ساعد المجاهدين.

سابقة) اولئك الملونين بينما كانوا يسحبون الجنود الايطاليين، ولقد حدث الانسحاب الذي كان في الواقع يمثل هروباً وان حاول مياني ان يجعله انسحاباً، فإذا كان مستقبله العسكري قد تقرر كقائد بعد سقوط القاهرة فإنه ربما أراد ان لا تحسب عليه الهزيمة مرتين، مرة في القتال وهزيمة اخرى في الانسحاب، ومن المعروف عسكريا ان الانسحاب في حد ذاته احد الاعمال العسكرية الكبيرة، وحتى هذا كان الكولونيل مياني قد فشل فيه.

ويقول الاستاذ التليسي في شأن المرحلة الثانية من الحرب :

لم تعد فزان الى منطقة الاهتمام الايطالي الا عند الشروع في العمليات العسكرية التي بدئت في سنة 1922م وعرفت باسم عمليات الاسترداد لطرابلس الغرب التي قادها (غراتزياني) ومتزني وبتساري، وغيرهم من القادة ضد المناطق الغربية والجبلية وترهونة ومصراته وورفلة والقبلة، وقد تجنب الايطاليون في هذه المرة الخطأ السابق فلم يتجهوا الى احتلال فزان بعد ان خلصت لهم السيطرة على المواقع الداخلية من طرابلس الغرب والتي اتخذوا منها مواقع امامية للزحف على فزان، ووفقاً للاسلوب العسكري الذي يعتمد على تحريك القوات من مختلف الجهات لتلتقي في النهاية عند الهدف المقصود، وقد تجنبوا بصفة خاصة التزام الطريق الواحد الذي سار عليه الكولونيل مياني كما تجنبوا التوغل في المناطق النائية قبل السيطرة على الجفرة وصحراء سرت والقبلة، ومن المعروف أن الحرب ظلت قائمة في القبلة حتى سنة 1929م تتولاها قبائل الزنتان والرجبان والمشاشي[1] وورفلة، ولقد كانت حلقات الجهاد الليبي متواصلة وكانت البطولات رائعة على الرغم من التفاوت الكبير في التسليح والتموين، فبينما كانت القوات الغازية تستخدم الدبابات والطائرات والأسلحة الاتوماتيكية وتتنقل بالسيارات كان المجاهدون لا يملكون الا اسلحة بدائية متمثلة في البندقية العادية ويتنقلون بالخيول والجمال وغالباً على أرجلهم، واذ كانت القوات الايطالية تحصل على كل احتياجاتها التموينية من الخارج وبشكل منتظم لم يكن يحصل المجاهدون الا على

(1) معجم معارك الجهاد في ليبيا، التليسي ـ دار الثقافة، بيروت.

غذاء بسيط أحياناً لا يتعدى حبات تمر، لكن الايمان بالله والتضحية من أجل الوطن والكرامة والحرية كانت أسباباً في الاستماتة والنصر.

ولقد تحدث عن هذه المعركة بعض الذين شاركوا فيها وسجل أحاديثهم مركز دراسات جهاد الليبيين مشكورا وذلك في توثيق أحداث التاريخ، ولأننا نود الاحاطة بتفاصيل هذه المعركة فإننا ننقل هنا هذه الشهادات تكملة للموضوع :

في موسوعة روايات جهاد الليبيين جاءت شهادة (ابو عجيلة احمد بورميله) بشأن معركة القاهرة كما يلي :

س: كم من الوقت بين معركتي المحروقة والقاهرة؟؟

ج: حوالي سنة.

س: هل قدمتم الى معركة القاهرة من الرمله؟؟

ج: كنا في الرمله لان السيارات لا تستطيع الوصول اليها ويكون قذف الطائرات غير فعال في الرمال.

س: حدثنا عن معركة القاهرة من الرمله الى نهاية المعركة واخذ الغنائم؟؟

ج: تجمع المجاهدون في الرمله وكان الايطاليون متمركزون في القاهرة وغات ومرزق، والقاهرة عبارة عن تل مرتفع، وعندما تجمعنا كان معنا المهدي السني وكان القائد الذي يجمع المجاهدين هو سالم بن عبد النبي.

س: هل كانت هناك اتصالات بين محمد العابد وسالم بن عبد النبي والمهدي السني؟؟

ج: كان بينهم اتصال الا ان سالم بن عبد النبي الزنتاني هو المخطط والمنفذ لمعركة القاهرة، وقد سرنا الى القاهرة حتى اقتربنا منها في مساء احد الايام وكان شخص من الحطمان اسمه سالم مجندا مع الايطاليين في القاهرة وهو الذي قدم الينا.

س: في أي المواضع قدم اليكم؟؟

ج: التقينا معه في ارض آدري وغسان.

س: هل قدم اليكم بعد ان انقسمت مجموعة منكم وذهبت الى اوباري؟؟

ج: قدم الينا قبل ذلك.

س: كم عدد أفراد المجموعة في البداية؟؟

ج: عددنا نحن الذين وصلنا القاهرة 300 مجاهد وعدد الذين انقسموا 50 او 60 مجاهداً.

س: ما هي القبائل التي ينتمي اليها هؤلاء المجاهدون؟؟

ج: الاكثرية من الزنتان ويبلغ عددنا 150 مجاهداً ومعنا أيضا 10 او 15 من القواليش ومعنا من الغنايمه حوالي ثمانية رجال.

س: وماذا عن حرس الايطاليين؟؟

ج: كان الحرس موجوداً في الباب الجنوبي اما طريقنا فلم يكن أحد يتوقع الصعود منه، وجدنا ثمانية من الايطاليين يغطون في نومهم وأردنا ان نقتلهم الا ان الحطماني قال يجب ان نطلق المدفع اولا وبمجرد ان انطلق المدفع قتلناهم جميعا وبدأ اطلاق النار من جهتنا ومن المجاهدين الموجودين أسفل القلعة ومن الاحباش وفي هذا الوقت أنبلج الفجر وقد طلب منا سالم بن عبد النبي ان نرفع صوت الآذان بعد اطلاق المدفع ونفذنا تلك التوصية.

والحديث عن غرفة الانفجار تلك كما اسماها غراتزياني لا بد ان يتناول كافة جوانب احداث تاريخ النضال الوطني المرتبط بالقبلة، واذا كان غراتزياني قد سماها غرفة الانفجار فلأنه يدرك أهميتها وموقعها وصعوبتها والاسباب التي تدعو المناضلين الى اللجوء اليها وشن المعارك منها، ولقد تأكد عبر كل مراحل تاريخنا الوطني انها فعلا غرفة الانفجار وهي ملجأ الصادقين في جهادهم الذين لا يساومون ولا يستسلمون لاي غازي مهما كان وكانت قوته، جرمانتي او فندالي او بيزنطي او روماني او تركي او ايطالي، اما الذي لا يعرف هذه الحقيقة فقد اعتبرها دار الخائفين الذين يهربون من ميدان الجهاد تاركين وراءهم العدو يتقدم بلا قتال !!! ولقد قال قديما (هوميروس) في الاوديسا (ان من يأكل اللوتس من غير الليبيين ينسى وطنه الاصلي ويعيش في ليبيا ليقضي حياته يأكل اللوتس) ولعلنا نأمل ان يكون اللوتس متوافرا في الوقت الحاضر.

وكما ذكرنا فإن قلب القبلة هي مزده وهكذا كانت هذه البلدة الصغيرة الواقعة في الطريق بين الجنوب والشمال، فقد دارت فيها وعلى أرضها وبالقرب منها معارك كثيرة رغبة في السيطرة عليها بحيث يمكن التمكن من الطريق القصير وبالتالي ضمان وصول الامداد من الشمال الى الجنوب، ولقد حدث هذا مع كل الغزاة، وطالما اننا نتحدث عن التاريخ القريب فمن اللازم الاشارة الى حدودها وموقعها، ولقد ذكرنا أنها قرية صغيرة تقع كهمزة وصل بين غريان وفزان وتقبع في وسط وادي مترامي الاطراف محاط من كل جانب بسلسلة جبلية ووديان متعددة أهمها وادي سوف الجين، وهناك وادي وامس، ووادي تاقجه ووادي مقتولة، وبها بئران شهيران هما بئر تارسين وبئر تشه وقد عرفا بسبب المعارك التي دارت حولهما، مناخها صحراوي جاف مشابه صيفا وشتاء للقبلة، ويسكنها الآن عدد وافر من الناس، وتتوفر فيها أغلب المرافق الخدمية.

ولما كانت القبلة هي الهدف الاول والاساسي لحملات القوات الايطالية في كل مراحل القتال من أجل السيطرة على الجبل الغربي وجنوب البلاد أي فزان فان معارك كل من :

مزده، بئر تارسين، وادي سوفجين، وادي مرسيط، القريات، الطابونية، بئر علاق، الحماده، كلها كانت من أجل كسر شوكة قوات المجاهدين واحتلال القبلة بحيث يمكن للغزاة الاستقرار في كل من الجبل الغربي وفزان وهذا لم يحدث الابعد معارك ضارية ودماء غزيرة ووقت طويل، ومن هنا كان الحديث عن معارك هذه المواقع هو حديث عن القبلة ويبدو أنه سيكون مفيداً للالمام بكل أطراف فترة الجهاد خصوصاً اذا تذكرنا نحن أهل ليبيا ما كان قاله السنيور (جيوليتي) (أنه سيجبر العرب المتغطرسين على الارتعاد لدى ذكر اسم روما) وسيذكر كل من يقرأ التاريخ الحقيقي لهذا البلد وسجال المعارك في هذه المواقع ان الليبيين هم الذين جعلوا أحفاد الرومان يرتعدون عندما تذكر (قاهرة) و (ودي الخيل) و (القرضابية) الخ، اننا لا نتبجج انطلاقا من موقع القوة ولكننا آمنا ونؤمن بالله والوطن والحرية، وان الموت في سبيل هذه المبادئ شرف، وهكذا حدث.

رأينا ان الايطاليين كانوا في المرحلة الاولى من احتلال الجبل الغربي

ومحاولة احتلال فزان قد تحاشوا القبلة لانهم كانوا يعرفون ان المجاهدين متحصنين هناك وان احتلال فزان أي الجنوب ربما يكون أسهل وبالتالي يقع الجاهدون بين فكي الكماشه، أي بين القوات الايطالية في فزان ومركزها مرزق والقوات الايطالية في الجبل الغربي ومركزها في غريان ولم يدركوا الا متأخراً ان السحر أحيانا ينقلب على الساحر على الرغم من ان الفكر العسكري غالبا ما يعتمد على خطط وخرائط واحصائيات دقيقة، فلقد حدث ان الايطاليين بعد ان احتلوا بعض مناطق الجنوب أدركوا ان مواصلاتهم مقطوعة الظهر، فقد تبين ان الامدادات والتموين لن تكون في مأمن من هجمات المجاهدين، على الرغم أيضا من أنهم كانوا حريصين على السيطرة على موارد المياه من آبار ووديان، ولقد أدرك أيضاً المجاهدون الليبيون أهمية الوقت فلم يسمحوا للايطاليين بقضم الاراضي بحيث يتمكنوا بعدئذ من الحصول على منافذ للامدادات، وهكذا حدثت معركة المحروقة التي كانت مقدمة لمعركة القاهرة، ونحن نعلم ان بين المعركة الاولى والثانية سنة واحدة، فلقد قاد المعركة الأولى المجاهد محمد بن عبدالله البوسيفي وإستشهد فيها بينما قاد الثانية المجاهد سالم بن عبد النبي الزنتاني وانتصر فيها، اذ تمكن هو ورفاقه من احتلال تلك القلعة الحصينة التي عجلت بالقضاء على الوجود الايطالي في الجنوب كله.

حدثت معركة المحروقة في 14 ديسمبر 1913م، ومعركة القاهرة في 28 نوفمبر 1914م وهذا ما ذكر عن المعركة الاولى (معركة المحروقة).

شهد هذا الموقع في 24 ديسمبر 1913م، معركة من اهم المعارك التي جرت في تاريخ الجهاد، تصدى فيها المجاهدون بقيادة محمد بن عبدالله البوسيفي لقوات مياني التي جردها للاستيلاء على فزان والمناطق الجنوبية من ليبيا.

وكانت قوات مياني قد اصطدمت بهذه الفئة من المجاهدين في معركتي (الشب) و (اشكده) وخبرت من جهادهم الصادق وبلائهم ما جعلها تخشى العواقب المترتبة على بقاء هذه القوة وما يحمله وجودها من احتمالات الخطر وزيادة تصعيد المقاومة في المنطقة، وكانت الانباء قد ترامت الى الايطاليين بقيام المجاهد محمد بن عبدالله بتنظيم قواته في المناطق القريبة من براك، كما قام

بالسيطرة على مرتفعات المنطقة ومسالكها وقد خاف الكولونيل مياني من النتائج المترتبة على وجود هذه القوة فقرر المبادرة الى الزحف عليها لزحزحتها من المواقع الهامة قبل ان تقوم بتدعيم مواقعها الدفاعية التي كانت تسيطر سيطرة تامة على ارض المعركة، وتحرك من براك يوم 23 ديسمبر 1913م بقوة تتألف من 775 بندقية و 12 قطعة مدفعية ورشاشتين بعد ان قام بتأمين الدفاع عن براك، وتوفير الاحتياطي اللازم، وكانت محلة المجاهد محمد بن عبدالله تتألف من حوالي خمسمائة مجاهد من رجال القبلة، من اولاد بوسيف والمشاشي والزنتان الذين انضموا اليه وساروا تحت لوائه عقب معركة جندوبه، الاصابعة، حيث رفض محمد بن عبدالله الاستسلام وقام باشعال المقاومة في الجنوب، وتعتبر المصادر الرسمية الايطالية معركة محروقة من المعارك الحاسمة في تاريخ الحملة الايطالية على فزان، وكان مياني يرى ان هذه المعركة هي التي ستقرر مصير الطرفين ومصالحهما العليا، وهو يعني بذلك رغبة محمد بن عبدالله ورفاقه في المقاومة ورفض الاستسلام وطرد المستعمرين، ومن الجانب الآخر مصير القوة الايطالية التي كان يحف بها الخطر وكانت خليقه بأن تنتهي الى كارثة محققة وابادة تامة في حالة فشلها في هذه المعركة، وكان عنف المعركة متكافئاً مع مفهوم الطرفين للصراع والنتائج المترتبة عليه.

وقد استغرقت معركة المحروقة خمس ساعات اتسمت بالعنف والضراوة، وتعرض العدو الايطالي أكثر من مرة الى اخطار كادت تقضي على بعض أجنحته، وقتل في هذه المعركة عدد من الضباط الايطاليين كما جرحت مجموعة كبيرة منهم، واستشهد فيها محمد بن عبدالله بطل معركة المحروقة وقائد المقاومة في الجنوب، بعد ان أبلى البلاء الصادق في الدفاع والمقاومة وبعد ان شارك في كثير من المعارك الهامة التي جرت على أرض الوطن عقب الاحتلال الايطالي، يعتبر محمد بن عبدالله من الرعيل الاول من المجاهدين الليبيين الذين جاهدوا في سبيل الله والوطن، وهو من الشخصيات الوطنية الهامة التي لم تلق من الانصاف ولم يجد جهادها من التنويه ما هو جدير به[1].

---

(1) معجم معارك الجهاد في ليبيا، التليسي.

وكانت المعركة الاخرى من معارك الرغبة في الوثوب على القبلة معركة (وادي مرسيط) التي جرت في 6 أبريل 1915م وجاءت بعد معركة السيطرة على قاهرة وضمور الوجود الايطالي في الجنوب وتمثل رد فعل الجريح، فلقد كانت هزيمة القاهرة عنيفة أفقدت القيادة الايطالية توازنها وكان على الجنرال (تاسوني) ان يبحث عن عمل قد يحفظ ماء وجه الحكومة بحيث يمكنها تقديم شئ ما في مقابل الانتقادات الشديدة بسبب الانهيار العسكري الايطالي في الجنوب حيث تراجعت القوات الايطالية تجر أذيال الخيبة وتعاني الام ضربات المجاهدين الليبيين، تلك الحكومة التي اعتقدت ان الكولونيل (مياني) عندما وضع مقر قيادته في مرزق سيتمكن من تثبيت اقدام الأستعمار الايطالي في فزان وبذلك تتم السيطرة على البلاد كلها، وهذا ما لم يحدث، وهكذا تقرر القيام بعمليتين كبيرتين، عملية وادي مرسيط وعملية القرضابية، وكانتا هزيمتين شنيعتين للقوات الايطالية، عندما وصلت القوات الايطالية، الى وادي مرسيط يوم 6 أبريل 1915م كانت قوات المجاهدين بقيادة الشيخ احمد السني تزحف في اتجاه خشم فروتن حيث تمركزت ومن هناك شنت هجومها الاول على القوات الايطالية التي كانت منهمكة في نصب الخيام للراحة بعد ان اعتقدت ان لا وجود للمجاهدين اذ قامت باستطلاع سريع، ويذكر الكولونيل (أ - بيلاردينيللي) بشأن هذه المعركة ما يلي :

لم يستغرق ذلك سوى لحظات قليلة ولكنه أثار الفزع بين القوات غير النظامية التي لاذت بالفرار بعد ان جرت معها بعض افراد القوات النظامية وقد اضطر الضباط الى استخدام السلاح وشهر مسدساتهم في وجه الجنود النظاميين لالزامهم بالصمود ومواجهة المجاهدين، واستمرت هذه المعركة عنيفة قوية حتى ساعة متأخرة من المساء وقد قضى عنفها على كل امكانيات القوة الايطالية وعطل فعاليتها، فقد جرح القائد الايطالي وجرح كل الضباط الايطاليين كما قتل بعضهم الآخر وانتقلت القيادة الى الميجور (سيرتيرانيا) الذي امر بالانسحاب والتراجع ليلا نحو مزده، وما كادت تبدأ الساعات الاولى من اليوم التالي 7 أبريل 1915م حتى أخذت الافواج الاولى من هذه القوة الباقية تتسلل تحت جنح الظلام نحو مزده.

وبعد معركة وادي مرسيط ومعركة القرضابية اللتين كانتا من أمجد معارك الجهاد الليبي بعد سقوط القاهرة ثم القضاء على الوجود الايطالي وأي أمل للقوات الايطالية في الاحتفاظ بأي أرض في الجنوب او المروق الى القبلة، وهاتين المعركتين كانتا نهاية مأساوية للمرحلة الاولى من الغزو الايطالي، ونهاية قاتلة لبطل مسرحية تراجيدية حاولت ايطاليا عرضها عنوة على الليبيين، ذلك هو الكولونيل (مياني).

وعندما قررت ايطاليا ان تقوم بجولة ثانية من الحرب في ليبيا اتت بضباط وحكام آخرين، وقد تفرغت من حرب البيت الواحد، اي الحرب الاوروبية، واقطاب المرحلة الثانية من حرب ليبيا رأوا ان تكون حرب ابادة، حرب تأتي على الاخضر واليابس، فلا يعقل ان تنهزم دولة اوروبية قوية وقادرة، ومتقدمة امام شعب صغير اعزل متخلف، فقالوا ان هذا الشعب يجب ان يرتعد عندما يذكر اسم احفاد الرومان امامه، واذا كان الكولونيل مياني قد ارتكب اخطاء فلا يجب ان تتكرر، ربما من بين اخطائه، انه لم يشن حرب الابادة، على انه في الحقيقة كان قد استخدم كل الوسائل القمعية، ولكنه هزم، وتقرر هذه المرة السيطرة على القبلة بأي ثمن، وهكذا حدثت المعارك المتصلة بالقبلة (ودي الخيل، الطابونية، بئر تارسين، القريات، بئر علاق، وغيرها) وهي معارك جميعها من أجل السيطرة على القبلة.

كانت معركة الطابونية في 9 مارس 1924م، وهذا ما ذكر في شأن هذه المعركة :

تدخل هذه المعركة في نطاق الحملة العسكرية التي شنها الايطاليون على المجاهدين من قبائل الزنتان الذين عرفوا بصمودهم ومقاومتهم العنيدة للاحتلال الايطالي، وسيطرتهم على هذه المنطقة سيطرة تامة، الامر الذي دفع الايطاليين الى الاعداد لحملة قمع واسعة ضد هذه القبائل، وقد جرد الايطاليون حملة مكونة من الجيش الايطالي والقوات غير النظامية بقيادة الميجور (غالياني) الذي زحف يوم 1 مارس 1924م من جادو نحو بئر مرهان[1] وودي الخيل واشتبك هناك في معركة

(1) ورد في كثير من التراجم عن اللغة الايطالية اسم هذا البئر خطأ فقد ذكر أنه يسمى بئر (مرهان) والحقيقة أنه بئر المرحان، والمرحان لحمه او عائلة من الزنتان.

مع قبائل الزنتان المرابطة عند بئر النصره والطابونية في 9 مارس 1924م وقد استطاعت القوة الايطالية ان تتغلب في البداية لكن هذه القبائل لم تلبث ان عادت في المساء بقوة اكبر وشنت هجوما عنيفا على العدو واستمرت المعركة دائرة الرحى حتى ساعة متأخرة من المساء، وتعترف المصادر الايطالية بعنف المعركة...

وتقول المصادر الايطالية أنه قد سقط من المجاهدين في هذه المعركة حوالي ستين شهيدا كما استولى الايطاليون على عشرة آلاف رأس من الماشية وقتل في هذه المعركة (احمد العياط) الذي كان مواليا للايطاليين.

وتحول المجاهدون من الزنتان عقب هذه المعركة الى ودي الخيل حيث نشبت هناك معركة جديدة[1] .

ووصف الجنرال غراتزياني معركة الطابونية بأنها كانت (معركة مريرة، وهذا ما ذكره الجنرال غراتزياني).

ويعيش البدو الرحل، اولاد بو سيف والزنتان والمشاشي وغيرهم ممن هم أقل منهم شأن في منطقة القبائل، ولقد أشرت فيما سبق الى العداوات القديمة والتنافس القائم بينهم والذي كان من المستطاع على أساسهما قيام سياسة تفريقية لمصلحتنا، وقد رأينا فعلا كيف ان اولاد بو سيف والمشاشي قد عاونونا وساروا جنبا الى جنب أثناء إعادة احتلالنا للجبل، وقد قاتلوا ضد أهالي الزنتان الذين هم أعداء لهم وللحكومة، وقد كان من اللازم الآن الاستفادة من هؤلاء للقيام بعمل تدريجي يرمي الى التغلغل في منطقة القبائل، في هذه المنطقة الشاسعة التي كانت دائماً في الماضي تعتبر غرفة الانفجار في طرابلس الغرب.

ولقد كان احتلال مزده احتلالا عسكريا بسيطا دون تقدم في الوقت ذاته بعمل سياسي للتأثير على البدو الرحل، شيئا قد يكون كثير الخطر ولا جدوى منه وقد يمثل (كما حدث فعلا في سنة 1914م مهما بالنسبة لاحتلالنا) ومن جهة اخرى فانه على أثر احتلال ورفله وغدامس قد انشئ في بلدتي (غريان والطابونية) وفي طبقة مركز يجمع كل أهالي الزنتان البدو الذين كانوا لا يزالون على استعداد

(1) معجم معارك الجهاد في ليبيا، التليسي. طبعة بيروت.

للحرب والقتال، وقد اجتمع من حولهم عدد كبير من الفارين من الاقليم الشرقي ومن الجبل.

ولقد كان من اللازم استئصال هذه البيئة الموبوءة التي كانت لا بد ان تؤدي عاجلا او آجلا للهجوم على الجبل والى قطع خطوط المواصلات مع ورفله وغدامس، ولم يكن من الواجب ان ننسى ان اراضي منطقة القبائل وخصوصا اراضي (حمادة الحمراء) هي اراض غير مضيافة ومن الصعب القيام فيها باعمال عسكرية بقوات نظامية حتى ولو كانت هذه القوات أهلية، واننا كنا في سنة 1924م ينقصنا التخصص الصحراوي والقوات الصحراوية، التي هي وحدها على استعداد للعمل في اراضٍ صحراوية. لذلك كان من اصعب الامور المسألة التي يجب حلها والتي كانت مع ذلك بسبب أهميتها العاجلة تفرض حلها حلا حاسماً.

ولقد كان الحاكم (فولبي) قد اهتم بالبدء بعمل رحلة من خلال افريقيا الشمالية الفرنسية واوفد لذلك قائد منطقة الجبل في حدود اختصاصه.

وكانت العملية التي تمت في هذه المرحلة تعطي مثلا فريداً على الاستفادة من معاونة الوطنيين من الاهالي سواء في الحقل السياسي او الحقل العسكري، كانت لا تزال باقية في المستعمرة كلها خيانة جماعة رمضان الشتيوي ولذلك كان من السهل استخدام الجنود غير النظاميين وتوقع ما لها من نتائج خطيرة.

ومع هذا فانه كان من الممكن القول بأن في كل حرب من حروب الغزو سواء في الماضي او الحاضر كان يؤلف من أهالي البلاد عنصر يعاون الغزاة معاونة من الطراز الاول لدرجة ان النظرية الاستعمارية قد استطاعت إثبات ان وحدة عاملة في المستعمرة، لا يمكن ان تكون كاملة، الا اذا انظمت اليها جماعة من الاعوان المناصرين، الذين يكونون بعد ذلك الحلفاء الذين تحدث عنهم'كثيرا كل من (ليفيو) و (شيزاري) و (سالستيو) و (تاشيقو) في حرب قرطاجنة وحرب الغال وجوجورتا والحرب الجرمانية وفضلا عن ذلك فإن حملات سنوات 16-17-18، قد أظهرت فيما مضى هذه الحقيقة باستخدام جماعة حسين القريتلي وجماعة خربيش البربرية المساعدة والحصول منها على الفوائد، اذ ان هذه الجماعات قد

قدمت دليلاً ثابتاً على إخلاصها وبسالتها وتفانيها، وكان هذين الزعيمين قد قدما ضمانة مطلقة لا حد لها بسبب أجناسهم الاصلية (اذ ذاك، الاول كان أهله من اهالي جزيرة كريت كما ان الثاني كان من البربر) وبسبب ماضيهما ولانهما اختارا المحاربين معهما ممن يثقان بهم كل الثقة ومن أتباعهما.

وفي الحق ان السر في الحصول على تشكيلات غير نظامية موثوق بها ويؤمن جانبها هو قبل كل شئ في اختيار الزعماء الذين يجب ان يكونوا موثوقا بهم كل الثقة، ويكون لهم ماضي سياسي يسمح بضمان عملهم الى جانب الحكومة، فإنه ساعد كثيرا على وقوع الاختيار على رجال لهم حسابات يجب عليهم دفعها او يحركهم التنافس والعداوة الاصلية، مع اولئك الذين يقومون بمحاربتهم.

وقصارى القول، ان كل منظمة سياسية او عسكرية من الاهالي يجب ان تعتمد على عوامل واقعية مطلقة وليس على أساس التفاؤل او التشاؤم او على اوهام، واذ يجب ان تكون النتيجة الايجابية لحساب دقيق دون اي اهتمام بالعواطف، هذا ويجب دائما ان لا يغيب عن بالنا ان مهنة الصداقة من جانب زعيم وطني لم تكن تخلو قط من التطلع لرعاية مصالحه الشخصية التي يضعها فوق كل اعتبار.

أما الزعماء الذين اعتمد عليهم عملنا السياسي والعسكري في الجبل وفي منطقة القبائل مثل يوسف خربيش من البربر واحمد العياط من أولاد بو سيف ومحمد بن الحاج حسن من المشاشي ومحمد جلبان من الريايانه، فقد اشتهروا بماضيهم من هذا السرد الذي سردناه وكانوا يجمعون كل الشروط اللازمة للقيام بقيادة الجماعات غير النظامية وكان الاهالي الذين يجب ان يتبعوهم كلهم أعداء الداء لاهالي الزنتان والرجبان، وكانت هذه العداوة متأصلة فيهم من عهد الاباء والاجداد، وكان اهالي الزنتان والرجبان هؤلاء هم نواة الثوار المركزية والتشكيلات الثورية في ترهونة.

لذلك كانت هناك عوامل إيجابية يعتمد عليها عملنا ومع هذا فقد كان من اللازم إيجاد رئيس صالح من عاصمة الدولة للاشراف المباشر على العمليات التي

كانت قيادة المنطقة قد أعدتها ونظمتها، ولذلك وقع الاختيار على الصاغ (غالياني) قائد قطاع يفرن وهو رجل عمل بالمستعمرات منذ عهد بعيد وخبير بالرجال وبالموقف والارض التي كان قد قطعها على رأس فصائله الهجانة سنة 1915م.

ولقد تم تطبيق نظرية (فرق تسد) تطبيقا كاملا وعلى احسن الوجوه تلك النظرية التي كانت بسبب ظروف المكان والزمان والعمل عظيمة النفع ولذلك اتبعناها، كانت هذه العملية جديرة بأن يجري التفكير فيها لانها مليئة بتعليمات ذات طبائع مختلفة، كان الالاي تبلغ قوته حوالي 1000 بندقية بين مشاة وفرسان، ويضم قسما من المدفعية المحملة على الجمال، وقد تحرك من جادو في يوم 4 مارس للانضمام الى جماعات المشاشي في (وادي الخيل) على مسافة 100 كيلومتر من جادو وفيه توقف في هذه الجهة حتى صباح يوم 8 ثم انتقل الى الملاحة وكان يلتقي باستمرار بوحدات من الثوار كان ينزل بها خسائر فادحة.

وفي يوم 9 إستأنف زحفه نحو الجنوب، واستمر هذا الزحف 14 ساعة لكي يصل الى معسكرات الثوار بين الطابونية والنصره حيث التقى بجماعات الزنتان ودخل معها في معركة حامية. ولقد سقط قتيلا في هذه المعركة احمد العياط بينما كان يطلق الرصاص من فوق صهوة جواده وهو يتبع العدو الهارب وكان موته خسارة كبيرة لنا، وكنا نعرف زعيم اولاد بو سيف هذا من السنوات السابقة على سنة 1919م وكان يناصر رمضان السويحلي ثم انحاز الى قضيتنا بكل ما فيه من قوة من سنة 1921م وهي السنة التي كان فيها الحاكم (ميراكاتيللي) قد عينه متصرفا لاقليم فزان التي كان يجب عليه ان يسيطر عليها ويحكمها باسم الحكومة ولكنه لم يستطع ذلك اذ هزمه في الشويرف (خليفة الزاوي) الذي كان يحكم في ذلك الوقت مستغلا ذلك الاقليم، وبعد أن أمضى الالاي ليلته في مكان العمليات وصل الى محلات الثوار يوم 10 والى (وادي الخيل) يوم 11 وبقي فيها حتى يوم 16 وفي الصباح قامت محلة كبيرة من الزنتان يشد ازرها عناصر اخرى من الثوار بقيادة سالم بن عبد النبي الزنتاني الطاعن في السن بمهاجمة معسكرنا بمنتهى الشدة وتلت ذلك معركة عنيفة ولكن رجالنا تغلبوا على الخصم الذي ولى الادبار الى الطابونية، ولقد سقط قتيلا في ذلك اليوم بعد ان أظهر بطولة عظيمة (رونجوفاني) صول سلاح الكارابينيري ودفن

في حماده غير المضيافة، لكي يكون نذيرا ولكي يلفت اليها الانظار في مستقبل الايام،[1] ويقول الضابط الايطالي الآخر (بيلاردينيللي) عن هذه المعركة ما يلي :

كان للانتصار الذي حققته قواتنا أعظم الاثر في كافة ارجاء القبلة وخارجها ولمس العصاة بانفسهم الدليل المادي على انهم سوف لن ينعموا بالراحة والسكينة حتى في الحمادة حيث ان قبضة الحكومة باستطاعتها الوصول اليهم وضربهم في مخابئ كانت حتى وقت قريب منيعة لا تدركها الضربة الرادعة، ويضيف، الا ان الزنتان رغم الاضرار الجسيمة التي لحقت بهم من جراء الانتصار الباهر الذي حققه العقيد غالياني ضدهم، تجمعوا من جديد حول الطابونية حيث تمكنوا بعد زوال الهلع عن روعهم من اعادة تكوين محلاتهم واظهروا رغبة جامحة في استئناف القتال وغاراتهم وغزواتهم[2] .

وما يلفت الانتباه، هنا وقد اشرنا اليه في صفحات سابقة هو اثارة الفتن وتأجيج مشاعر العداء بين الطرفين وتطبيق نظرية (فرق تسد) التي يقول غراتزياني انها نجحت، وهو في ذلك كان صادقا مع الاسف الشديد فقد حدث ان تحول الزعماء الى صف العدو وقاتل الليبي اخاه الليبي، وفيما يتعلق باثارة الفتن واستخدام الوطنيين ضد بعضهم، واذا كان غراتزياني قد تحدث بنوع من الخيلاء عن نجاحه في تطبيق نظرية فرق تسد، وبنوع من الاعجاب عن دور خرببيش وغيره ممن وقفوا ضد اهلهم وبلادهم فان خرببيش هذا لا يختلف عن مسينسا وتعاونه مع الرومان، ويحدثنا التاريخ عن دور ذلك الملك وكيف كان، وهذا جزء من ذلك الذي ذكر في التاريخ الوطني :

عندما باءت حملة هانيبال بالفشل اغتنم الرومان هذه الفرصة وغزو شمال افريقيا بحملة ترأسها (سكيبيبو افريكانس)[3] ما ان نزل هذا القائد على الشاطئ الافريقي حتى تحالف مع (مسينسا) احد رؤساء القبائل الغربية الليبية وانتصرت القوات المتحالفة على القرطاجيين انتصارا حاسما في موقعة (زاما) فلم يبق امام

(1) نحو فزان، ادولفو غراتزياني ترجمة طه فوزي.
(2) كتاب القبلة، أ . بيلاردينيللي، طبعة 1935م.
(3) التاريخ الليبي القديم، د . عبد اللطيف البرقوقي، ص 340.

قرطاجة الا ان تفاوض الرومان المنتصرين لتنفذ نفسها وانتهت المفاوضات مؤكدة معنى القول التاريخي (ويل للمغلوب) فقد فرض الرومان المنتصرون شروطا تضمن لهم عدم انتعاش قرطاجة مرة اخرى، فرضوا عليها ان تتخلى عن اسبانيا وان تدفع غرامة كبيرة وتخفض عدد سفن اسطولها الى عشر سفن فقط، ولكي يشل الرومان قرطاجة نهائيا شجعوا مسينسا في اطماعه الاقليمية فاعترفوا به ملكا لملكة نوميديا المستقلة (الجزائر وبعض اجزاء من تونس) ورغم انهم سمحوا لقرطاجة بالاحتفاظ بمستوطناتها الفينيقية على الساحل الطرابلسي الا انهم ضمنوا اتفاقية الصلح بينهم وبينها هذه الجملة المطاطة (تشمل مملكة نوميديا كل المدن والمناطق التي سبق لمسينسا او اجداده ان سلكوها) وفي الوقت نفسه حظرت المعاهدة على قرطاجة شن أية حرب الا بعد الاستئذان من روما، ولم يكن مسينسا في حاجة الى مزيد من التشجيع فقد كان يتمتع بذكاء خارق وقوة جسمانية فائقة استخدمهما الى اقصى حد ممكن في سبيل تحقيق حلمه في اقامة مملكة ليبية موحدة، ونجح في تحويل عدد كبير من الليبيين البدو الى مزارعهم مستقرين وعمم بينهم استعمال الادوات الزراعية الفينيقية فتمكن بذلك من اقامة مملكة ليبية امتدت حدودها اثناء حياته من شرقي المغرب الاقصى الى غربي برقه...

واذا كان هناك من فارق بين هذا وذاك فهو ان الاول كان قد تحالف مع قوة غازية اجنبية ضد اهله وبلده بينما كان الثاني قد تحالف مع قوة اجنبية غازية ضد قوة اجنبية اخرى مقيمة وان كانت المطامع واحدة، واذا كان الرومان قد استخدموا مسينسا واعطوه بعض الامتيازات فقد عادوا وانقلبوا عليه وهذا ما فعله احفاد اولئك الرومان في غزوتهم خلال بداية القرن العشرين لليبيا وتحالفهم مع بعض اصحاب المطامع. ذلك هو الفارق والفرق بين (خريبيش ومسينسا).

وبعد معركة الطابونية تأتي معركة (ودي الخيل) التي جرت في 16 مارس 1924م ثم معركة بئر تارسين والقريات وبئر علاق، وفيما يتعلق بمعركة ودي الخيل يقول الضابط الايطالي (بيلاردينيللي) 16 مارس 1924م. بسبب قلة الماء اضطر الفيلق ان يتوقف بوادي الخيل، وفي صبيحة اليوم التالي تعرض لهجوم مفاجئ شنته عليه محلة قوامها 900 مسلح بقيادة ذلك المعلم الرهيب في فنون

المكر والخديعة سالم بن عبد النبي الناكوع الزنتاني، فعندما كان سالم هذا متربصا في الطابونية في انتظار الفيلق. ابلغه شيخ من الزنتان (كان قد هرب من الاسر وتمكن من الفرار) ابلغه بمواقع وحدات فيلق غالياني فغادر الطابونية على الفور وحل بودي الخيل في ساعة متأخرة من الليل واغتنم زوبعة القبلى الهوجاء التي كانت تجتاح المنطقة ليتسلل في صمت مطبق ويضرب حصارا حول معسكرنا وما ان طلع الفجر الساعة الرابعة حتى بادر باطلاق نيران مكثفة علينا وانقض بعدها على المعسكر ليداهمه باقصى العنف حتى تغلغل الى داخله الا ان قواتنا سرعان ما تمكنت من تدارك الموقف فقاومت الهجوم ببسالة وحزم وتحولت الى شن هجوم مضاد خاطف أسفر عن دحر شراذم سالم بن عبد النبي وملاحقتها حتى الملاحات.

وفي الاشتباكات المتفرقة فقد الزنتان فضلا عن الخسائر الجسيمة في الارواح كميات كبيرة من المؤن والعتاد واعداد كبيرة من الماشية[1] وعن هذه المعركة يقول الاستاذ خليفة التليسي :

بعد معركة الطابونية انتقلت القوات الايطالية الى وادي الخيل الذي وصلته يوم 12 مارس 1924م وذلك لتأمين الحصول على المياه واستيفاء المعلومات عن المواقع التي انتقل اليها المجاهدون من الزنتان بعد معركة الطابونية، وقد فوجئ العدو بهجوم شنه الزنتان الذين خاضوا ضده معركة الطابونية التي سلبت فيها مواشيهم، وتقدر هذه الحملة بحوالي ستمائة مسلح استشهد منهم ستون، بعد ان كبدوا قوات العدو خسائر فادحة، وعادوا الى مواقعهم في الطابونية ولجأت القوات الايطالية الى إستخدام الطائرات في رميهم بالقنابل، وكما قامت بالقاء الغازات السامة في محاولة شرسة دنيئة لانهاء المقاومة التي رفع الزنتان لواءها في هذه المنطقة.

وقامت الطائرات الايطالية بعدة غارات على تجمعات المجاهدين في الطابونية يوم 15 يونيو 1924م[2]

---

(1) كتاب القبلة، بيلاردينيللي.
(2) معجم معارك الجهاد في ليبيا، التليسي.

وتجدر الاشارة هنا الى ان الغازات السامة والقنابل الفتاكة التي تلقى من الطائرات قد استخدمت ضد المجاهدين في هذه المعركة دون ان يكونوا قد خبروها فيما سبق، وعن هذا السلاح واستخدامه يقول ايريك ساليرنو ما يلي :

لقد شكلت ليبيا بالنسبة لسلاح الطيران الايطالي ما شكلته مدينة غيرنيكا الاسبانية فيما بعد بالنسبة للسلاح الجوي الالماني، اي عبارة عن حقل تجارب عملي لاختبار احدث التقنيات الحربية وذلك تمهيدا لفتوحات اخرى، وان الادلة على صحة هذا الزعم متوفرة بدور المحفوظات الايطالية ولكن لجنة توثيق اعمال ايطاليا في القارة الافريقية قد تعمدت تجاهل تلك الادلة كليا، فبسلاحها الجوي قد تمكنت ايطاليا من ضرب بعض الارقام القياسية في البلاد الليبية اذ شهد العالم للمرة الاولى استخدام الطائرات والمناطيد في الاغراض الحربية ولاول مرة ايضا حلقت طائرة ليلاً في مهمة حربية، وتحت العناوين العريضة الشاغلة لصفحات من الجرائد اليومية التي تورد اول قوائم اسماء الضحايا الطليان في معركة شارع الشط نشرت جريدة (الماسادجيرو) صورة تمثل وجوه خمسة طيارين عسكرين كانوا وصلوا طرابلس وقد جاء في هذه الصحيفة انه (قد ارتجل اعداد مطار باتخاذ حقل من البرسيم الذي يزرع عادة بضواحي طرابلس قرب الساحل لغرض علف الماشية، لا يبعد الا مسافة قليلة من المقبرة اليهودية بباب جديد) ثم اوردت الجريدة نفسها النبذة الرومانسية التالية :

وبنصب خيام خضر الواحدة تلو الاخرى قد انشئت حظائر لايواء الطائرات والمناطيد وكانت هذه الحظائر اشبه بسرادقات هائلة لاستقبال واستضافة زمرة أنيقة من المصطافين على شاطئ البحر.

ان الطائرات كانت صغيرة وفي بداية مرحلة التعود على الطيران حيث انها كانت لا تزال غير قادرة الا على حمل عدد متواضع من القنابل وان مداهمة خطوط القتال العربية او التركية كانت تبدو ناجعة ومفيدة على المستوى النفساني اكثر منها على المستوى المادي فالسنوات الاولى من الحرب كانت اذن فترة تجربة واختبار بالنسبة لهذا السلاح الجديد، وانها كانت في الواقع مرحلة صقل مفيدة للآلات وللرجال على حد سواء اذ كان من شأنها ان افسحت المجال والوقت امام تطوير اسلحة اكثر فتكاً وتقنيات اكثر دقة في القصف، وبعد خمس او ست سنين

من نشوب الحرب الليبية قد نجم عن تعاقب احداثها وتقلبها ادخال طائرات جديدة اكبر حجما واكثر كفاءة تقنية في اداء المهمة الحربية المناطة بها بحيث صارت تتخذ العمليات الحربية اشكالا مختلفة ففيما بين شهري مايو واغسطس من عام 1917م مثلا، قد انجزت في اقليم طرابلس زهاء المئة عملية هجومية القيت فيها القنابل الحارقة على حقول الشعير التابعة للمجاهدين وقصفت بالمدافع الرشاشة.

وقد سبقت الاغارة في شهر أبريل على محلات المجاهدين الواقعة باطراف جنزور والزاوية حيث تم قذف (1270) كيلوغرام من القنابل الحارقة بالاضافة الى (3600) كيلوغرام من القنابل شديدة الانفجار، ومنذ ذلك الوقت ظلت سياسة ايطاليا ازاء المجاهدين الليبيين هي سياسة (الارض المحروقة) اذ بتدمير حقول الشعير كان يرغم المسلحون وغير المسلحين من هؤلاء القوم على هجر القتال وعلى التشرد والتشتت والاتجاه نحو مناطق ربما سهل فيها اخضاعهم، ولكن مع تردي الموقف السياسي والعسكري اضطرت السلطات الايطالية الى الاعتراف بالصعوبات المتزايدة التي كانت تمنع التشكيلات الطليانية من السيطرة على الاهالي، فاخذت تضاعف حدة النشاط القتالي وبخاصة الغارات الجوية وإبتداء من سنة 1924م حتى سنة 1926م كانت تصدر الاوامر الى السلاح الجوي بالقاء القنابل على ما كان يشاهد متحركا في الواحات غير الخاضعة للسيطرة الايطالية، وبات الامر ليس مقاتلة قوات مسلحة نظامية اخرى او مجرد عصابات متمردة وانما كان عمليات قصف عشوائية ضد السكان المدنيين بهدف بعث الرعب في نفوسهم ولمحاولة فصلهم عن المناضلين.

ان نشرة الاخبار السياسية التي ارسلها اللواء (مومبيلي) الى حكومة طرابلس بتاريخ 26 فبراير 1924م لا تتضمن الا اشارة عابرة الى احدى تلك العمليات اذ يقول هذا الضابط السامي:

قامت طائرات من نوع (كابروني) باستكشاف منطقةوادي الفارغ حتى بئر ابي جدارية وبعد ان تبينت بحوش المطر مخيما كبيرا مكونا من حوالي ماية خيمة مخروطية ومستطيلة الشكل اغارت عليها وقصفتها بالقنابل اسوة بقصف منطقة ساونو. اما نتيجة القصف فكان اثرها البالغ ماديا على قرابة سبعين خيمة

مخروطية وعلى عدد كبير من المواشي التي كانت تسرح وترعى، كما قذفت مرارا وتكرارا بقنابلها نجعا على مسافة كيلومترين الى الشرق من بئر القرنيبة[1] قد ورد ذكره في النشرة السابقة وقصف ايضا جموعا من المسلحين بعد اكتشافهم بمنطقة زاوية القرين والقطفية والطمبية[2] وهم يحرثون الارض، فلا حاجة بنا للتعليق على هذا البيان المقتضب غير ان (مومبيلي) ذاته بعث يوم 17 مايو 1926م الى وزارة المستعمرات بتقرير مطول شرح فيه كيف ان القوات التي كانت تحت امرته تورطت في تحقيق سلسلة من الاغراض نحو (الحيلولة دون قيام المجاهدين بحصاد محصول الشعير وتدمير حقول مزروعة بالجبل الجنوبي) وحتى هذا التقرير لم يخل من الصور الوصفية اذ جاء فيه :

لقد انجز السلاح الجوي بشكل جيد جدا مهمة الاتصال حيث انه دل فصائلنا العاملة على بعض الاهداف وقام بعمليات قصف بالقنابل، وهكذا في صبيحة يوم 7 قامت طائرة كابروني من مطار سوسه وقصفت بقنابلها قطعانا من الماشية على وادي القريحات واسقطت قنابل حارقة على محاصيل الغلال. ويضيف: ولقد رد المجاهدون على النار بالمثل مصيبين الطائرات مرارا وتكرارا وفي صباح اليوم التالي قامت طائرات من المرج بقصف بعض النجوع، وفي هذه المرة ايضا اصاب عيار احدى طائراتنا وفي اليوم التاسع صباحا غادرت سوسه طائرة كابروني وقامت بالقاء قنابلها على بعض النجوع والمواشي، وفي اثناء التحليق شوهدت حرائق هائلة مشتعلة في محاصيل الغلال قامت فصائلنا باحداثها، كما جمع المراقبون معلومات عن حقول مزروعة لم ينلها بأسنا بعد وسوف تكون من اهداف عمليات قادمة.

وكان من شأن سياسة الارض المحروقة اي سياسة الرعب ان دفعت آلاف الرجال والنساء والاطفال الى مغادرة التراب الليبي فمنهم من اتجهوا الى تونس والجزائر ومنهم من نحوا نحو تشاد او مصر اما الموتى والجرحى فكانت اعدادهم تفوق الحصر.

(2,1) الآبار والمناطق الوارد ذكرها هنا غير معروفة وهي كذلك غير مبينة في الخرائط التي راجعناها، ومن المعلوم ان جميع مناطق الصحراء الليبية مبينة، ربما خطأ في الأسماء.

وفي مكان آخر يقول :

وبتاريخ 6 يناير 1928م بعث (دي بوتو) الي وزارة المستعمرات بالتقرير المقتضب التالي :

263 اوب، الادارة الحكومية ز سري.

احدث اخبار اليوم: تتواصل مسيرات فصائلنا بانتظام، قامت صباح اليوم. كما هو مقرر، اربع طائرات كابروني وثلاث اخرى من نوع روميو بقصف واحة جيفه الى حد التدمير الظاهر للعيان وقد توغلت طائرات كابروني الاربع نحو سبعين كيلومترا جنوبي النوفلية وأصابت حوالي اربعمائة خيمة بقنابلها المتفجرة وبقنابل الغاز السام وكانت الطائرات هدفا لطلقات بنادق المجاهدين وانما عادت جميعها سالمة الى قاعدة سرت قبل الساعة الحادية عشرة، ولقد تم الاتصال فيما بعد بين الفصائل الثلاث، وفي تفاصيل أكثر غرابة ومدعاة للتعجب من تصرف هؤلاء المتحضرين تجاه شعب صغير اعزل لا ذنب له إلا كونه لم يرضخ للاستعمار ولم يقبل القهر ولا باع نفسه للاجنبي، يقول :

لقد كلف سرب يتألف من ثماني طائرات بالتوجه نحو اجواء جيفه، وهي موقع غير مثبت بالخرائط التي كانت عندنا والتي لم تكن سوى رسومات مخططه كان الاعتماد في اعدادها على المعلومات المستقاة من السكان المحليين، الا ان المكان يكتسي شيئا من الاهمية علما بانه عبارة عن تجويف واسع تكسوه المراعي ويزخر بمصادر المياه وخلو من النخيل والبيوت، انه مجرد نقطة في وسط الصحراء، كان العثور على هذا الموقع بفضل تحليق الطيارين على ارتفاع بضعة امتار من سطح الارض بحيث استطاعوا مجاراة مسارب الهاربين ومسالك الشاردين حتى وجدوا طائراتهم محلقة، في خاتمة المطاف، فوق حشود من البشر تبدو عليهم علامات القلق والحيرة، رجالا ونساء مع قطعان من الابل والغنم كانوا يموجون في اضطراب لا يشاهد الا في الجماهير التي ينتابها كابوس كارثة عظيمة، انها كانت حشودا متراصة ليس لها شكل، مثل الرعب والفزع واليأس، ممن سقطوا فرائس لها، فامطروا بوابل من الحديد والنار عقابا كانوا له مستحقين.

وحين استنفدت القنابل ازدادت الطائرات انخفاضا بغية اختبار مدافعها الرشاشة التي كانت عند حسن الظن بها تماما، ولا احد من الطيارين كان يرضى بان يكون اول من يغادر المنطقة اذ راق لكل منهم الاستمرار في ذلك الصنف الجديد من اللعب المسلي جدا، ولما عدنا في نهاية الامر الى سرت احتفلنا بدخولنا لاول مرة في القتال حيث احتسينا قوارير عديدة من نبيذ الشمبانيا ريثما كانت تهيأ الطائرات للقيام بجولة اخرى.

كان القيام بشتى المهام عن طريق المناوبة اذ كان يطير بعضنا في رحلات استكشافية آخذين معهم قدرا صغيرا من القنابل لتقديمها كهدية اولى الى من كان يكتشف امرهم من المجاهدين على ان توفى البقية الباقية لهم بعد سويعات، وان المنطقة المحصورة ما بين الماكينه والنوفلية والجيفة كانت جميع ارجائها آهلة ببنات آوى التي كانت لحسن حظها (تجد ولائم وفيرة لسد رمقها)

ان كل صفحة من صفحات ذلك الكتاب جاءت مشبعة بمشاعر العنصرية التي ورطت اذ ذاك، على ما يبدو، الجميع، فعين الكتاب ليس مجرد سرد لتجارب عسكرية شنيعة اسوة بكل مغامرة حربية وانما هو امتداح للعنف الفاشيستي، الذي كان كثيرا ما ينكره النظام، نفسه، في حق قوم كان يعتبرهم المؤلف (بياني) كسواه من العسكريين والساسه، امة منحطة، ان كتاب اجنحة فوق الصحراء، يعد بشكل ما عملا صادقا اشاد باسرار معينة كاستعمال الغاز السام فارتكب بذلك كاتبه نوعا من الخيانة العظمى، وجاء في الكتاب كذلك :

كانت تحتنا جموع مضطربة من الناس الفارين في كل الاتجاهات بحثا عن ملاذ دون جدوى لان الارض من تحت اقدامهم قد انقلبت في برهة وجيزة الى حقل من الالغام التي عملت على تفجيرها قوة خفية مجنونة مدمرة.

كانت تشاهد القنابل وهي تنفصل عن أبدان الطائرات، كانت القنابل الصغيرة منها ذات الكيلوغرامين تلقى في مجموعات واما الاخرى الاثقل وزنا ذات الاثني عشر كيلوغراما فكانت تقذف فرادى وكانت تهبط متدحرجة في غير انتظام الى ان تبلغ توازن مسار قذفها ثم تنزل كالسهام على الاجسام البشرية وحشود الخيام، وذلك بدقة كانت تبدو القنابل معها كأنها تساير جاذبية الاهداف، وبعد

التقاطها لروعة المشهد استأنفت عيون الطيارين احداق النظر بتفحص فاتر حينما كان يستدعي الامر توجيه الطائرة صوب قلب حشود الاعداء.

لقد سويت الارض بصف كامل من الخيم التي اختلطت أجزاؤها الممزقة بقطع من اللحم البشري على التربة الملطخة بالدماء، وهذا قطيع من الابل أصيب في الصميم فاخذت الجمال تتساقط من حافة جرف فهوى الواحد تلو الآخر فيه، ومن تلك الكتلة الشوهاء التي كانت ما تزال تضطرب وتلتوي لفجأة الاصابة وسرعة الاحتضار، قد تدفق نهر من الدماء وسال حتى غمر قاع الوادي مثلما يحدث عند انبجاس الماء بغتة من احدى العيون[1] .

ويستمر الكاتب في سرد الفظائع التي يفتخر بها أبناء روما!!! كأنما هذه الاعمال الوحشية هي انفجارات حضارية باهرة، ونحن لا نملك الا وضع هذه الكلمات المختصرة من تقرير طويل يبين اعمال اولئك الغزاة، أصحاب الحضارة وحقوق الانسان.!!!

نضعها أمام عيني القارئ ليرى كم هي فظائع الايطاليين في بلادنا، وكم كانت تضحيات أهلنا الذين ناضلوا ضد البطش، وجحافل الجيوش الجرارة لعشرين سنة كاملة دون كلل او ملل او طلب رحمة، ولم يكن هناك من عون او مساعدة مادية او اعلامية او حتى سياسية. كانت حرب جهاد في سبيل الله والوطن.

وينتهي التقرير الكتاب في شأن استخدام الطائرات في الحرب الليبية الى القول:

ولقد انقضى وقت طويل على عام 1911م النائي البعيد حينما حط الطيارون الطليان الاوائل على الارض الليبية كطليعة سلاح قدر له ان يكتسب ويشهد بمرور السنين مزيداً من الصقل والتطوير، ووفقا لما تثبته المصادر الرسمية، قام السلاح الجوي، من نوفمبر 1929م حتى العمليات الاخيرة في عام 1930م قام بألف وستماية وخمس ساعات من الطيران الحربي القى خلالها

(1) كتاب حرب الإبادة في ليبيا - ترجمة علي الصادق.

(435000) طن من القنابل، وأطلق عشرة آلاف من عيارات الرشاشات، الا ان المصادر المشار اليها نفسها لم تبين كم طنا كان وزن القنابل المشحونة بغاز البيريت.

وتاالله من جبان انتصر، هي الحقيقة بعينها، ذلك ان تفاخر هؤلاء الناس لا يدل الا على الجبن، ولكن أهلنا قد آمنوا بالله واليوم الاخر، وصدق ابن زهير حين قال :

من هاب أسباب المنية يلقها ولو رام أسباب السماء بسلم

وبعد معركة وادي الخيل الشهيرة نأتي الى معركة بئر تارسين، وهي واحدة من الملاحم الكثيرة التي سجلها تاريخ نضالنا الوطني بحروف من نور، فقد جرت معركة تارسين في يوم 26 مايو 1925م، ولقد هاجم المجاهدون اعوان الايطاليين الذين كانوا معسكرين في منطقة البئر، ودارت معركة عنيفة قتل فيها وجرح أغلب الضباط الايطاليين، وكان أغلب المجندين من الاهالي اي (المواطنين الليبيين) وقد لحق بهم ايضا خسائر كبيرة، اذ قتل منهم حوالي مائة وخمسين مجندا، ويذكر الاستاذ التليسي ما يلي:

بئر تارسين، موقع على بعد مئة كيلومتر جنوبي غريان، كانت ترابط في هذا الموقع قوة من المجندين العاملين في سلك الجيش الايطالي بدعوى حماية حصاد الشعير والقمح في المنطقة، وقد تعرضت هذه القوة المكونة في أغلبها من عناصر محلية الى هجوم عنيف شنه المجاهدون عليها يوم 26 مايو 1925م وإستمرت المعركة 13 ساعة تعرضت فيها هذه الحامية لخسائر فادحة اذ تساقط أكثر ضباطها الايطاليين بين قتلى وجرحى، وقتل وجرح في هذه المعركة الحامية عدد يتراوح بين 120 الى 150 شخصاً[1] .

وكانت معركة القريات الشرقية هي الاخرى حاسمة اذ انها واحدة من المواقع الهامة في ولوج منطقة القبلة او فتح ثغرة في الدخول اليها، وهكذا فقد استخدمت السلطات الايطالية قوات ضخمة في هذه المعركة وهاجمت المجاهدين

(1) معجم معارك الجهاد الليبي، التليسي.

بوحشية في كل موقع رغبة منها في كسر واحدة من الحلقات التي كانت تراها ربما ضعيفة وقابلة للكسر ويذكر غراتزياني عن هذه المعركة ما يلي :

ان مراحل الطريق ما تزال غير مضمونة وهي تشير بعدم المغامرة في الزج بمجموعات صغيرة من الجيش ولذا فقد اسندت مهمة النقل الى الطيران.

وقد اسقط المجاهدون طائرة ايطالية في بئر جعفر يقودها الكابتن (ماتزيني) ويذكر ان مهمات الطيران في تلك المرحلة كانت على الوجه التالي :

450 ساعة طيران

140 رحلة استطلاع

35 غارة حربية

15000 كيلو غرام من المواد المتفجرة

3500 من خراطيش الرشاشات

18 رحلة نقل جوي

220 ضابط وجندي نقلوا جوا

2500 كيلو غرام كان وزن المعدات المنقولة جوا

28 جريحا ومريضا نقلوا جوا[1].

ولا نعتقد انه يمكن لاي جهد عادي يقوم به عدد من الناس الذين لا يملكون الا اسلحة تقليدية قديمة يمكن ان يواجه هذه القوات والاجهزة والاسلحة، ولكن الحقيقة تنهض شاهدا على ان المجاهدين الليبيين في هذه المعركة وغيرها يواجهون الايطاليين، بل ويلحقون بهم الخسائر والهزائم، وهذه المعدات والطيران والقوات التي اوردنا بيانها كانت لمواجهة عدد قليل من المجاهدين في واحدة من المعارك، وهؤلاء الذين يقاتلون الجيش الايطالي لم يروا في حياتهم طائرات، ليس طائرات القتال فحسب وانما اي نوع من الطائرات قبلئذ، ولا يوجد لديهم ما يقيهم من الغازات السامة التي استعملها جيش غراتزياني، ومع كل ذلك قاتلوا بشجاعة نادرة ولمدد طويلة في كل موقع من أرضنا الطيبة، بل واسقطوا واحدة او أكثر من

(1) نحو فزان، غراتزياني.

تلك الاجسام الطائرة ببنادق بدائية بسيطة، والقريات كما هو معروف تقع قرب مزده، اي على نفس الطريق في اتجاه الجنوب.

وتأتي معركة بئر علاق بعد معركة القريات ذلك ان الموقع ايضا يمثل نافذة على القبلة ولا بد للقوات الايطالية من سد كل الابواب والنوافذ والسقوف (اذ انها استخدمت الطائرات) من خلف وامام المجاهدين لكي تحتل موقع قدم في (غرفة الانفجار) بحيث لا ينفجر الوضع مرات اخرى في الجبل والجنوب والوسط والشرق، ولقد تأكد للايطاليين ان عمليات الجهاد الليبي متصلة الحلقات رغم عدم توفر وسائل المواصلات والاتصالات لدى هؤلاء المجاهدين، وربما كانت عناية الله هي التي تحرك كل نشاطاتهم لانهم شديدو الايمان بالعمل الذي يموتون من أجله.

وبئر علاق يقع بين الجبل الغربي والحمادة الحمراء جنوبي جادو، وقد هاجم المجاهدون القوات الايطالية يوم 9 أبريل 1929م في منطقة بئر علاق، ولقد تمكنوا من تطويق القوات التي كانت تعسكر في ذلك الموقع، وكان هجومهم مفاجئا بحيث تمكنوا من تطبيق الحلقة حول تلك القوات، وعلى الرغم من انها لم تكن قوات كبيرة الا انها فقدت أكثر من نصف جنودها وفر الباقي من الموقع تاركين معداتهم التي غنمها المجاهدون، وربما أراد المجاهدون بالهجوم المفاجئ هذا إشعار الايطاليين باستعداداتهم للمعارك القادمة، خصوصا انها جاءت مباشرة بعد مؤتمر عقده المجاهدون للتنسيق فيما بينهم في الشاطئ والقبلة والنوفلية.

هذه المعارك التي كانت تمثل نقاط ارتكاز للوثوب على القبلة كما أرادها الايطاليون سردناها لنصل الى الساحة الرئيسية، أي (غرفة الانفجار)، انها القبلة، وربما يكون مفيدا ان ننقل للقارئ الكريم بعض المعلومات عن الحياة في القبلة، هذا الاسم الذي لم يختف طيلة فترة الجهاد الليبي، والارض التي لم تستقر عليها اقدام ايطالي واحد طيلة تسع عشرة سنة كاملة، وربما لم تستقر ابدا رغم تغلب القوة الايطالية الغازية على المجاهدين الليبيين بعد تلك الفترة.

يقول (أ - بيلاردينيللي) عن الارض والناس ما يلي :

الوعسه والحمادة الحمراء غربا، ومزده والقريات والشويرف شرقا.

الوعسه، ارض ناعمة لكنها قاحلة في معظمها، منطقة رعوية بحتة، تحيط بها مرتفعات رأس الحصان جنوبي جادو، وأعالي سوفجين، وسانية ذويب (وهي بئر حمل اسم ولي الزنتان، سيدي ذويب) وجبل المشرق (جبل الجهف) ووادي فيصل (وهذا هو الاسم الذي يطلق على قسم سوف الجين عند مروره على بضعة كيلومترات غربي مزده) وجراحة الطريق، وبئر القريزية، وودي الخيل، وبئر علاق، وبئر تلاشين.

الحمادة الحمراء، هي بقاع مترامية الاطراف موحشة، كثيرا ما وصفها الرحالة بأبشع النعوت، وعلى انها صحراء مرعبة، لا تقاس احوالها بأقسى الصحاري وحشة، انها بقعة من الكرة الارضية انقلبت الى جثة هامدة قبل الاوان.

وتمتد هذه البقاع الصخرية القاحلة الخالية من الماء ومن الحياة والتي تبدأ من الخط الطولي 31 تقريبا وتمتد جنوبا لمسافة تزيد على مائتي كيلومتر، بمعدل عرض (من الشرق الى الغرب) 500 كيلومترا مربعا وتبلغ مساحتها 70000 كيلومترا مربعا وحوالي 90000 كيلومترا حسب تقدير الرحالة (ريكلوس).

هذا ومن الصعب تعيين حدودها على وجه الدقة ويمكن للمرء ان يتصورها على انها في هيئة مربع غير منتظم الاضلاع زواياه (سيناون، الطابونية، عوينات ونين، حاسي،افطارس) مع امتدادين احدهما في الجنوب يصل الى الشاطئ الغربي، والثاني الى الناحية الجنوبية الغربية نحو الحدود التونسية حيث تتصل بحمادة (تين غيرت) والى الشمال يمتد من طرف الحمادة الحمراء على هيئة اسفين بين سواني فساطو وبئر الجعفري الى ان يصل الى مسافة 40 كيلومترا جنوب مزده.

أما السكان المحليون فيضعون حدودها كالتالي :

المنطقة ما بين بئر حرين، العقبة، سانية الرِجل (بكسر الراء) بئر علاق، ودي الخيل، بئر القريزية، أم الفصل، بئر الخرب، بئر الطابونية، بئر أم المرافق، الخط الطولي، الطابونية، ادري الحد الشمالي للشاطئ الغربي، عوينات ونين، البئر المر، عين أزرار، الدرج، سيناون، فالحمادة الحمراءبمجاهيلها المتربصة بالقوافل وما تكتنفه من خبايا وفخاخ تنتظر كل متهور ومغامر يتحداها فتفتك به، ظلت دائما في الماضي ميدان تناحر وغزوات شرسة ضارية بين القبائل المتاخمة لها، التي كانت

تنقض على القوافل المسالمة التي تعبرها لاقتصار الطريق بين فزان والساحل، أضف الى ذلك ان المشاهدة العجيبة الناتجة عن السراب كثيرا ما اغرت عابري السبيل وقادتهم الى الموت الفظيع، والوسيلة الوحيدة التي توفرها الحمادة للتعيش هي الشريط الضيق الذي على أطرافها ولا يتعدى عمق 30-40 كيلومترا عندما تحوله الامطار الى بساط أخضر رهيف، عندها ينتعش هذا الشريط فيصبح مرعى للابل وأسراب الغزلان والثيران البرية وينمو (الترفاس) (نوع من الفطريات التي تشبه الكمأه الابيض والاحمر) الذي يتهافت عليه الاهالي في تلك المناطق[1] وعدا هذا الشريط، الوحشة والقحط، لا عين للماء، لا أثر للحياة، بعض النبات الشوكي هنا وهناك لكسر رتابة مشهد الارض جدباء صخرية موحشة، فالعرب يقولون بعد الحمادة يبدأ السرير، إشارة الى ان بعد هذه الارض التي ما زال فيها الرجاء يأتي السرير المخيف والصحراء الرهيبة[2] .

لقد قدمنا هذه اللمحة عن صحراء القبلة ليتصور القارئ كم كان يعاني اهلنا من شظف العيش، فلقد عاشوا في هذه الصحراء القاحلة التي لا عين فيها للماء ولا حتى قطرة ندى قرابة عقد من الزمان، يكافحون ضد الطبيعة القاسية وضد العدو الغاشم، كانوا يعيشون رحلا بحثا عن الماء والمرعى ومع ذلك تطاردهم طائرات الايطاليين لتقصفهم بالغازات السامة والقنابل الحارقة، ومع كل ذلك، مع وحشة الصحراء وقسوة الطبيعة وكل انواع القتل والدمار الذي قام به الايطاليون، لم يستسلموا ولم يكفروا بل كانوا على قناعة بانهم ان ماتوا فهم شهداء وان عاشوا اعزاء، هكذا هي الحال ولننظر ماذا يقول (بيلارديناللي) عن هؤلاء الناس.

ان الانسان العربي ابن البدو هو رجل الصحراء الصميم الذي يعكس، أكثر من اي انسان آخر متنقل، حياة إنسان المساحات الشاسعة، المتوحشة والمتقشفة، ويتضح ذلك جليا من خلال حركاته، وعاداته وتقاليده، ففي كل تصرفاته وعقليته،او طريقة تفكيره وحتى كلامه، باختصار هو صورة حية لهذه البيئة القاسية المتقلبة.

(1) حقيقة الأمر أن الترفاس هو الكمأه ويتوفر على 16 نوع من الفيتامينات.
(2) كتاب القبلة، العقيد أ . بيلارديناللي، مارس 1935م.

فهو يتحدر من جنس ترسخت فيه، نتيجة مبدأ البقاء للاصلح، على مر احقاب واحقاب من الزمن، جميع الخصائص والصفات التي تمكنه من العيش في اقسى الظروف، من حيث عناء المعيشة وقساوة العوامل الجوية، فطبيعته مشحونة بالمتناقضات الغريبة التي تتسم بنفس الرتابة التي تتميز بها الارض القاسية يجر حياته من خلالها جرا. فهو يتمتع شأنه في ذلك شأن ارضه وبيئته بحيوية متقده، وقلبه ينبض بطاقات كامنة فائقة، تجعله ينزع الى العدوان والحركة الدائبة وتغلب عليه العصبية والتزمت الديني، ولا حماس لديه للعمل حتى القليل منه تحذوه روح استقلالية قوية، والاعتزاز بقوته ووسائله، حتى انه يشعر بالاطمئنان من هذه الناحية.

فهو ولد ونما وترعرع في الصحراء، وجُبل على العيش في كنف متطلباتها وظروفها التي لا ترحم، وبالتالي فهو يعكس جميع فضائلها في التجدد المستمر وكذلك جميع ما ينشأ عنها من عواقب اخلاقية واجتماعية، فالهواء الذي يستنشقه جاف ونقي ورفيع ومهيج في ذات الوقت وكذلك عوده ناشف سليم عصى، لا يلين ولا ينهك، كما هي الصحراء محرقة في حرارة الصيف الطويل، وكذلك، رهيبة هي عواصفها الهوجاء، كذلك هو انسان هذه الصحراء العربي دمه متقد كالبركان، على وشك الانفجار في اية لحظة وبمنتهى العنف، وكما هي بخيله وقاحلة الارض التي تستضيفه فكذلك ساكنها، بسيط قنوع قليل الطلبات، وهذه الخصائص التي تظهر بمنتهى الجلاء في رحل قبلتنا تلاحظ ايضا ولو بصورة محدودةعلى المستقرين .

ان الحياة القاسية التي يعيشونها والتي تتسم بالفاقة والحرمان من اقل متطلبات العيش وسط البؤس والالام، والأخطار المحدقة بهم على الدوام، والصراع المرير الذي لا ينقطع ليس فقط مع نوائب الزمان وجحود الطبيعة واهوالها، بل ايضا وفي اغلب الاحيان ضد جشع البشر وشرورهم، ترسم على ملامح البدوي المرتحل باستمرار شبح الم مكبوت وظلاله، مما مهر وجهه بتجاعيد عميقة منذ زهرة شبابه، ومع ذلك تتقد عيناه ببريق حاد نفاذ فلا تتوقفان لحظة عن الاشعاع، الخ.

ونأتي هنا الى معارك القبلة وتلك التضحيات الجسام التي قدمها اجدادنا وآباؤنا في سبيل الوطن والحرية، على اننا نود ان نؤكد مرة اخرى ان غرضنا من الحديث عن معارك القبلة هو التركيز على حقيقة معارك الدفاع عن الجبل الغربي، باعتبار ان معارك الجهاد كانت متصلة في ليبيا كلها، ولكن معارك الجبل الغربي والقبلة وفزان كانت مترابطة فلو سقطت القبلة منذ البداية، اي عندما احتل الايطاليون يفرن وغريان في الجبل الغربي لكان هؤلاء الغزاة قد سيطروا تماما في تلك الفترة ومباشرة على غرب وجنوب ليبيا بالكامل وما كان يمكن ان تسقط (القاهرة في سبها) وان تحدث الثورة في الجنوب ويتم طرد الايطاليين من هناك، ولكان الكولونيل (مياني) قد تمركز بشكل ربما نهائي في مرزق، ونظرا لهذه الاحداث صار من اللازم التركيز على معارك القبلة. اما ارتباطها مباشرة بمعارك الجبل الغربي فقد اكده كل القادة الايطاليين الذين كتبوا عن فترتي الحرب الليبية الايطالية، وهذا ما قاله العقيد (بيلاردينيللي) في الخصوص :

بعد اختفاء سيف النصر من الميدان واسر غومه واعتقاله في القسطنطينية اعترف اهالي فزان والقبلة بالسلطة في طرابلس، واوفد لتولي الحكم في فزان شخص يدعى (بشير) الذي حل محله فيما بعد حسن العزي (قاهر عبد الجليل) الذي رقي الي رتبة (الباشا) وبالنسبة لمناطق غريان ويفرن والريابنه فارسلت اليها قوات نظامية لترابط عليها، وظلت خارجة عن النفوذ التركي مناطق الجبل الغربي (اراضي الزنتان ونالوت) والقبلة المترامية الاطراف والتي ما زال اهاليها الاباة القويوّ الشكيمة يتمتعون برهبة لدى الاتراك.

في ظل تلك الفترة، وبعد معركة (بزر زيتون) عاد مقاتلو القبلة مع رئيسهم بو سيف عبد الرحمن (احمر اللحية) الى مكان اقامتهم الاصلية للعيش في هناء وسكينة ولاصلاح امورهم من الاضرار التي لحقت بهم من جراء الحروب التي خاضوها مؤخرا. استغل ذلك والي طرابلس، محمد امين باشا ليحاول اخضاع قبائل القبلة الرحل حالما استتبت سيطرة الحكومة على الجبل االغربي (1824م – 1847م) الا ان ما حدث في العام التالي (1843م) من اشتعال الفتنة بين فنطرار ومزده التي امتدت لتورط مؤيدي الجانبين كان يتهدد باثارة عاصفة هوجاء،

وبعدها بقليل (1848م) اندلع العصيان في الجبل بتحريض وتشجيع احد اعوان غومه، وهو شخص يدعى ميلود الشقروني، وكلها عوامل حملت الوالي على العدول عن هذه الفكرة، فتوقفت كل محاولاته التي ترمي الي اخضاع اهالي القبلة.

وسبقت الاشارة الى ان محمد بن علي السنوسي (مؤسس الطريقة السنوسية والمولود في مستغانم سنة 1202هـ 1787م) الذي لقب فيما بعد (بالكبير) كان قد شرع، من مكان اقامته في الحجاز بمنطقة ابوقبيس، بتأسيس اول زاوية كمركز لنشر مبادئ طريقة دينية جديدة سميت باسمه (الطريقة السنوسية) وسرعان ما اتسع نطاق هذه الطريقة الدينية الجديدة التي كانت اول ما قامت ذات طابع سياسي اقتصادي وامتدت لتشمل جزءا كبيرا من بدو الحجاز، الامر الذي اثار معارضة السلطات التركية وعلماء الدين المحليين حتى اضطر الشيخ محمد بن علي السنوسي الى نقل مركز نشاطه الى مكان آخر،ومن مكه (1839م) انتقل الى برقة (1839م) وهي ارض خصبة للدعوة السنوسية ذلك أنه عبر تلك الأراضي لأول مرة وهو في طريقه الى الاراضي المقدسة كان السنوسي قد اقتنع بسهولة اكتساب تلك القبائل الى جانبه، التي كانت تغط في ظلمات الجهل المطبق ولم يسبق ان تسللت اليها مذاهب وطرق دينية اخرى.

وبعد وصوله عن طريق البر حط رحاله فوق الجبل الاخضر حيث اسس فيما بعد زاوية اخرى اطلق عليها اسم البيضاء.

ومحمد بن علي بعد ان سبقته شهرته وورعه وانه ولي من اولياء الله وصلت الى اطراف الصحراء حيث انتشرت طريقته وتعاليمه وتحمس لها الاهالي الرحل، قام في اعقاب سنة (1841م) بجولة مع رهط من اتباعه في اهم مراكز افريقيا الشمالية، سرت مصراته، زليطن، طرابلس، وكان يستقبل بكل حفاوة واحترام ويعقد علاقات صداقة مع علماء الدين المحليين. ومن طرابلس اراد ان يتوغل بطريقته الى قابس ويمد دعوته الى الجنوب التونسي الا ان تلك الفترة واكبت احتلال الجزائر من قبل فرنسا الامر الذي ارغمه على العدول عن التزامه ذاك، فعاد ادراجه صوب الشرق ليتوقف في طرابلس في ذات الايام التي كان فيها رأسا الاخوين سيف النصر يتدليان من فوق بوابة القلعة على اثر هزيمتهما في القبلة كما سبق ان ذكرنا.

وبعد عودته الى مكه كتب الى عبدالله السني لكي يشرع على الفور في بناء الزوايا الا انه يبدو ان عبدالله السني قد بالغ في تحمسه في الانتقال الى مزده التي لم يكن اهاليها مسالمين بالكامل حتى انه صرخ ليصفهم بهذه العبارة (ان هؤلاء اشد مرارة من الحنظل) تلك الشجرة القرعية المرة المذاق والتي تنبت فطريا وبكثرة في بطون الوديان، وأضاف عبدالله، ولكن عليّ ان اذهب لان هذا هو ما امرني به سيدي، وعند حلوله بمزده حاملا رسائل زعيم السنوسية جمع الاهالي وتلاها عليهم واردفها بخطبة مثيرة من عنده، وهكذا هدأت الخواطر واستقر السلام بين الفريقين المتناحرين بواسطة اقامة زاوية وجامع ملحق بها،وساهم في البناء جميع الاهالي بالمال والعمل.

وبعدها بمدة (1859م) قام احد اتباع السنوسية المتحمسين (الشيخ محمد الازهري الزنتاني) وهو ينتمي لزنتان مزده،قام بتأسيس زاوية اخرى في الطبقة، والزاويتان (هذه الزاوية وزاوية مزده) شكلتا اهم مركزين دينيين في القبلة[1] نريد بهذا السرد ان نؤكد على ان كل من يريد السيطرة على القبلة سواء بالقوة او بالوسائل السلمية كالدعوة الدينية او اثارة العداوات والفتن بين القبائل وبين الزعماء، وهذا يثبت ان القبلة فعلا هي دائما (غرفة الانفجار) في اي عهد، وهي ملجأ الوطنيين الليبيين الذين يناهضون الاستعمار، اي استعمار او سيطرة، وفيما يتعلق بالتقاتل القبلي الذي كانت تثيره قوى اجنبية، هذا مثال آخر.

في خريف سنة 1893م اجتاحت القبلة من جديد موجة من الاضطرابات والقلاقل، وتحركت من سرت محلة مكونة من مقاتلي اولاد بوسيف بقيادة الشيخ احمد بوساق لتنقض بغتة على الملاحات، حيث كانت جماعة من الزنتان يتنقلون بقطعانهم، اندفعوا اليهم بكل حقدهم وبوحشية لا توصف، ذبحوا حتى آخر راعي دون ان يرحموا النساء والاطفال، لينسحب قطاع الطرق هؤلاء محملين بالغنائم الى (بئر تاجمل) حيث كانت بضع عائلات من المقارحة تقيم في هناء وسكينة دون ان تعرف نسبة المرابطين والمشاشي الذين لم يتمكنوا من اللحاق بقومهم في سرت، وعند ظهور بوساق قابله شيخ اولاد بوسيف فرع اولاد سيدي احمد يدعى

(1) كتاب القبلة، بيلاردينيللي، مارس 1935م.

(حسين البدي) ليلومه على المجزرة التي اقترفها مشيرا الى العواقب التي ستعود عليهم بالشر، حتى نصحه في الاخير بالانصراف، ابتسم احمد ابو ساق وودع الشيخ ولكنه بقي في مكانه ولم ينصرف.

وحالما انتشر خبر العدوان الغاشم على (الملاحات) في (تاغرمين) انفجر حنق الزنتان وغمرهم الحزن والالم فاحتشدت جماعة قوية من مقاتليهم وعلى رأسهم علي بالحاج بالقاسم الشنطة، وانضم اليهم نفر من اهل القبيلة كانوا يتجولون باغنامهم مع زعمائهم سالم بن عبد النبي الناكوع الزنتاني ومسغود الغول الزنتاني ومحمد المحروق الزنتاني وانطلاقا من موقعة المذبحة وعبر الطريق التي سلكتها المحلة المعادية وصلوا الى بئر تاجمل حيث كان في انتظارهم احمد بوساق الذي كان يدرك انه لا بد ان يطارد عاجلا ام آجلا ولذلك استعد لمقابلة اعدائه باقامة خط دفاعي قوي انتشر وراءه اتباعه قطاع الطرق، والزنتان الذين كانوا يتوقعون مواجهته في ميدان مفتوح اندهشوا اول الامر، وغلبت عليهم الحيرة والتردد برهة، امام المتاريس المحكمة التي سرعان ما انهال عليهم منها وابل من نيران مقاتلي اولاد بوسيف، الا انهم ما ان استيقظوا من هذه المفاجأة حتى اتخذوا قرارهم على الفور بدافع من حقدهم الجامح أكثر من رغبتهم في الانتقام، انقض فرسان الزنتان على المدافعين انقضاضا هادرا كاسحا زاد من هوله صيحات الحرب المرعبة، اقتحموا الخط بمنتهى العنف ووراءهم المقاتلون الراجلون بشجاعة واقدام عند مستوى شهرتهم، لم يستطع اولاد بوسيف ابداء اي مقاومة لصد هذا السيل الجارف فتراجعوا في غير انتظام ولاذوا بالفرار باقصى سرعة، واحمد بوساق رغم اصابته بجراح تمكن هو الاخر من الفرار والنجاة، ومن لم يتمكن من ذلك قتل شر قتلة، كان عدد القتلى كبيراً وكان من بينهم ابن ابي ساق (بشير) كما لم يفلت من الموت الشيخ (حسين البدي) العجوز الذي لفظ انفاسه الاخيرة وهو يصب لعناته على ذلك المتهور الذي عرض قبيلته لمثل هذه الكارثة[1] .

اوردنا ايضا هذا الجزء من الخصام والتقاتل لا رغبة في اظهار هذه الاحداث المؤسفة التي يتقاتل فيها الاخوة وابناء البلد الواحد، الا اننا اردناها

(1) كتاب القبلة، بيلاردينيللي، مارس 1935م.

تدليلا على ما نقول في شأن الفتن والعداوات التي كانت قائمة والتي يستفيد منها دائما الغازي او المحتل الاجنبي، وكان الجنرال غراتزياني قد اكد على هذه الحقيقة في كتابه (نحو فزان) حقيقة الاستفادة من الفتن والعداوات بين القبائل وكيف انها كانت تصب في جانب مصلحة ايطاليا، وكيف ان زعماء قبائل كان لهم دور مشرف في بداية الجهاد الليبي قد تحولوا الى جانب الغازي الايطالي ليقاتلوا اخوتهم في العروبة والاسلام، فقط لمطامع شخصية وعداوات قبلية على الرغم من ان المطامع لم تتحقق والعداوات لم تبق ولم تدم.

واورد الاستاذ التليسي رواية الاعداد لاحتلال القبلة في المرحلة الثانية من الحرب وكيف كان غراتزياني يعمل على افساد العلاقات بين المجاهدين، فقال :

فرغ الايطاليون من احتلال الجوش ونالوت وجادو بنهاية شهر مايو 1922م وكان من وجهة نظر غراتزياني ان يواصل الزحف الفوري على يفرن وغريان ولكنه اضطر الى ان يؤجل ذلك الى اواخر اكتوبر 1922م، اي خمسة اشهر كاملة لاسباب سياسية وعسكرية تعبر عن بعضها هذه الرسالة الهامة التي بعث بها فولبي الى غراتزياني ليحد من جموحه وليعرض عليه بعض الاوضاع التي كانت خافية عليه، وهي مؤرخة في 2 يوليو 1922م، (اذا كان فصل القيظ وخبرة الماضي لا تشيران بالتريث الحكيم، فمن المؤكد ان امكانية الزحف بقواتك الى يفرن ومنها الى غريان تبدو مغرية، وخاصة اذا اقترنت بمقاومة لا تذكر وصعوبات محلية لا معنى لها) الا انه فوق كل شئ علينا ان نضع في تقديرنا ان مثل هذا الزحف يقتضي اقامة خط جديد للتموين بالنسبة ليفرن عن طريق الزاوية وبئر الغنم وبالنسبة لغريان عن طريق العزيزية وفي نفس الوقت لا يمكن التخفيف من التجهيزات التي تعتمدون عليها في الوقت الحاضر، وذلك اما لضرورة الاحتفاظ بقوات في جبل نفوسه بقصد مواجهة احتمالات عودة فكيني الى الهجوم، واما بسبب السكان المدنيين.

ان مثل هذا المجهود التجهيزي وقوافل الجنود التي تصحبه من شأنه ان يؤدي الى ازمة تنهك تنظيمنا العسكري البسيط الصامد اثناء الصيف دون ان يؤدي النجاح الذي يحقق حل المشكلة كليا.

ان المقاومة السياسية كما تعلم تتركز في ترهونة ومصراته وعلينا ان نترك لهذين المركزين الزمن لكي يضعا في الحسبان ان اقامة العلاقات مع السنوسي في برقة لن تعود عليهم بطائل، وانه انما ينظم اليهم تحقيقا للطموح السياسي ولكنه لا يستطيع ان يقدم اليهم مسلحين ولا ذخيرة وهما الشيئان اللذان تفتقر اليهما ترهونة ومصراته لضمان وجودنا في جبل نفوسه ينبغي حصر فكيني والسني والقبلة بصفة عامة، واترك للزمن ان ينضج ذلك العنصر المفتت الذي ذكرت انه آخذ في الانتشار في قطاعك، ان وضعنا العسكري الممتاز من مصراته البحرية الى جبل نفوسه يسمح لنا بتفتيت وتشتيت قوى المتمردين خلال هذا الموسم القاسي، باستعمال اقل عدد من القوات وستكون الثمر جاهزة للقطاف في اوانها.

ينبغي ان ننفق هذا الوقت في اقناع المتمردين (اي المجاهدين) للتخلص من مثيري الشغب من طراز فرحات وخالد القرقني واقناعهم بعدم جدوى التفاهم مع السنوسي، ومن هذه الرسالة يتبين بشكل واضح العوامل التي اوقفت العمليات العسكرية في الجبل حتى شهر اكتوبر وقد استغل هذه الفترة الكولونيل غراتزياني اسوأ استغلال للاستعداد لحملته القادمة وللانتقام من الاهالي، وخاصة اولئك الذين كان لهم موقف سابق من مقاومة الاحتلال الايطالي وقد اضطرت كثير من القبائل الى مغادرة مواقعها والنزوح الى القبلة كما فعلت قبيلة الزنتان والرجبان، وقام غراتزياني بحملة واسعة لتجريد الاهالي من الاسلحة كما حاول ايجاد رقابة قوية على الحدود التونسية منعا لتهريب الاسلحة ولجوء المجاهدين، وتذكر المصادر الايطالية انه قد تم خلال هذه الفترة اشعال النار واحراق المواقع التي كان يقيم فيها الزنتان، وقام غراتزياني في شهر اغسطس بإجلاء قبائل كاملة بقوة السلاح من قصر الحاج الى جناون بحجة القضاء على احد مراكز الجهاد المهدده لجادو.

وقد استطاع غراتزياني ان يمارس خلال هذه الفترة سلطات مطلقة وان يمارس ويقوم باعمال سياسية تمهيدية قصد من ورائها محاولة تحقيق اثارة الفتنة والاحقاد بين القبائل العربية باستغلال احقادها ومنازعاتها القديمة وذلك كجزء

من الخطة الرامية الى السيطرة على القبلة وقد وجد من ضعف النفوس وفقدان الوعي الوطني ما ساعده في بعض الاحيان على تحقيق مشروعه الجهنمي[1].

ولعله من تحصيل الحاصل القول ان القبلة قد حظيت باكبر قدر من الاهتمام من طرف القادة الايطاليين. وقد جهزوا الحملات العسكرية التي اجتمع فيها الطيران مع الدبابات والاسلحة الاتوماتيكية، ووضعت لها ادق الخطط العسكرية، ولكنها بقيت صامدة برجالها ومثلت حاجزا يحول دون التقدم جنوبا ودون الاستقرار شمالا، ولقد تحدث عن تلك المقاومة والصمود (فولبي ودي اقوستيني وبيلاردينيللي وغراتزياني وغيرهم) قالوا عن المجاهدين انهم عصاة وقطاع طرق، وابطال ومجاهدون الخ، الا انهم جميعا اعترفوا باستعصاء القبلة وعدم القدرة على احتلالها، وحتى قبل انتهاد الحرب في الوقت الذي تكثفت فيه الجهود العسكرية الايطالية، نجد ان الثوار في القبلة كانوا يهاجمون القوات الايطالية ويلحقون بها الخسائر الفادحة ولم تنته الحرب ضد ايطاليا في ليبيا الا بعد ان نضب كل عون بالنسبة للمجاهدين، فقد انتهى ما في اليد (وكان قليلا) واقفرت الارض وهي اصلا قفار في القبلة، وخارت القوى ليس يأسا وانما اجهادا من طول التنقل والقتال والعمل (فقد كانوا يقاتلون ويحصدون الزرع ويرعون الغنم ويتنقلون ليلا ونهارا، يعيشون على حبات تمر وقليل من الماء، وكلها يصعب الحصول عليها) ويذكر ان بادوليو خلال سنة 1929م عندما عين حاكما عاما على ليبيا، وجه فور وصوله منشورا الى المجاهدين يدعوهم فيه الى الاستسلام وانهاء المقاومة ولكن هذه الدعوة لم تجد صدى لدى هؤلاء المجاهدين الذين استمروا ملتزمين بالجهاد ومقاومة الاحتلال، وكان قادة الجهاد في طرابلس الغرب قد انتقلوا وتركزوا في القبلة والجنوب، وانتشرت تجمعاتهم بين (زويله وام الارانب وسبها والشاطئ الشرقي ومرزق وبين الشويرف وابي نجيم والقريات).

وقام المجاهدون يوم (9 أبريل 1929) بشن هجوم عنيف على الحامية الايطالية في بئر علاق وتخوف الايطاليون من نتائج هذا الهجوم فعملوا على دعم قواتهم بالمناطق الجبلية المجاورة، كما قاموا بعمليتين واسعتين، الاولى خلال الفترة

(1) كتاب بعد القرضابية، خليفة التليسي، ص 110.

(12 أبريل الى 24 أبريل 1929م) اما الثانية فقد جرت في المنطقة الواقعة بين هون وابي نجيم وبئر الشريرف (من 2 مايو الى 28 مايو 1929م)[1].

واذا كانت الامور قد هدأت نسبيا في منطقة الجبل الغربي فقد كان الثوار يعدون العدة لجولة جديدة في القبلة بحيث يمكن تحريك الوضع في الجبل الغربي وربما اعادة بندول الساعة الى الحركة من جديد كما حدث سنوات 1914-1915م مباشرة بعد سقوط القاهرة اذ انطلقت الثورة في الجنوب وطرد الايطاليون من هناك (مياني وقواته) ويذكر ان المد الثوري قد اخذ في التصاعد في اواخر شهر اكتوبر وبداية شهر نوفمبر، وخاف الايطاليون من عواقبه فقرروا المبادرة الى القيام بعمليات حربية بعد ان قامت في 27 اكتوبر حملة من الزنتان تقدر بحوالي ثلاثمائة مجاهد بمهاجمة القوات غير النظامية التي اسند اليها الايطاليون مهمة حماية المواقع المحتلة وتأمين مؤخرتهم، وقد ساعد هذا الدور الذي قام به المرتزقة على تمكين الايطاليين من الاحتفاظ بسيطرتهم على الجبل الغربي واستخدام قواتهم النظامية في العمليات التي جرت في المناطق الشرقية التي كان الوضع فيها اكثر تهديدا واكثر خطرا، وقد الحق الزنتان خسائر فادحة بالمرتزقة مما دفعهم الى الاستغاثة بقوات (الميجور غالياني) الذي تحرك من جادو نحو رأس الحسن في ملاحقة واسعة ضد الزنتان دون ان يحقق ما يريد، اذ توغل هؤلاء في القبلة، اما في منطقة نالوت فإن السلطان الطارقي (أجوده) قد جمع حملة تتكون من حوالي اربعمائة مسلح اغلبهم من الهجانة وقام يوم 17 نوفمبر بمهاجمة الحامية الايطالية في اولاد محمود فالحق بها خسائر فادحة، وفي 3 ديسمبر 1923م قامت هذه الحملة بقيادة ابراهيم الطارقي نائب السلطان بمحاولة للقيام بهجوم تطويقي ضد نالوت عن طريق وادي الثلث الا انها اكتشفت من قبل الدوريات الايطالية واصطدمت في نفس المكان مع الايطاليين حيث دارت معركة عنيفة تعرض فيها المجاهدون لخسارة كبيرة.

وقد اتبع الايطاليون هذه العملية بعمليات اخرى سلطوا فيها بعض القبائل الموالية على القبائل المعادية رغبة في تدعيم احتلالهم للمنطقة، الا انهم لم يطمئنوا

(1) معجم معارك الجهاد الليبي، التليسي.

اطمئنانا كاملا الى الوضع في الجبل الغربي الا بعد عودة القوات النظامية اليه عقب انتهاء العمليات الحربية في منطقة مصراته.

وبذلك تنتهي هذه المرحلة من تجدد المقاومة وتنتهي تلك الدورة من العمليات العسكرية الواسعة التي قام بها الايطاليون في سبيل اخمادها واعادة السيطرة على الوضع العام، بعد ان تمكن المجاهدون من زعزعته وتهديده وبعثوا في المستعمرين شعورا بالقلق والخوف من اعادة الوضع الذي واجه القوات الايطالية في سنة 1915م ولم يكن ذلك عسيرا على المجاهدين لو توفر لهم الدعم ووحدة الصف الوطني ولو لم يكن للعملاء دور خطير في خذلانهم[1].

يلاحظ القارئ الكريم انني لم اشر الا نادرا الى ما كتبه الاستاذ محمد سعيد القشاط من مغالطات مسيئة ومن تجنٍ في حق المجاهدين ومن ادعاءات باطلة لا اساس لها من الصحة فلقد نسب لاناس بطولات بينما نسب بلا خجل لاخرين خذلاناً وانهزاماً، واذا كنت ارى ان ما كتبه لا علاقة له بالتاريخ ولا بأي حدث حقيقي من احداث التاريخ الوطني فقد رأيت بعد هذه الملاحظة والمقارنة التي سأوردها فيما يلي ان اتجاهل تماما كل الذي اورده في كتاب (معارك الدفاع عن الجبل الغربي) وانا اتصور مع كثير من الالم انه أساء لاهله من حيث اراد ان يمجدهم، ولست اعني بهذا انهم لم يقوموا بدور هام في الجهاد الليبي بل على العكس تماما فقد رأيت من خلال كل التاريخ المكتوب عن الجهاد الليبي ان الصيعان (وخصوصا عائلة الغدي) كان لهم دور هام وقد شاركوا كغيرهم من المناضلين في معارك الدفاع عن الجبل الغربي، ولكن القشاط كان قد نسب اليهم ادوار قيادة وجعلهم يواجهون الايطاليين وحدهم بينما غمط حق اولئك الذين كانوا في مقدمة الصفوف منذ اليوم الاول عند بداية الغزو الايطالي، الى آخر يوم في حركة الجهاد الوطني الليبي، والمقارنة التي اتحدث عنها هي كما يلي : يقول.

ونزل المبروك الغدي والطيف الحطاب بمن معهما بوادي السدر بظاهر الرحيبات استعدادا للاتجاه شرقا للحاق بالمجاهدين في بئر الغنم، كما وصل

(1) بعد القرضابية، التليسي، دار بيروت.

الزنتان والرجبان الى بلدانهم تاركين العدو وراءهم يتقدم بدون قتال[1] !! ويضيف في هذه المرة ناسبا الكلام لعون سوف،(ثم خرجت قوة كبيرة من ناحية الجوش في اتجاه الزنتان والرجبان فتوجهت وبرفقتي احمد عبد المجيد المصري وقسم من العسكرية ومدفع وبعض الرشاشات للاشتراك مع الزنتان والرجبان لصد العدو الزاحف من الجوش وعندما وصلت الى الزنتان وجدت ان الحالة لا تسمح بالتصدي للعدو لذلك قررت القبائل المذكورة آنفا الرحيل الى مزده وفعلا تم الرحيل لابعاد العائلات عن طريق العدو، ويؤكد القشاط. «وهكذا تم خروج الزنتان والرجبان من الحرب، كاد يكون نهائيا بعد معركة السلامات ولم يشتركوا في الحرب ضد الطليان الا بعد سقوط الجبل وترهونة ومصراته وبني وليد، وبدأ العدو في التوغل داخل الحمادة الحمراء بعد ذلك باكثر من عامين حيث خاضوا معارك بطولية في القبلة وفزان». انتهى كلام القشاط.

وهذا الكلام المغالط والمتداخل والمشوش يحتاج الى توضيح وتصحيح، فاولا حتى لو افترضنا ان ما نسب الى عون سوف صحيحا (وهو غير صحيح على الاطلاق، فلقد أكد الباحث مختار الهادي بن يونس، من مركز الجهاد الليبي ضد الغزو الايطالي ان المذكرات مزوره وذلك في دراسته التي اجراها تحت عنوان (ملاحظات نقدية حول المذكرات المنسوبة لعون سوف المحمودي) والتي سنوردها في آخر هذا الكتاب لاهميتها، اذ تأكد منها ان القشاط حرف وزور في تلك المذكرات) قلنا حتى لو افترضنا، سنجد ان الكلام غير مترابط (حتى من الناحية اللغوية) فالقول وجدت ان الحالة لا تسمح بالتصدي للعدو، كان يجب ان يذكر لماذا... ثم يقول لذلك قررت القبائل المذكورة الرحيل الى مزده وفعلا تم الاتفاق على ابعاد العائلات ثم العودة لمواصلة الجهاد، وهذا ما حدث فعلا، وان كان الكاتب قد تجاهله ليوحي بان هؤلاء الزنتان والرجبان كانوا هاربين بعائلاتهم !!! ثم يقول، وهكذا تم خروج الزنتان والرجبان من الحرب، ويضيف (كاد يكون نهائيا

(1) هذا الكلام عن معركة السلامات التي جرت في 18 يونيو 1922م وقد استشهد فيها 25 مجاهداً من الزنتان والرجبان.

بعد معركة السلامات) ونحن لا نعرف ما معنى كلمة (كاد) اذا كان قد قرر انهم لم يشتركوا في الحرب الا بعد سقوط الجبل وترهونة ومصراته وبني وليد!!!.

وليعلم القارئ ان معركة السلامات كانت في 18 يونيو 1922م ونحن نجد ان الزنتان قد قاموا بحملة قوامها ثلاثمائة مجاهد هاجمت القوات التابعة للايطاليين يوم 31 اكتوبر 1922م والحقت بهم خسائر فادحة ثم انسحبت الى القبلة، وعندما عزز الايطاليون تلك القوة بقوات اخرى من الجيش الايطالي وكانت المعركة في الجبل الغربي وليس في القبلة، اي ان هذه المعركة جاءت بعد سنة واربعة اشهر وخمسة ايام من معركةالسلامات التي قال القشاط ان الزنتان والرجبان قد خرجوا من الحرب بعدها!.

وربما يعلم من اطلع على احداث تاريخنا الوطني. ان معارك الجبل الغربي قد انتهت بعد سقوط يفرن وغريان اذ ان المجاهدين بعد ذاك قد اتجهوا الى القبلة لمواصلة الجهاد الوطني ولقد سقطت يفرن في (31 اكتوبر 1922م) بعد معارك ضارية بين المجاهدين والقوات الايطالية، اما غريان فقد سقطت بلا قتال يوم (17 نوفمبر 1922م)، وهذا ما أورده غراتزياني عن معارك يفرن :

الزحف على يفرن (28-29-30-31 اكتوبر 1922م).

كان من شأن زحفنا على يفرن ان اعاد اخيرا الطمأنينة الى نفوس الجميع واكد الثقة في اعمال الحكومة.

وفي يوم 28 اكتوبر على اثر الامر بالقيام بالعمليات الحربية الصادر من قيادة الجيوش تحرك الالاي الذي كنت اقوم بقيادته للزحف اخيرا من جادو على يفرن.

وكانت الفكرة التي توحي لنا بالعمل هي الآتي :

يتقدم الالاي الجبل (غراتزياني) نحو يفرن حيث يقوم بالهجوم على الثوار، يقطع عليهم بحركة تطويق من الجنوب خطوط المواصلات الطبيعية نحو غريان ومزده ويدفعهم نحو الشمال في الجفارة حيث يقوم آلاي (بيتزاري) باكمال هزيمتهم.

وفي مساء يوم 26 وصل الالاي الذي تولى قيادته الى (الريايته) كما وصل الالاي (بيتزاري)

الى بئر الغنم.

وفي يوم 30 انتقلت انا الى خط العوينية الرومية حيث اتصلت بقوات خربيش المساعدة وبتشكيلات المشاشة والريايته غير النظامية.

وفي يوم 31 اتجهت من العوينية الى مواقع (صفيت) والى مساكن يفرن بعد ان قسمت قواتي الي آليين اولهما المؤلف من الجنود النظاميين ليقوم بالزحف على ام الجرسان وهي شبكة الطرق المؤدية الي يفرن والتي اتضح ان الثوار يقومون بالدفاع عنها بقوات كبيرة لاننا اذا ما قمنا بالاستيلاء عليها كان في استطاعتنا ان نقذف منها بفصائل لاحتلال مساكن يفرن وان نرسل فصائل اخرى صوب (صفيت) واما الالاي الثاني، وهو الذي يتألف من فرقة الفرسان كلها (حوالي 500 فارس سباهيس وغير نظاميين ومن تشكيلات خربيش والمشاشي والريايته غير النظامية وكان عليه ان يقوم بتطويق مواقع صفيت من الجهة الجنوبية الشرقية فينقض على خطوط انسحاب العدو. وقد قام الآليان بالقتال بمنتهى العنف وعلى اكمل وجه، ولذلك انهزم العدو بين ضغط من الامام وهجمات من الخلف، وتشتت شمله بعد ان ترك في الميدان مدفعين وبضعة متراليوزات وكثيرا من الاسلحة فضلا عن جميع المستودعات وبعد ان اصيب بخسائر فادحة.

وقد قامت فرقة الفرسان بقيادة الرئيس (اورسي فيراري) البطل بحركة التفاف كبيرة حتى ككله وكانت تلقي الرعب والذعر في كل مكان، ولقد قاتل رجال المشاشي والريايته المسلحون قتالا باهرا، ومات في ذلك اليوم شقيق الزعيم المشاشي محمد بن حسن الذي اشترك بنصيب وافر في الحوادث المقبلة كما سنرى ذلك.

وفي الساعة الحادية عشرة والنصف من يوم 31 قام الرئيس (ماريو كورنالبا) من ضباط الكتيبة الاريترية الخامسة برفع العلم الايطالي مرة ثانية فوق قلعة يفرن القديمة المتهدمة، واستحال ذلك المركز العامر والمزدهر فيما مضى الى ركام واطلال، وهكذا هدأت روح الزعيم البربري (ساسي خزام) الذي كانوا قد

ارسلوه الى يفرن في سنة 1916م على رأس جماعة من المسلحين ووعدوه بمساعدة القوات النظامية له، الا انهم تركوه وشأنه فهزمه العرب وقاموا بشنقه.

وفي يوم 31 ذاته تم في (تاغمه) حسب نظام العمليات الاتصال بقوات الجفارة القادمة من بئر الغنم وشاء القدر ان يتم هذا الزحف في الايام ذاتها التي تم فيها زحف السنيور موسوليني على روما، كما شاء ذلك القدر ايضا ان تقاتل حول ضريح صفيت القديم العهد الذي وجدت بين اطلاله عملة من النقد على ظهرها صورة روما المسيطرة وعلى وجهها الثاني صورة احد الاباطرة حيث رفع رجال قواتي المنتصرة اسلحتهم تحية لمجئ الفاشية واحتفلوا على صفحة الصحراء بذلك النصر الذي تم احرازه اخيرا، وأعربوا عن أطيب تمنياتهم لهيبة روما ايطاليا وسمعتها المستقبلة في ارض افريقيا، ويوجد هنا اليوم في صفيت نصب تذكاري من الرخام اراد البربر انفسهم اقامته تخليدا لذلك الحادث الرمزي (كتب عليه باللغة اللاتينية، ما يشير الى وقوع هذه الانتصارات في الوقت الذي فيه انتصرت الفاشية بقيادة بينيتو موسوليني[1] .

ويورد بعدئذ غراتزياني الخطاب الطويل الذي وجه اليه إعرابا عن الشكر والتقدير لما قام به من أسر الاهالي ! ونرى اننا لسنا في حاجة الى ذكره، ذلك اننا نعلم انه يمكن للمنتصر ان يفرض ما يشاء، ناهيك عن غازٍ سيطر على قوم عزل، على الرغم من ان الخطاب كتب بلغة عربية بليغة حتى ان الذين كتبوه مثلوا اخلاص غراتزياني بامانة واخلاص (السموأل) مع الاسف، ويضيف غراتزياني بشأن معركة يفرن ما يلي:

وعلى اثر احتلال يفرن اتجهت افكارنا في الحال الى ان نجمع عظام اولئك الجنود الذين سقطوا في الزنتان سنة 1915م المشؤومة وسطروا بدمائهم صحفا من صحف البسالة والاقدام تستحق التبجيل، واني ادع ذكر ذلك للصحفي الكاتب (تشيزاري تسيزاري) الذي كتب مقالا في المجلة الاستعمارية قال فيه:

ان الحوادث التي وقعت سنة 1915م في ليبيا غنية باعمال البطولة التي

(1) كتاب نحو فزان، غراتزياني، ترجمة طه فوزي.

ترفع من قاموا بها الى ذروة المجد ولم تعرف حتى الآن كل هذه الاعمال اذ لم تسمح الاحوال وقتئذ بالاشادة بها والتحدث عن قيمتها، وان صدى تضحيات تلك الحاميات البعيدة التي كانت قابعة على الساحل تحت ضغط ثورة الاهالي التي عمل على اذكاء نيرانها عملاء من الاجانب، وصل هذا الصدى ضعيفا خافتا الى ايطاليا وسرعان ما انطفأ تحت تأثير تلك الحرب المقدسة التي استعرت نيرانها على الحدود، واني احتفظ لنفسي بالحق في ان اخرج الى حيز الفور وعلى صفحات هذه المجلة تدريجيا كثيرا من هذه الاحداث والحوادث والاعمال التي تستحق اعجاب الايطاليين[1] واننا نذكر اليوم ما يطلق عليه اسم (الزنتان) وهو اسم لكي يعرفه القليلون هو في حد ذاته دليل واضح على الصمت الذي احاطوا به حتى اليوم الدفاع اليائس وتلك التضحية السامية التي قدمتها فصيلة من فصائل جنودنا المشاة التي فقدناها في طرابلس الغرب سنة 1915م، ومع هذا فانه لتبرير هذا النسيان يجب ان نذكر حقيقة لا يمكن التغاضي عنها، وهي ان حادث الزنتان، قد قدمه الى التاريخ الماريشال (كادورنا) في كتابه الخير الموسوم (صفحات اخرى من صفحات الحرب العظمى) اذ يقول :

ان الفصيلة الثانية عشرة من فصائل كتيبة المشاة الرابعة والثمانين بقيادة اليوزباشي (ميليو) الذي هو الآن برتبة كولونيل ويعمل قائدا لكتيبة المدرعات قد حوصرت في الزنتان وهوجمت في صباح يوم 2 يوليو وقد قاومت مقاومة عنيدة حتى يوم 10 ولما لم تستطع اطالة امد الدفاع قرر قائدها فتح الطريق لنفسه بالسلاح، وقد حاول ذلك اثناء الليل واستطاع المرور والاتجاه نحو بئر الغنم ولكنه بعد ان قاتل حتى الصباح واصيب بخسائر فادحة اخذ اسيرا واقتيد الى (الزنتان) مع حوالي خمسين من جنوده وهم الذين كانوا قد بقوا من رجال الفصيلة التي كان يبلغ عددها 170 رجلا عند سفرها، وان الدفاع عن الزنتان ومسلك الرئيس (ميليو) تتألف منهما واقعة مجيدة في تلك السلسلة التعيسة من الكوارث الاستعمارية.

هذا هو ملخص الواقعة في كلمات قليلة وقد علق عليه رئيس اركان حرب

(1) مقال صحفي إيطالي سوف نرد عليه بمقال من صحفي اوروبي إنجليزي عن بربرية الايطاليين.

الجيش تعليقا مشرفا، وتلاه اهداء ميدالية ذهبية للملازم اول (بيترو بيترافنتي) واثنتي عشرة ميدالية فضية وسبعٍ من البرونز وتسع من صلبان الحرب، وكان معظمها مكافاءات ولم تكن لتشريف صدور هؤلاء الشهداء وانما لتمجيد ذكراهم.

واذا كانت هذه الواقعة لم تعرف بخطوطها العريضة فان تفاصيلها كانت جديرة بالذكر، وكانت الاحوال الاستعمارية في يناير 1915م قد اقتضت نقل الفصيلة الثالثة من الكتيبة الرابعة والثمانين لحماية منطقة يفرن في جبل نفوسه على ارتفاع 800 متر) في ارض وعرة موحشة تتخللها نتوءات وتخطها وديان عميقة سحيقة، وقد تم استخدام هؤلاء الجنود مدة تقرب من ستة أشهر في اعمال استطلاعية متعددة وفي بعض العمليات الحربية الهامة مثل العمليات التي تمت في مزده والعوينية والجوش، تلك العمليات التي قامت بها الكتيبة بأكملها خلال شهر يونيو، وأثناء عودتها كان عليها لضمان سلامتها عزل احدى الفصائل في الرياينه وبعد ذلك في الزنتان وهما قريتان حقيرتان جاثمتان فوق الجبل.

وقد ارسلت في تلك المرة الفصيلة الثالثة عشرة رغما عما كانت تشعر به من الضعف على اثر ما لاقته من المتاعب فوصلت بعد مسيرة يومين الى الجهة التي كانت تقصدها في صباح يوم 27 يونيو.

وكان المخيم الذي يحميه جدار صغير يقع الى جانب احدى القمم على مسافة 27 كيلومترا من (يفرن) وكانت الفصيلة مؤلفة من ثلاثة من الضباط وهم (اليوزباشي مليو والملازم اول بيترافنتي والملازم ثان مافي) وثلاثة من ضباط الصف هم الجاويشيه (جالينا وماركيزي وكونتي) ومن 182 من الجنود وكان مستودع الاغذية الجافة الذي كانت قد تركته فصيلة سابقة من فصائل كتيبة المشاة 37 به 13 صندوقاً من الذخائر، فيها ما يكفي مؤقتا، وكان ينقصهم الماء الذي كان يفيض به خزان في حالة سيئة، بينما كان أقرب مصدر للمياه منهم يبعد مسافة كيلومترين، لذلك انقضت الثلاثة الايام الاخيرة من شهر يونيو في أعمال زيادة مخزون المياه الذي جمع في عشرين برميلا، وكان الحر شديدا قاسيا وكانت درجة الحرارة تزيد على 43 درجة.

وفي مساء يوم 2 يوليو اعلن رجال الكشافة وجود بعض الاهالي الوطنيين على مقربة من المعسكر، وسرعان ما خرجت الدوريات وقبضت بالفعل على اربعة

من جواسيس (القبلة) اذ انهم بعد ان تقدموا قريبا من الجدار لم يستطيعوا الفرار في الوقت المناسب، ولم تدع هذه العلامة اي شك في ان العدو سيقوم بهجوم قريب وقد استقبلها الجنود بكثير من الفرح، ولم يكن يبدو صحيحا انه من الممكن التحرك من ذلك المكان المنهك وتلقين درس لهؤلاء التعساء المهلهلين ولذلك فانهم بقوا ساهرين طول الليل، وفي تمام الساعة الخامسة والنصف صباحا قامت فجأة جماعة غير نظامية صاخبة تتألف من حوالي 600 شخص وانقضت كما لو كانت تلبي نداء متفقا عليه من مرتفعات (الزنتان) بعد لحظة قصيرة اطلقت فيها نيران من البنادق على المخيم حتى وصلت على مسافة تبعد حوالي خمسين مترا من الجدار، وقد كتب الرئيس (ميليو) في تقريره عن هذه الواقعة ما يأتي :

استعرضت رجال المشاة ورأيت وجوهم وقد بدأ عليها الهدوء والاستهتار بالخطر في فترات الانتظار هذه، وكانوا ثابتين رابطي الجأش كأنهم قد تسمروا في أماكنهم من الحركة وهم ينتظرون في ثقة صدور امري لهم بالقيام بهجوم مضاد، وقد صدر هذا الامر فعلا وكان الجواب مدهشاً ملأ ارض المعركة بقتلى الاعداء واضطر الباقين منهم الى الفرار السريع، ولكن المرتفعات التي لجأ اليها الثوار كانت قريبة ومن هناك بدأت منذ ذلك اليوم حركة تطويق بطيئة مستمرة صاحبها اطلاق نيران حامية نهارا وليلا من كل جانب، وما زاد الموقف حرجا امران:

اولهما، يرجع الى قلة الماء واستحالة الخروج للحصول عليه.

واما الثاني، فهو امر خارجي عام، وهو الامر الذي صدر في تلك اللحظة بالذات من طرابلس الى جميع الحاميات بالانسحاب الى الساحل، ولم تستطع فصيلة الزنتان ان تعلم بهذا الانسحاب او يخطرها به احد ولم يصلها اية معونة باي حال، ولذلك فإن الفصيلة وقد تعرضت الى آلام العطش والحر التي لم يسمع احد بمثلها وليس لديها الا اقوات قليلة وذخائر معدودة وقد تكدست في صخرة معزولة عن العالم، لم يكن لديها الا حل واحد للخروج من هذا المأزق وهو ان تقاوم ما استطاعت الى ذلك سبيلا، ثم تحاول بعد ذلك الخروج من الحصار ثم التضحية بنفوس جميع افرادها بدلا من التسليم.

وفي اليوم الثالث كان المهاجمون قد ازداد عددهم زيادة هائلة فإن جميع محلات هضاب نالوت والجوش وفساطو ويفرن وغريان قد تركزت كلها حول العلم الايطالي الوحيد الذي لا زال باقيا هناك في اعلى الجبل وقد تعددت الهجمات اثناء الليل بوجه خاص وكانت تصاحبها صيحات مؤثرة.

وعندما كان يتوقف اطلاق النيران كان اكثرهم شجاعة يصيح باعلى صوته باللغة العربية او الايطالية طالبا التسليم مع الوعد بالحرية او مهددا بعذاب الخازوق، ولكن لم يشعر احد من المحاصرين باي شئ من الضعف في أية لحظة وكان الجميع دون استثناء يتبارون في اخفاء عطشهم في شئ كثير من البطولة لكي يبللوا بنقط الماء الاخيرة شفاه الجرحى، وكانوا يردون على تهديدات تلك الجماعات بروح عالية جديرة بابطال الاساطير القديمة ويقذفونها بالحجارة وبكل شئ حاد بالرغم من ان الجميع كانوا يؤمنون في دخيلة انفسهم بقرب نهايتهم التعيسة المؤلمة، وفي اليوم السابع تم تسليم آخر جرعة من الماء وتقرر الخروج من الحصار وهدفهم نبع الماء البعيد لكي يستطيعوا الاستمرار في المقاومة، وقد قام الاعداء بعد ان تشجعوا بمهاجمة الطابور ولكن ادهشتهم شجاعته فلم يجروؤا على التوغل والاستمرار الى النهاية، ولقد كان من شأن الخسائر الفادحة التي اصيب بها رجالنا وخطر السقوط قبل الوصول الى الماء انهم آثروا العودة الى موقف دفاعهم الاول، وعند النداء المعتاد على الجنود في مساء يوم 10 يوليو المشؤوم لم يرد 19 جنديا والجاويش (كونتي) اما الباش جاويش (جالينا) فانه كان راقدا يشرف على الموت واما الملازم البطل (بترافنتي) الذي كان نموذجا دائما لاسمى الفضائل فقد اخترقت صدره رصاصة، كما كان هناك ستة وعشرون رجلا قد جرحوا وكانت جراح بعضهم خطيرة، ولم يكن من الممكن المقاومة اكثر من ذلك، اذ ان الماء كان ينقصهم منذ ست وثلاثين ساعة ولكن كان من المستحيل عليهم ان يسلموا ابداً.

وفي تلك الليلة ذاتها حملوا جرحاهم على ما يشبه النقالات، واما الباقون من فصيلة الابطال فقد قاموا بزحف تظاهري وعلى رأسهم الرائد والى جانبه الملازم (بيترافنتي) الذي كان يخفي بكل عناء ما يشعر به من الم الجرح الشديد

الذي اصيب به، ثم بدأوا الانسحاب في جنح الظلام، وقد اضاف الرائد (ميليو) في تقريره :

مع الاسف الشديد سرعان ما لاقينا ستارا كثيفا من الكشافة قد وقفوا لنا بالمرصاد يراقبون حركاتنا وانهالوا علينا بانذاراتهم وصيحاتهم العالية وضرباتهم على صفائح البترول التي اتخذوا منها طبولا وبطلقات نيران سريعة وجهوها الينا.

ولكن حوالي منتصف الليل اصيب الملازم اول (بترافنتي) برصاصة من عيار كبير في بطنه وكان الاخرون يقعدون طوال هذه الليلة الواحد تلو الآخر باستثناء الرائد وثلاثة من الجنود، هم موظف التلغراف (اناتولي) والعامل (فالنتي) والجندي (دونوفريو) وقد اخذوا اسرى في صباح اليوم التالي، اما السريتان اللتان كانتا مع الملازم (مافي) فإنهما بعد ان اندفعتا الى الامام حوالي ثلاثين كيلومتراً هاجمتهما جماعات من فرسان العدو وفقدتا في هذه الاثناء جانبا كبيرا من رجالهما من بينهم الملازم ثاني ذلك البطل، اما الباقون القلائل فقد اخذوا اسرى واقتيدوا الى الزنتان في حالة تدعو الى الرثاء، فقد بقي جندي لم يكن من الممكن التعرف عليه من بين المفقودين معزولا اذ التجأ في تلك الايام الى شجرة من اشجار التين الي جانب احد الخزانات اسبوعا كاملا ضد مهاجميه الذين كانوا يعجبون بشجاعته ويعدونه بالابقاء على حياته اذا ما قام بتسليم نفسه ولكنه لم يقبل الاستسلام ابدا.

ومع هذا فان المسلك الذي سلكه الرائد عندما وقع في الاسر كان هو ايضا جديراً بالذكر اذ لم يكن اقل بطولة من ذلك الجندي.

ولما اقتيد الى احدى المغارات وقع خائر القوى في سبات عميق، وفي صباح اليوم التالي اخذ بالقوة مرة ثانية وسط جماعة صاخبة من العرب الى قلعة الزنتان القديمة حيث كان كل شئ قد قلب رأسا على عقب بحثا عن الاسلحة[1] .

في أمثلتنا الشعبية يقولون (ان عصاة الذلال طويلة) كل هذه القصة والبطولات الوطنية الوهمية التي رواها الكاتب كأنما هي قصة بوليسية من قصص

---

(1) نحو فزان، غراتزياني.

(ارسين لوبين) اذ قال ان (الجبل كله قد اجتمع من فيه من المجاهدين على مهاجمة فصيلتين كانتا تدافعان عن العلم الايطالي الذي بقي وحيدا في الجبل!!! وان جنديا ايطاليا بقي فوق شجرة تين اسبوعا كاملا يدافع عن نفسه واخيرا استسلموا جميعا وسيقوا اسرى ... وعلى اي حال فقد اوردت هذه الفقرات التي ربما طالت من كتاب الجنرال غراتزياني لعدة اسباب:

اولها، التأكيد على اهمية معارك الدفاع عن يفرن ومقدار التضحيات التي قدمها المجاهدون.

وثانيها، (هاجس القبلة) الذي كان يلازم غراتزياني بدليل انه حتى انه حتى عند القبض على اربعة من العرب قبل بداية الهجوم قال عنهم انهم جواسيس (جواسيس من القبلة) وربما يكونون لا علاقة لهم بشئ وانما سوء حظهم وضعهم امام جنود جبناء يطلقون النار على كل شئ يتحرك خوفا من المجاهدين.

وثالثها، انها كانت بعد معركة السلامات التي جرت في 18 يونيو 1922م بينما معركة الدفاع عن يفرن كما رأينا جرت في 28-29-30-31 أكتوبر 1922م، وبين المعركتين حوالي ثلاثة شهور (وكان القشاط قد ذكر ان الزنتان والرجبان قد خرجوا من الحرب بعد معركة السلامات، ويرى القارئ مما اوردناه وهو ليس من عندنا، ان المعركة كانت بين الزنتان والايطاليين وان الذين اسروا قد سيقوا الى قلعة الزنتان القديمة) وعلى الرغم من كل المبالغات التي اوردها غراتزياني عن البطولة والابطال الايطاليين فإن ما يهمنا هو اثبات مكان وتاريخ المعركة وقدرة المجاهدين العرب الليبيين على الصمود والمقاومة، ونلاحظ ايضا ان غراتزياني قد أبرز بشكل مثير كيف ان الليبيين كانوا يقاتلون بشجاعة فائقة وهم في صف القوات الايطالية، وكيف ابلوا بلاء حسنا، وذكر اسماء قبائل واشخاص انحازوا الى جانب الايطاليين وهم يقاتلون ضد العصاة اي (المجاهدين) وهذا الامر لا يهمنا كثيرا لاننا نعرف الاسباب ولقد اوردناها اكثر من مرة، وقلنا ان هناك اغراءات وقسراً وارهاباً، وهناك لعباً على العداوات والثارات القديمة، وعلى الرغم من ان ذلك مؤسف الا انه معروف وكثير الحدوث في كل مكان.

واما حديث الصحفي الايطالي (تشيزاري تشيزاري) وكتاباته الى المجلة

الايطالية حول حادث (الزنتان) المشؤوم واولئك الطليان الذين قتلوا سنة 1915م في بلدة الزنتان، وانسانية الحملة الايطالية، فان الرد عليه لا نريده ان يكون من عندنا وانما من كاتب اوروبي آخر هو (فرانسيس ماكولا) الذي قال :

لقد ترك يوم 26 أكتوبر في نفسي انطباعا سيئا ومروعا في نفس الوقت، وقررت بانني لا استطيع البقاء مع جيش يعتمد القتل على نطاق واسع وكذلك قررت ان اقوم بارجاع اوراقي الخاصة والمتعلقة بي كمراسل صحفي الى الجنرال (كانيفا) فقد إشمأزت نفسي من المجازر والطريقة التي تم بها قتل النساء والاطفال وخصوصا المرضى منهم وهم يموتون على الارض، كتبت الى الجنرال (كانيفا) رسالة عنيفة ذكرت له فيها بانني ارفض البقاء طويلا مع جيش ليس بجيش ولكنه عصابة من القتلة المجرمين وشلة من السفاحين، وفي يوم 28 من شهر اكتوبر عرضت هذه الرسالة على القنصل البريطاني العام السيد (الفارين) ولكنه ذهل من شدة عباراتها التي استعملتها ورجاني ان اعدل كتابتها ووعدني انني لو فعلت ذلك فانه سيزور الجنرال ويرجوه بصورة شخصية بخصوص الفظاعة التي كنت شاهد عيان عليها، ولقد رفضت هدا العرض لانني اعلم مسبقا بانه سوف لن يغير الموقف وستكون المقابلة جافة ووعدا غامضا باجراء التحقيق وطردي من البلاد خلال اسبوع بتهمة ملفقة وتصبح النتيجة عدم اهمية شهادتي حول المذابح[1] نعتقد انه رد بليغ وكفى.

ونرى انه من الواجب الحديث عن المعارك الاخرى وكيف تم احتلال مصراته وترهونه وبني وليد ومتى كان ذلك، اذ ان القشاط قد قرر ان الزنتان والرجبان كانوا قد خرجوا من الحرب (كما اوردنا) بعد معركة السلامات ولم يشتركوا في عمليات الجهاد الا بعد سقوط ترهونة ومصراته وبن وليد والجبل الغربي، ولقد بينّا تفاصيل معركة الجبل التي خاضها هؤلاء المجاهدين ضد الايطاليين بعد معركة السلامات بمدة سنة واربعة اشهر وخمسة ايام، (صفحات 168-169-170) وعلى الرغم من ان القشاط لا يستحق حتى مجرد القراءة لا الرد لان الكاتب عندما يخوض بالقلم في أعراض الناس وترهات (العجائر) وينحط

(1) شهادة الصحفي الإنجليزي، ص 287 كتاب (الغزاة) ترجمة شقلوف.

بالتاريخ الى مستوى (المعايرة) كما فعل هذا في كتاب (خليفة بن عسكر) فانه بذلك يكون قد حكم على نفسه وكتاباته بالعبث والغرور والخداع والتزوير والبذاءة، ولكننا احتراما للقارئ ورغبة في وضع الامور في مجراها الحقيقي أردنا ان نفند ما ذكره بذكر حقيقة المعارك لا دفاعا عن النفس وانما عن التاريخ الذي يخص أمة وليس أفرادا :

ذكرنا ان المعركة التي كانت دفاعا عن منطقة الجبل الغربي والتي عرفت باسم معارك الزحف على الجبل الغربي (معارك يفرن) كانت في (28-29-30-31 أكتوبر 1923م) وقد تحدث عنها مطولا الجنرال غراتزياني اذ قتل وأسر فيها عدد كبير من الضباط والجنود الايطاليين وقد جاءت بعد سقوط (ترهونة) اذ ان الايطاليين كانوا قد استولوا على ترهونة (يوم 6 فبراير 1923م) وبين فبراير وأكتوبر ستة شهور او بالتحديد (ثمانية شهور وخمسة وعشرون يوما) وجاءت معركة بني وليد في 27 ديسمبر 1923م اي انها مباشرة بعد معارك الدفاع عن يفرن اي بعد معركة يفرن بمدة شهر وستة وعشرين يوما. وكانت معركة مصراته 26 يناير 1922م وهي بداية الانزال البحري عندما قرر الايطاليون الهجوم على مصراته (اي على الميناء) ولم يتحقق للايطاليين السيطرة على تلك النواحي الا في 26 فبراير 1923م، اي ان الانزال كان قبل معركة يفرن التي خاضها مجاهدو الزنتان بمدة سنة وتسعة شهور وخمسة أيام أما السيطرة على منطقة مصراته فقد كانت بعد معركة يفرن بمدة خمسة شهور وخمسة أيام.

ونتبين مما ذكر ما يلي:

(1) كانت معارك الدفاع عن الجبل الغربي (يفرن) قد جرت في 28-29-30-31 أكتوبر سنة 1923م.

(2) وجرت معارك الدفاع عن بني وليد في 23 ديسمبر 1923م.

(3) وجرت معارك الدفاع عن ترهونة في 6 فبراير 1923م.

(4) وكانت معارك مصراته الاخيرة قد جرت في 26 فبراير 1923م.

ويتأكد مما جاء اعلاه ان المعارك متواصلة ومتصلة ولم يحدث ان خرج طرف من قوى الجهاد من الحرب ولم يشارك الا بعد سقوط المواقع الاخرى، وان

الزنتان والرجبان كانوا يخوضون معارك ضارية بينما كان اخوتهم المجاهدون في بني وليد وترهونة ومصراته يقاتلون العدو الايطالي، وهنا تحضرني قصة عن احداث الاشياء بالمقلوب سواء بالنسبة للانسان او للحيوان لا يجد المرء لها تعليلا وهي:

(كان لدى قبيلة الجرمانتيين نوع من البقر الذي يسير الى الوراء أثناء رعيه والسبب في هذه الحالة الغريبة هو ان قرون هذا النوع من البقر تنمو منحنية الى الامام ونحو الارض مما يمنع البقر من التحرك الى الامام كما هي العادة، لانها لو فعلت ذلك لاشتبكت قرونها في الارض)[1]، وسبحانه له في خلقه شؤون.

وطالما اننا قد أشرنا الى معارك الجهاد في كل من بني وليد وترهونة ومصراته وقد رأينا كيف انه مرتبط بالجهاد في الجبل الغربي فانه حري بنا ان نذكر شيئا عن هذه المعارك وبطولات المجاهدين الليبيين فيها.

ترهونة في 6 فبراير 1923م .

بعد ان يتحدث الجنرال غراتزياني طويلاً عن القوات التي جهزت لغرض احتلال ترهونة وعن كيفية الهجوم وما يتوقعه من قادة الجهاد، يعود بذاكرته الى الماضي، اي الى احداث سنة 1915م فيقول عن احتلال ترهونة:

منذ ذلك الحين فصاعدا كان الجميع يحسون ان قوات العدو قد تضعضعت وتفتت وانهارت ولذلك نسي الالاي غراتزياني كل ما كان يشعر به من تعب وواصل زحفه الخاطف ودمر كل مقاومة كان يبديها العدو ثم انقض على ترهونة. وفي الساعة السادسة من بعد يوم 6 فبراير كان العلم المثلث الالوان الذي رفعه الاي الجبل يرفرف منتصرا فوق أعلى القمة فر الثوار في غير انتظام نحو الجهة الجنوبية الشرقية وقد تعقبتهم قوة فرسان الالاي واكملت هزيمتهم الساحقة وفي نفس الوقت الذي هرب فيه العدو من تضييق خناق قواتنا عليه لم يتمكن (رجال النواحي الاربعة) من ذلك فتم تطويقهم واضطروا للاستسلام وسلموا أسلحتهم وكان من بين الغنيمة التي وقعت في أيدينا ثلاثة مدافع جبلية وخمسة متراليوزات

(1) التاريخ الليبي القديم، د . عبد اللطيف البرقوقي.

وعدد من قاذفات القنابل من احدث طراز مع كميات وفيرة من الذخائر، هكذا سقطت ترهونة بعد ان احاطت بها من الغرب والجنوب والشرق الاليات التي جاءت اليها بسرعة الريح، وقد كان الضمير الوطني يتطلع الى ترهونة التي كانت مركزا عسكريا وأدبياً للثوار، والحي الذي كانت تخرج منه وتعود اليه صفوف الثورة والتي كان (المريض) بعد موت رمضان الشتيوي يحلم مدة من الزمن باقامة امارة له فيها، وقد'هرب الزعماء والاهالي منها والفزع يملأ قلوبهم امام قواتنا التي لا يمكن مقاومتها وان العمليات التي مكنت ايطاليا في 9 أيام لا اكثر من اعادة احتلال ترهونة وضمت الى حكمنا قطرا تبلغ مساحته 12 الف كيلومتر هي دون شك اخصب اراضي طرابلس الساحلية،تلك العمليات تعتبر حادثا عسكريا من الطراز الاول دل على عبقرية وشجاعة عظيمتين في الاشراف عليه كما دل على مهارة وانسجام في تنفيذه، وكانت هذه العمليات هي التي مكنت جيوشنا من القضاء على هيبة العدو وقد تمت العمليات دون انقطاع مدى تسعة ايام دون ان يقطع اي حادث وفي غير هوادة ودون اية مباغتة من العدو[1] .

هكذا تحدث الجنرال غراتزياني عن معركة ترهونة ولقد عودنا على المبالغة فيما يذكر من احداث وربما لا يلومه احد فيما يذهب اليه، ذلك انه يقود معارك وهو متفوق فيها عدة وعتادا، وكان سلفه الكولونيل (مياني) الذي جاء قبله، ايضا فاتحا قد هزم في هضاب ووديان وجبال ليبيا، وكانت هزيمته شنعاء، وما يمكن ان يزهو به هذا الاخير هو تحريك الفتن والعداوات القبلية القديمة.

وفي خصوص هذه المعركة يتحدث الاستاذ التليسي فيقول :

ترهونة احتلها الايطاليون عقب معاهدة (اوشي – لوزان) ودخلوها يوم 18 ديسمبر 1912م وظلت حامياتهم تقيم بها الى ان اندلعت الثورة في سنة 1915م وانتشرت في مناطق القبلة والجنوب ومنطقة سرت، فأدت الى انهيار الاحتلال الايطالي في كافة المواقع الداخلية نتيجة للهزيمة المنكرة التي اصيب بها الايطاليون في معركة (وادي مرسيط) ومعركة القرضابية (قصر بوهادي) وقد ترتب على ذلك

(1) نحو فزان، الجنرال غراتزياني، ترجمة طه فوزي.

محاصرة الحامية الايطالية في ترهونة مما دفع حكومة الولاية الى محاولة انقاذها، وفك الحصار عنها وسحبها الى الساحل، وعمدت القيادة الى اعداد قوة كبيرة بقيادة الكولونيل و(روستي) في محاولة منها لدعم الحامية المذكورة وتزويدها بالامدادات والتموين بعد ان انقطع عليها سبيل الاتصال بالقواعد الرئيسية في الساحل، وقد خرجت هذه القوة الكبيرة من العزيزية يوم 12 مايو 1915م متجهة نحو ترهونة ولكنها اوقفت في اليوم التالي (17 مايو 1915م) عند وادي (ملفا) واضطرها المجاهدون الى الانسحاب بعد ان كبدوها خسائر فادحة.

ويضيف، ومنذ ذلك الحين لم يعد هناك وجود للايطاليين في ترهونة شأنها شأن مدن الدواخل، حتى اقيم بها سنة 1919م مركز اتصال يمثله ضابط ايطالي وذلك بعد الاتفاق الذي تم بين الوطنيين والايطاليين في تلك الفترة، ولكن لم يلبث ان سحب هذا الضابط سنة 1921م بعد الموقف السياسي الجديد الذي اقتضى فيما بعد استئناف العمل الحربي بين الطرفين ومحاولة ايطاليا في عهد (فولبي) استرداد المناطق الداخلية. وهنا تبدأ قصة اخرى وتاريخ آخر من الكفاح والنضال حول هذه المنطقة.

فبعد ان فرغ الايطاليون من احتلال الجبل في نطاق تلك الحملة المعروفة اتجهت نيتهم الى احتلال ترهونة واستعادة السيطرة عليها، وكانت ترهونة في هذه المرحلة مركز قيادة النضال الوطني، واخذت القيادة الايطالية تعد لهذه الحملة منذ اواخر سنة 1922م وبدأت بالتمهيد لها بالمعركة التي جرت في بئر ابازه يوم 19 ديسمبر 1922م حيث قام المجاهدون بمهاجمة هذا الموقع باعتباره من المواقع الامامية الايطالية التي قصد من اقامتها التمهيد للهجوم على ترهونة، وقد تم تشكيل قوة تتألف من ثلاث كتائب كبيرة تتحرك من طرابلس والعزيزية وغريان في حركة التفاف وتطويق طبقا للاستراتيجية الايطالية المتكررة في مثل هذه الحالات، وهي كما يلي.

(1) قوة بتساري 3100 بندقية و 300 فارس 4 قطع مدفعية.

قاعدة الانطلاق تاجوراء ومسرح العمليات المنطقة الساحلية الشرقية حتى الخمس ثم القصبات.

(2) قوات غراتزياني 2700 بندقية 350 فارسا 4 قطع مدفعية، ونقطة الانطلاق غريان ومسرح العمليات المناطق الجنوبية من ترهونة.

(3) قوات بيللي وهي 1400 بندقية 220 فارسا 4 قطع مدفعية، وقاعدة الانطلاق العزيزية ومسرح العمليات المنطقة الواقعة بين العزيزية وترهونة، وفي نطاق الدفاع عن ترهونة والمناطق المجاورة وقعت المعارك التالية التي شملت المنطقة الساحلية والقصبات والعزيزية وجنوبي غريان:

1 – معركة سيدي ابو عرقوب 1923/2/2.

2 – معركة سيدي الوليد 1923/2/2.

3 – معركة ملفا 1923/2/6.

4 – معركة سيدي الجيلاني 1923/2/2.

5 – معركة المسفين 1923/2/2.

6 – معركة مقلب الماء 1923/2/3.

7 – معركة قصر الحجرة 1923/2/4.

8 – معركة وادي الرمل 1923/1/29.

9 – معركة قصر القربوللي 1923/1/30.

10 – معركة فندق العلوصي 1923/2/1.

11 – معركة فندق النقازة 1923/2/1.

12 – معركة سيدي الخمري 1923/2/4.

13 – معركة القصبات 1923/2/6.

14 – معركة جبل مسد وقصر الدوون 1923/2/6[1].

هذا عدا الاشتباكات والمعارك الجانبية الصغيرة التي اغفلها التاريخ، وقد استولى الايطاليون على ترهونة عند الساعة السادسة من يوم 1923/2/6 (فبراير).

معركة مصراته التي جرت بتاريخ 26 فبراير 1923.

(1) معجم معارك الجهاد في ليبيا، التليسي، بيروت.

جرت معركة مصراته في 26 فبراير 1923 أي تاريخ سيطرة الايطاليين على تلك المنطقة اذ ان المعارك في المرحلة الثانية من الحرب قد بدأت قبل هذا التاريخ باكثر من سنة كاملة الا اننا اردنا ان نذكر تاريخ الاحتلال لاهمية ما نحن فيه ويذكرها الجنرال غراتزياني كما يلي:

وبعد وقفة قصيرة في واحة (بورويه) استؤنف الزحف بهجمات شديدة في ثقة وايمان، وكانت نفوس الجنود كلها تتطلع الى تلك المدينة التي كانت هي الهدف النهائي للحملة المحظوظة، ففي الساعة الخامسة والنصف من بعد الظهر كانت جنود الملازم (روجيري) طليعة الاي (بتساري) تدخل مدينة مصراته بين الفرح والتهليل العام، وبعد قليل كانت رايتنا تخفق فوق قلعة المدينة، وفي نفس ذلك الوقت وصل الاي غراتزياني بعد زحف سريع باهر الى الهدف المنشود وهو (بئر ربود) وعسكر فيه لحماية واحة مصراته من عودة الثوار المحتملة وهجومهم عليها، وفي الصباح التالي انتقل الى (بورويه) ولكن جماعات الاعداء تحققت من ان كل مقاومة كان لا جدوى منها، بعد ان تقطعت اوصالها وضعفت وحاق بها الذل والهوان ولم يبق لها الا ان تتراجع بسرعة الى الخلف، وتجر معها الاهالي المساكين وتهيم بهم على وجوههم في مناطق سرت القاحلة المعروفة بغدرها وعدم اكرامها للضيف، هكذا سقطت مصراته اكبر مركز نشاط الثوار ودعايتهم السياسية ومقر اركان الزعيم رمضان الشتيوي المخادع، والمقر الرسمي للجمهورية، وكان (الديماقوجي) عبد الرحمن عزام قد اذاع في مصراته شروط (مستر ولسون) رئيس الجمهورية الامريكية التي تعطي الحق لجميع الشعوب في تقرير مصيرها، واستغل سلامة نية سكانها الجهلاء واخذ ينشر برنامجه التضليلي، الذي وجد اناساً يصدقونه ويرحبون به ويحبذونه بين جماعات دعاة الهزيمة والضعف من السياسيين ورجال تلك الجماعة التي كانت تعيش في روما في ظل تسامحنا وتتخذ لنفسها اسم (عصبة الشعوب المظلومة)،الخ.

بسقوط الجبل الغربي وترهونة وبني وليد ومصراته وبانتهاء المعارك العديدة الضارية التي خاضها المجاهدون الليبيون، وقد كانت الغلبة فيها بطبيعة الحال للقوات الغازية لما كانت تتمتع به من سلاح ومن وفرة في الامداد وكثرة في

الجنود، ولما توفر لها أيضا من مساعدات قدمها بعض الناس في البلاد لاسباب عدة لسنا في حاجة الى التحدث عنها، بهذا كله لم تنته الحرب ولا سلم المجاهدون اسلحتهم ولا وهنت عزائمهم او فلت هممهم، بل على العكس تماما فقد انتقل المجاهدون بالمعارك الى مناطق اخرى هي في الواقع اكثر صعوبة، ولكن لا مناص من التضحية بكل شئ في سبيل الله والوطن.

لم تنته الحرب بين الليبيين وايطاليا، الليبيين العزل والفقراء الذين لا مدد لهم ولا عدد تأتي من وراء البحار، وبين ايطاليا الدولة الصناعية الاوروبية الغنية التي لا تنضب مواردها ولا يتوقف المدد اليها من وراء البحر سلاحا وتموينا، لم تنته الحرب يوم 26 فبراير 1923م وانما استمرت في مناطق غرب وجنوب ليبيا ست سنوات وأحد عشر شهرا وثمانية وعشرين يوما حسب المصادر الايطالية نفسها، وهناك من يقول انها استمرت أكثر من ذلك، فقد بقيت جيوب للمقاومة وهناك من ظل في الصحراء ولم يستسلم او يسلم الى ان خرجت ايطاليا نهائيا من ليبيا وان كانوا افرادا او جماعات صغيرة لكنها على اي حال صورة من صور الرفض، رفض الاستعمار او السيطرة الاجنبية، ولم يعرف هؤلاء غير الصحراء التي احتضنتهم، وكانت الارض فراشهم والسماء غطاءهم ولكنهم احرار، وكان يمكن ان ينكسروا دون ان يلينوا، ولم يقبلوا الايدي ولا تمسحوا على الاعتاب (برغم كل آلامهم وجراحاتهم).

5

الفصل الخامس

واهاً لك ايها القبر، عندك المساواة...
فما انزلوا فيك ملكاً عظامه من ذهب
ولا بطلاً عضلاته من حديد،
ولا اميراً جلده من ديباج،
ولا غنياً جوفه خزانة.

الرافعي..

القبلة كما قلنا هي صحراء قاحلة وصفها كثيرون بمختلف النعوت غزاة كانوا ام رحالة، او زواراً او حتى عابرين، قيل أنها (غرفة الانفجار) وقيل انها (القبر المفتوح) وأنها موطن (الافاعي) وحتى العفاريت الخ.

ولكنها ظلت المكان الذي لا يقهر والملجأ الذي لا غنى عنه وقت الشدة والازمات، تتحول وحشتها الى انس وامن لمن خبرها، واذا كانت مصدر خطر بالنسبة للغازي الاجنبي فهي مكان حماية بالنسبة لاهل البلاد، ولا بد ان اسمها قد علق باذهان كثيرين ممن سولت لهم أنفسهم وطموحاتهم او دفعتهم مغامراتهم الى مهاجمتها، وخصوصا الايطاليين وبشكل أخص قائدي حملتي الغزو الايطاليين، الكولونيل (مياني) والجنرال (غراتزياني). فعندما احتل الايطاليون الجبل الغربي صارت القبلة مقر الجهاد الوطني في غرب وجنوب ليبيا، وعندما حاول اولئك الايطاليين بالخطط العسكرية المحكمة والقوات المدججة بأحدث الاسلحة غزوها فشلوا فذهبوا يبحثون عن طرق أسهل للاتجاه الى الجنوب في محاولة أخرى لغزوها من الخلف، فقد اعتقدوا ان وجود قواتهم في الجبل الغربي اذا قابله وجود قوات اخرى في الجنوب يضع القبلة في موضع حرج وخطير وبالتالي يجعل المجاهدين يهرعون طالبين العفو رافعي الايدي بلا سلاح، وعندما تمركزوا مؤقتا في الجنوب، في فزان،وقد نصب الكولونيل مياني مركز قيادته في مرزق لم يكد يجلس حتى اهتزت الارض من تحته اذ اتضح لهؤلاء الغزاة أنهم هم الذين وضعوا أنفسهم تحت رحمة المجاهدين في القبلة، فلقد كانت قواتهم تجتاح المدد، عتادا وعدة وتموينا من شمال البلاد، وبين الشمال والجنوب كانت القبلة، وفي القبلة أناس لا يحتاجون الا الى النزر القليل من الماء والأكل وقادرون على القتال فترات طويلة، يتنقلون في خفة النزال ويهاجمون بشدة الاسد، وجدوا ان

طريق إمداداتهم مقطوعا وان القبلة عصية على الانقياد، حاولوا بعد فوات الوقت ان يفتحوا مسالك للامداد فلم يستطيعوا بكل الوسائل، بما في ذلك الطائرات والقنابل السامة، ولم يفلحوا وما كان أمامهم من مخرج، جعلوا من قواتهم مهزلة لانها كانت كالفأر في المصيدة أمام عرب فقراء يعيشون في الصحراء ولا يملكون الا أسلحة بدائية خفيفة، لا مدافع ولا رشاشات ولا سيارات مصفحة او دبابات وسيارات سريعة الحركة ولا طائرات، ولكن إيماناً قوياً بالله والوطن ورغبة في الاستشهاد، هكذا بالضبط كان الوضع.

جيوش مدججة بجميع انواع الاسلحة المتقدمة في مواجهة عرب سلاحهم الايمان والرغبة في الاستشهاد وبنادق قديمة.

حاول الكولونيل (مياني) الذي جاء ليعيد مجد روما في غرب وجنوب ليبيا، حاول ان يستولي على مواقع آمنة وربما حصينة في الجنوب ففقد ما كان قد استولى عليه في بداية غزوته.

أراد ان يستولي على القبلة ففقد القاهرة وفقد كل المواقع التي احتلها في الجنوب بما في ذلك مقر قيادته (مرزق) وما كان في إمكانه الا ان يهرب بجلده ان امكن. بعث يستغيث ولكن الغوث يأتي عن طريق القبلة، وفي القبلة مجاهدون لا يمكن قهرهم او حتى مجرد التحدث اليهم ليمكن اغراءهم او بث الفتنة بينهم كما فعل غراتزياني فيما بعد بالجبل الغربي ومواقع اخرى.

هرب الكولونيل القائد بعد ان حصل على الاذن من القابع على شواطئ البحر الابيض المتوسط، وعاد يجر أذيال الخيبة يموت غيظا وألما وحسرة وقد فقد ذلك البريق الذي خلقه ثم فقد سمعته العسكرية وانتهى.

وجاء بعده غراتزياني، الجنرال غراتزياني الذي نقل معه عدة وعدد وعساكر ايطاليا وجر وراءه كل الطامعين واللاهثين وراء المصالح الدنيوية، قال انه لن يكرر أخطاء سابقيه لانه سيحرق الاخضر واليابس، فلا يجوز ان تهزم ايطاليا الاوروبية الصناعية امام أعراب صحراويين !!! هكذا قال، وفعلا قتل وشنق وحرق وخرب، لكن القبلة ظلت باقية وبعد معارك وتجارب وصراعات كان عليه ان يطلق عليها الاسم الذي رآه، قال ان القبلة تمثل (غرفة الانفجار) في منطقة طرابلس الغرب.

وهذه حقيقة. فلقد كانت القبلة دائما (غرفة الانفجار) ضد أعداء البلاد الغازين المعتدين، كانت كذلك سنة 1914 و 1915 و 1917 و 1923، وحتى نهاية سنة 1931وستبقى كذلك طالما وجد باغٍ معتدٍ، ولم تكن معارك القبلة بعيدة او منفصلة عن بقية معارك الجهاد في بلادنا ويقول الاستاذ التليسي في شأن القبلة ما يلي:

بالطبع كان لا بد ان يستفيد الايطاليون من أخطائهم السابقة وان يتجنبوا الاحتكاك بهذه المنطقة او التوغل فيها قبل ايجاد القواعد والحاميات وربطها بشبكة من الاتصالات والمواصلات وعدم التوغل في اي قطاع قبل السيطرة على القطاع السابق له، وضمان كافة أجنحة الجيش المتحرك نحو الهدف وما كادت تنتهي العمليات الحربية في منطقة غدامس ومنطقة سرت الساحل في سنة 1924م حتى بادرت الحكومة الايطالية الى العمل على ترسيخ احتلالها للمناطق المختلفة ومحاولة الاجتذاب السياسي لسكان القبلة واقناعهم بعدم المقاومة.

وقد ظل الوضع متجمدا في القبلة ومناطق الجنوب بعد العمليات الحربية التي تمت في الطابونية سنة 1924م وام الخيل في سنة 1924م وكان من المقرر ان لا يتوغل الايطاليون في هذه المناطق الا بعد سيطرتهم على مناطق الخليج والجفرة.

ولم يكد الايطاليون يفرغون من السيطرة على المناطق الواقعة شمالي الخط 29 حتى اتجهوا ببصرهم الى القبلة والمناطق الجنوبية، وكان اهم ما يشغل بالهم عدم اتاحة الفرصة للمجاهدين لان يعيدوا نفس العمليات التي قاموا بها خلال سنتي 1914-1915م وذلك بالتسلل الى مناطق الاحتلال ومهاجمة الحاميات وقطع الطريق على قوافل الامدادات.

وبدأت العمليات العسكرية الجديدة ضد القبلة في 10 يونيو 1928م وذلك بتوجيه الطائرات للاغارة على تجمعات المجاهدين والسكان بوادي (زمزم) ولكن ارتفاع درجة الحرارة ادى الى تأجيل العمليات الي موعد آخر.

وقد خشي الايطاليون من ان يعيد المجاهدون خطتهم الاولى بالسيطرة على (خرمة ابي غره)فوجهوا اليها قوة غير نظامية قام المجاهدون بمهاجمتها يوم 30

يونيو 1928م[1] ونشبت بينهما معركة حامية الوطيس في الموقع المعروف (بوادي اللا) ونعرف انه في هذه الفترة استخدم الايطاليون العناصر الوطنية التي اصبحت في خدمتهم او هي حسب الرأي الايطالي (موالية لهم) ذلك ان القتال في الصحراء كان غاية في الصعوبة ليس فقط بسبب العوامل الجوية والطقس، ولكن تدني الروح المعنوية لدى الجندي الايطالي النظامي الذي افهم ان غزو ليبيا هذه انما هو نزهة ربما فقط تستمر لعدة ايام وهي كذلك تجربة للجيش الايطالي في عمليات الصحراء، كما انه اذا كان من الممكن استخدام العناصر الوطنية في القتال ضد بعضها فان ذلك بالتأكيد افيد لايطاليا وهذا الذي حدث فعلا مع الاسف، ومما يؤسف له ان بعض الليبيين ممن كتبوا عن احداث تاريخ الجهاد الليبي يساوون بين زعماء الجهاد الذين قاتلوا في صف الايطاليين ضد اخوتهم الليبيين واولئك الذين ربما هادنوا او امتنعوا عن المشاركة في الجهاد لفترة من الزمن لاسباب ربما شخصية، اعني ان الذي انضم الى جانب الغزاة وحارب معهم حتى لو غير مسلكه فيما بعد ويكون قد انتقل الى صفوف المجاهدين لا يجب ان يوضع في صف واحد وعلى نفس المستوى من التقدير مع ذلك الذي لم يلتق مع الايطاليين ولم يحارب معهم او يساعدهم باي شكل، (ولا اقول ان الذي تخلى عن مناصرة العدو ربما ثاب الى رشده فانضم الى المجاهدين لا يجب ان يقدر موقفه ذاك، وانما اقصد فقط نسبة التقدير والثناء) وما أقصده بهذا الكلام يمكن ايضاحه في المثال التالي:

(1) نأخذ مثلا خليفة بن عسكر، خليفة هذا زعيم وطني لا شك ولقد ناضل ضد الايطاليين في فترة ما ولكنه قاتل معهم وساعدهم في فترات أخرى بصرف النظر عن الاسباب او الظروف .

(2) الحاج محمد فكيني كان قد كاتب القادة الايطاليين وربما هادن في فترة او حتى تلقى مساعدات مالية فانه لم يقف في صف الايطاليين على الاطلاق ولا حارب معهم او تعاون او ساعد الغزاة، وانما كان مجاهدا وزعيم جبهة نضال كاملة.

---

(1) بعد القرضابية، خليفة التليسي، دار الثقافة بيروت.

(3) الشـيخ سـالم بن عبـد النبي كـان دائمـا فـي صف المجـاهـدين الوطنيين ولم يتقـرب مـن الايطاليين ولا توقف سـاعـة واحدة عن النضـال وحـتى فـي ا لوقت الذي كان فيه مـهددا بالشنق عندما سجنه الايطاليون، واذا كان قد تعامل مع عابد السنوسي فـان هذا الاخـيـر أيضـا كـان في صـف المجاهدين، ولقـد قـاد سالم بن عبد النبي العديد من معارك الجهاد الوطني.

في هذه الامـثلة الثـلاثة لا يمكن المسـاواة بين هؤلاء القـادة الثـلاثة ولا يمكن وضـعـهم في مكان واحـد تاريـخيـا في التكريم المعنوي ولا يمكن ان يـكون لـهم نفس الحب في وجدان الناس، ولسنا نتهم احدا بالخيانة وانما نريد ان نؤكد على ادوار الناس ومـقدار تضـحـياتهم امـا اسـبـاب التـخـاذل او التوقف او حـتـى التـحـول الى جانب اعداء البـلاد فـانهـا اموريجب ان توضـع في ظروفـهـا وسـيـاقـهـا التـاريخي وبالتـالي تقيم تقـيـيمـا مـوضـوعـيا بحـيث يحكم على كل منهم في مـيزان التـاريخ الوطني، وكمـا انه لا يمكن وضـع خـربيش وبن عـسكر والبـاروني في مكان واحـد والنظر الى ما قـام به كل منهم بمنظار واحـد، واذا كنا قـد وقـعـنا في أخطاء كـان دافعها التهوين او التهويل فان ذلك لا يجب ان يستمر.

لقـد اسـتـخدمت القوات الايطالية المجندين غيـر النظاميين بداية في الهـجـوم على الثـوار في القـبلة، وغـيـر النظامـيين هؤلاء هم من أعـوان الجيش الايطالي من الليبيين، ثم اسـتـخدمت القوات الايطالية على نطاق واسـع الطائرات ومـختلف انواع القنابل ولم تكن تميز بين الاهداف اذ كانت الطائرات تقصـف حـتى الرعاة وقطعـان الاغنام ومـواقـع التـجـمـع مـثل الآبار والوديان، ومع كل ذلك كـان المجـاهـدون يردون بهـجـمـات متوالية وكانوا يقطعـون طرق قـوافل التـموين الايطالية، ولم يقـتـصـر ذلك على سـاحـات المعـارك فـقـط بل كانوا يقـومـون بـعـمليـات خـاطفـة في مناطق اخـرى بعيدة.

ولقـد اسـتـمرت هـجـمـات المجـاهدين دون هوادة على الرغم من تدخل الطيـران الايطالي، ولقد اعتـرف القـادة الايطاليون أنفسـهم ان الغـازات السـامـة قد اسـتعملت ضـد المجـاهدين للحد من هـجمـاتهم المتكررة والمتواصلة (اوردنا بعضـا ممـا ذكر عن الغـازات السـامـة والذي ورد فـي كتـاب، ايريك سـاليـرنو، الذي صـدر بعنوان حـرب الابادة في ليبيا).

ويخصوص عمليات القبلة خلال هذه الفترة فإن الجنرال غراتزياني يتحدث عن الفتنة التي نجح في تأجيجها وفي اثارتها، فيقول:

وقد كان من اللازم الآن الاستفادة من هؤلاء للقيام بعمل تدريجي يرمي الى التغلغل في (منطقة القبائل) في هذه المنطقة الشاسعة التي كانت دائما في الماضي تعتبر (غرفة الانفجار) في طرابلس الغرب، ولقد كان احتلال مزده احتلالا عسكريا بسيطا دون تقدم في الوقت ذاته بعمل سياسي للتأثير على البدو الرحل، شيئا قد يكون خطيرا ولا جدوى منه، وقد يمثل كما حدث فعلا (مهماز اخيل) الذي شهدناه سنة 1914م، بالنسبة لاحتلالنا، ومن جهة اخرى فانه على اثر احتلال ورفله وغدامس قد انشئ في بلدتي (غريان والطابونية) وفي طبقه مركز خطير لجمع كل اهالي الزنتان البدو الذين كانوا لا يزالون على استعداد للحرب والقتال وقد اجتمع من حولهم عدد كبير من الفارين من الاقليم الشرقي ومن الجبل.

لذلك كان اللازم استئصال هذه البيئة الموبوءة التي كانت لا بد ان تؤدي عاجلا او آجلا الى الهجوم على الجبل والى قطع خطوط المواصلات مع ورفلة وغدامس، ولم يكن من الواجب ان ننسى ان اراضي منطقة القبائل وخصوصا اراضي (حمادة الحمراء) هي اراض غير مضيافة ومن الصعب القيام فيها باعمال عسكرية بقوات نظامية حتى لو كانت هذه القوات أهلية، واننا كنا في سنة 1924م ينقصنا التخصص الصحراوي والقوات الصحراوية، لذلك كانت من اصعب الامور المسألة التي يجب حلها والتي كانت مع ذلك بسبب أهميتها العاجلة تفرض حلها حلا حاسما.

ولقد كان الحاكم (فولبي) قد اهتم بالبدء بعمل رحلة من خلال افريقيا الشمالية الفرنسية واوفد لذلك قائد منطقة الجبل في حدود اختصاصه.

وكانت العملية التي تمت في هذه المرحلة تعطي مثلا فريدا على الاستفادة من معاونة الوطنيين من الاهالي، سواء في الحقل السياسي او الحقل العسكري، كانت لا تزال باقية في المستعمرة كلها ذكرى خيانة جماعات رمضان الشتيوي ولذلك كان من السهل استخدام الجنود غير النظاميين وتوقع ما لها من نتائج خطيرة، ويضيف: وكان الاي تبلغ قوته حوالي 1000 بندقية بين مشاة وفرسان

ويضم قسمين من المدفعية المحملة على الجمال، وقد تحرك من جادو في يوم 4 مارس للانضمام الى جماعات المشاشي في (ودي الخيل)[1]، على مسافة 100 كيلومتر من جادو وتوقف في هذه الجهة حتى صباح يوم 8 ثم انتقل الى الملاحة، وكان يلتقي باستمرار بوحدات من الثوار كان ينزل بها خسائر فادحة.

وفي يوم 9 إستأنف زحفه نحو الجنوب، واستمر هذا الزحف 14 ساعة لكي يصل الى معسكرات الثوار بين (الطابونية) و (النصرة) حيث التقى بجماعات الزنتان ودخل معها في معركة حامية.

وبعد ان قضى الاي ليلته في مكان العمليات وصل الى محلات الثوار يوم 10 والى (ودي الخيل) يوم 11 وبقي فيها حتى يوم 16. وفي الصباح قامت محلة كبيرة من (الزنتان) يشد ازرها عناصر اخرى من الثوار بقيادة الزعيم سالم بن عبد النبي الطاعن في السن بمهاجمة معسكرنا بمنتهى الشدة وتلت ذلك معركة عنيفة ولكن رجالنا تغلبوا على الخصم الذي ولى الادبار الى (الطابونية) ولقد سقط قتيلا في ذلك اليوم بعد ان اظهر بطولة عظيمة (رونجوفاني) صول سلاح (الكارابينيري) ودفن في (حمادة) غير المضيافة، لكي يكون نذيرا ولكي يلفت اليها الانظار، في مستقبل الايام، وهكذا كانت قوة اسلحتنا للمرة الاولى يسمع صداها في قلب بلدة منطقة القبائل وكانت نساء (الزنتان) اللاتي كن يحتقرن ويكرهن صفات (اعوان ايطاليا) يغنين منذ ذلك اليوم في حزن والم هذه الاغنية.

«وانت أيضا يا حمادة أصبحت لا تساوين شيئا، اذ استطاع اعوان ايطاليا اخيرا ان يتغلغلوا في قلبك».

وبعد ان أدى الالاي واجبه هكذا على الوجه الاكمل عاد الى جادو من طريق (بئر المرحان) و (بئر تلاكشين) وكان النصر الذي احرزناه في حماده قد احدث تأثيرا كبيرا في منطقة القبائل فأخذ كثير من الفارين طريق الغرب وانتقلوا الى الجزائر بعد ان سلموا أسلحتهم للسلطات الفرنسية وآخرون عادوا الى بلادهم الاصلية ولكن اكبر جانب من رجال (الزنتان) رغما من تحملهم خسائر فادحة بقوا

---

(1) المكان يعرف بإسم ، ودي الخيل، وليس وادي الخيل كما ورد، ولقد زرت المكان يوم 1992/5/15م كما زرت موقعة الحمادة الحمراء وهي تعرف بإسم معركة العميان، والعميان هم عائلة من الزنتان

في (الطابونية) لذلك بدأ مما لا يستغنى عنه اعادة احتلال (مزده) ولذلك سرعان ما ارسل الماريشال (مورو) مع ثلاثمائة من رجال الاصابعة غير النظاميين بعد ذلك، وعلى وجه التحديد يوم 10 مارس وصلت الى هذا المكان الفرقة الصحراوية الاولى التي تم تشكيلها حديثا بقيادة اليوزباشي (بياتي) ولكن كان من اللازم زيادة الاحساس بالقوة للحصول على تأثيرات ملموسة في (الزنتان) ولذلك قام الصاغ (جالياني) في 10 يونيو بالتحرك نحو مزده مع قوة من الجنود النظاميين بينما اذيعت بمهارة اشاعة كانت تقول بأن المقصود هو احتلال القريات وفي نفس ذلك الوقت قامت غارة قوية جريئة بالهجوم على (جاس) في الطابونية البعيدة وعلى اثر ذلك تم تشتيت شمل رجال (الزنتان) فقد هرع جانب منهم في الحال الى مزده وسلموا عدة مئات من الاسلحة بينما انتقل الجانب الآخر الى الشاطئ الغربي البعيد، وهكذا تحرر بهذه الطريقة خط الجبل من كل ضغط مباشر كما تم التخفيف عن خط بني وليد، وفي الواقع فإن كل عملية من عمليات الغزو والاستيلاء الاستعماري هي دائما نتيجة لتغلغل بطئ مرسوم لا يجب افساده باعمال هوجاء ولا يجب الاسراع والتهور في هذا الميدان بوجه خاص، فإن احتلال مزده الذي تم في هدوء وصمت وفي غير جلبة والذي لم ينشر عنه اي بلاغ رسمي ولم تشر اليه حتى ولا وكالة (ستيفاني) للانباء، فقد كان الخطوة الاولى في سبيل التغلغل في (منطقة القبائل) والاستيلاء عليها.

ولكن ما كان اصعب هذه العملية بسبب ارادة البدو السلبية العنيدة في الخضوع للحكومة خضوعا كاملا، ولما كان البدو لا يخضعون لاي قاعدة من قواعد النظام والسلطة وقد تعودوا ان يذرعوا الاراضي الواسعة والصحراوية وهم اقوياء في خفة الحركة وسهولة انتقالهم ومتأثرين بسحر الاستقلال ودائما على استعداد للحروب والغارات، فانهم كانوا دائما يعملون ضد كل عمل من اعمال الحكومة، ولذا فان السلطة التركية عندما لم تستطع فرض ارادتها فرضا تاما عليهم اضطرت للاتجاه الى عمل تسويات معهم تركت لهم بمقتضاها اسلحتهم وأعفتهم من الضرائب[1].

(1) نحو فزان، ادولفو غراتزياني.

هذا ما أورده الجنرال غراتزياني عن البدو العرب الليبيين، عن سكان القبلة وكيف أنه قد استعصى أمرهم على الحكومة لانهم متأثرون بسحر الاستقلال، هذه حقيقة، فلقد كانوا مقاتلين اشداء من اجل الحق والحرية وكرامة الانسان.

ويأتي شاهد آخر من الاعداء ليتحدث باعجاب احيانا وبغيرة وحقد غالبا عن هؤلاء الذين كانوا يأبون الضيم ويتحملون عناء الصحراء وصعوبتها من اجل ان يبقوا احرارا، انه الكولونيل (أ – بيلاردينيللي) الذي يقول عن ناس القبلة، ما يلي:

ان حكم هؤلاء القوم وادارة شؤونهم امر صعب ودقيق. وهكذا عبر عن رأيه فيهم المقدم (ايتوري غالياني) الذي كان آنذاك قائدا لمنطقة الجبل في رسالة دورية بتاريخ نوفمبر 1920م عندما بسطنا سلطاتنا على كامل تراب القبلة وشرعنا في اعادة تنظيم شؤون مختلف الجماعات واصلاح امورهم لاستتباب الامن والطمأنينة ونشر الرخاء على تراب القبلة.

ان عدم ثقة الاهالي في القبلة وسهولة انفعالهم الى ابعد حد تحتم علينا انتهاج سلوك يتسم بالهدوء والموضوعية والصرامة الحكيمة المحدودة ورحابة الصدر وتقدير الامور بالتسامح الذي يتمشى مع مستوى فكري اقل درجة من المستوى المألوف.

فلا بد من تحاشي الانجرار وراء ابداء شعور بالعداء السافر او المعارضة الصارمة وكذلك تفادي الصراحة المطلقة التي ليست اقل شأنا ومدعاة للتنديد والادانة، ان اعدام الانسان الرحال رميا بالرصاص اهون عليه من تهديده او الاساءة اليه، فالبدوي الذي يهان ولو بغير قصد من قبل احدنا، يصمت ثم يبتعد وفي اول فرصة سانحة او هكذا يراها ينقض علينا ولو كان متأكدا مسبقا من فشله.

وبالنسبة لقوم اعتادو على مدى قرون حيازة السلاح فان تجريدهم منه امر مؤلم يشعرهم بالخيبة والتذمر، لذلك لا بد من الاحتراس الدائب وانتهاز كل فرصة لازالة السلاح من الوجود ولهذا الغرض صدر منشور يقضي باعدام كل من وجد بحوزته سلاح ولم يبادر بتسليمه.

ولا بد من ان نذكر ان الانسان العربي ليس مطمئن البال رغم ظهور علامات على عدم اكتراثه بما يدور حوله حتى لو دل مظهره على البراءة، ان السعي لجلب هؤلاء الناس والرفع من مستواهم يجب ان يتم بصورة مضطردة وسيفيد كثيرا في تحقيق ذلك الالتزام بسلوك مستقيم[1] .

ويضيف :

ظلت حكومتنا تفكر منذ اوائل عام 1913م في الاقدام على توسيع نطاق احتلالها في اتجاه الجنوب وتراودها الآمال في ان يؤدي ذلك الى ترسيخ احتلالها لقطر طرابلس وبسط سلطاتنا على آخر اطرافه الجنوبية.

وتقرر تنفيذ العملية على اساس الاقتناع بان الاراضي التي تم احتلالها لا يمكن اعتبارها آمنة ما لم تتأكد سيطرتنا على الاراضي الواقعة خلفها، فلضمان امن طرابلس لا بد من السيطرة على القبلة ولضمان القبلة لا بد من احتلال فزان.

الا ان احتلال القبلة التي يسكنها أقوام من الرحل لا يخضعون لسيطرة ولا يتساهلون مع الاجنبي ويستبد بهم التعصب استبعد بالكامل لاسباب تتعلق بصعوبة توفير المؤن والتعزيزات وبالشك في تحقيق اية نتائج من حملة تشن على جماعات سريعة التنقل والحركة الى اقصى حد، وقد تتلاشى وتختفي امام فيالقنا فتقضي بذلك على كل جهد يبذل لهذا الغرض.

ومن هنا كان صدور القرار باحتلال فزان على امل ان يؤدي وجودنا وراء ظهر العصاة الى ارغامهم على التخفيف من تشددهم وحملهم على التراجع والاعتدال فاختيرت سرت كقاعدة للزحف على الجفرة ومنها على فزان، وعهد للنقيب (قادي) بتمهيد الطريق من الناحية السياسية[2].

هكذا تحدث الكولونيل بيلاردينيللي عن خطة الغزو، فلقد كانوا يعلمون ان المرور عبر القبلة مستحيل وان امن طرابلس لا يمكن ضمانه دون احتلال القبلة، ويقصد هنا بكلمة طرابلس، كل الشاطئ ومنطقة الجبل الغربي، واعتقدوا ان القبلة

(1) كتاب (القبلة)، الكولونيل، بيلاردينيللي.
(2) كتاب (القبلة)، الكولونيل بيلاردينيللي، طبعة 1945.

يمكن (كما ذكرنا سابقا) ان تقع بين فكي الكماشة، بين القوات الايطالية المتواجدة في الجبل والقوات الايطالية الاخرى في الجنوب، ورغم كل الاستعدادات والتجهيزات قبل واثناء وبعد القيام بحملة غزو فزان فقد فشلوا في تطويع اهل القبلة ووجدوا بعد فوات الوقت ان قواتهم التي ارسلوها الى فزان قد اصبحت مقطوعة الصلة بتلك القوات التي توجد في طرابلس والجبل الغربي، بمعنى ان فيالقهم في فزان اصبحت محصورة اذ قطع المجاهدون خطوط مواصلاتها، والذي تخوف منه الكولونيل (مياني) في البداية عندما كانت حكومته تفكر في غزو القبلة ثم عدلت عن ذلك لتتجه من مكان آخر الى فزان من اجل تأمين المؤن والتعزيزات (كما قال) لم يفد شيئا اذ انقطعت الطرق والمواصلات وسيطر المجاهدون تماما على خطوط المواصلات وبعد ذاك اشعلوا نار الثورة في فزان بعد ان احتلوا ذلك الحصن الحصين (القاهرة) واضطر الكولونيل (مياني) ان يهرب تاركا مركز قيادته في (مرزق) بل تاركا حتى اولئك الجنود الذين كانوا ضمن قواته لمجرد انهم ملونون اي (ليسوا ايطاليين).

وعلى الرغم من كل الجهود والحشود والتعزيزات واستخدام مختلف الاسلحة بما في ذلك الطائرات والغازات السامة فان القوات الايطالية لم تنل من عزيمة المجاهدين الليبيين ولا استطاعت ان تقتلعهم من القبلة، ومع الطائرات والغازات السامة استخدمت وسيلة اخرى كانت في الواقع اكثر فعالية وهي الفتنة وتجنيد ضعاف النفوس لتحول القتال بين اصحاب البيت الواحد ولغرس عداوة استمرت طويلا بين الاخوة، اصحاب البلد الواحد والمصير الواحد والمستقبل الواحد واللغة الواحدة والدين الواحد.

وفيما يتعلق باستعمال الغازات السامة هذا اعتراف القادة الايطاليين العسكريين انفسهم، فلقد ذكر الكولونيل بيلارديnيللي ذلك صراحة،كما يلي:

زلزلت غارات طائراتنا على الطابونية وقذفها بقنابل الغاز اركان كيان العصاة من جذورها فانزلت في روعهم الذعر حتى التذمر، وتوقفت في الحال عمليات الغزو والسلب والنهب بعدما بدأت تظهر من جديد هنا وهناك وفي كل مكان تقريبا، ونشبت فتن ومعارك محلية بين قبيلة واخرى حتى اضطر الزنتان

اخيرا الى اتخاذ قرار الاستسلام، وكانت حتى قنابل الغاز والطائرات لم تجعل المجاهدين يرمون السلاح ويتخلون عن القتال ومقارعة العدو الغازي الا ان السلاح الاكثر حدة وفاعلية كان سلاح الفتنة وتقاتل الاخوة، ونرى هنا ايضا حديث الكولونيل بيلارديناللي عن حملات الابادة اذ يقول: مارس 1924م.

عندما اصبح من الضروري تسديد ضربة قاصمة (للزنتان) كونت قوة من المجندين غير النظاميين (بربر وريايته ومشاشي واولاد بو سيف بقيادة كبار زعمائهم، يوسف خربيش، محمد جلبان، محمد بن الحاج حسن، واحمد العياط) وأخيرا كلف لقيادة هذه الحملة التأديبية التي كانت أيضا بمثابة الاستعراض لعضلاتنا في القبلة (الرائد ايتوري غالياني) قائد قطاع يفرن الذي كان استعماريا عريقا وضليعا بشؤون تلك الاراضي وناسها وبالوضع ككل.

وكانت تلك القوات متألفة من 900 رجل من المشاة و170 فارسا من الريايته ومفرزة مدفعية محمولة على الابل، وقد تحركت من جادو في اول مارس. في يوم 4 وصلت (بئر المرحان) لتنضم الى مقاتلي احمد العياط القادمين من مزده (حيث استطاع تكوين محلة قوامها 300 رجل بين اولاد بو سيف والاصابعة والقنطرار) وفي اليوم التالي مضت في طريقها صوب (ودي الخيل) حيث ادركتها محلة المشاشي (50 مسلحاً) بقيادة محمد بن الحاج حسن.

بعد ضم جميع القوات في فيلق واحد استأنف الرائد غالياني مسيرته في 7 مارس عبر الحماده حيث تبين انه توجد مخيمات كثيرة للمتمردين (الزنتان) وفي يوم 9 وفي الجنوب من طريق (بئر الناصرية) او (النصرة) – الطابونية، تقابل مع طلائع مقاتلي الزنتان عندما كانوا يتأهبون للانسحاب، فداهمهم وحطم عددا من خيمهم واستولى على ماشيتهم.

وفي ظهيرة ذات اليوم ادرك محلات ضخمة للعدو فشن عليها هجوما بالغ العنف تلته معركة توالت حتى الغروب وانتهت بانتصار قواتنا انتصارا باهرا، الا ان ذلك اليوم المشهود عكر صفوه مصرع (احمد العياط) الوفي، حدث ذلك كالآتي:

عندما اقترب العياط برفقة نفر من اتباعه الاوفياء من معسكر العدو قبل وصول القوات الرئيسية اليه، وشاهد جماعة من المسلحين فوق تل صغير ظن انها

فرصة ثمينة لتحقيق حلمه في الانتقام من اعداء قومه، فاندفع صوبهم على صهوة جواده في تهور كامل وما ان تعرف الجماعة عليه حتى امطروه بوابل من العيارات من بنادقهم وما زالوا به حتى خر صريعا يتخبط في دمه[1].

وبسبب قلة الماء اضطر الفيلق ان يتوقف (بودي الخيل) وفي صبيحة اليوم التالي تعرض لهجوم مفاجئ شنته عليه محلة قوامها (900 مسلح) بقيادة المعلم الرهيب في فنون المكر والخديعة، سالم بن عبد النبي الناكوع الزنتاني.

نلاحظ هنا ان مخيمات المتمردين التي تحدث عنها (بيلاردينيللي) وكانت كثيرة وقد هاجمها الجيش الايطالي ودمر عددا منها هي في حقيقة الامر معركة وقعت في الحمادة الحمراء (القبلة) وتسمى معركة العميان[2] وهي كما يلي:

كانت هناك قافلة من الزنتان تحط رحالها مؤقتا في الحمادة الحمراء وتتكون من عدد لا يزيد على ثلاثين رجلا مع عدد من النساء والاطفال وعديد من الابل، كانت في طريق العودة من الجنوب، وكانت الابل محملة بالتمر وبعض الحاجيات الاخرى، وقد فوجئت بقوات الجيش الايطالي تحاصرها من كل جهة في موقع يمثل تماما (شكل الصحن) اذ لا توجد مرتفعات ولا منخفضات ولا نبات ولا حتى حجارة في مساحة تزيد على الخمسة عشر كيلومترا مربعا ولم يكن امام هؤلاء المجاهدين الا ان يدافعوا عن انفسهم وعائلاتهم فعقلوا الابل ووضعوا (غرائر) التمر كمتاريس وتوزعوا في شكل دائرة مقفلة بحيث يتمكنون من مقاتلة الجيش الذي طوقهم من كل جهة والذي يبلغ عدده حسب رواية الكولونيل بيلاردينيللي نفسه 900 رجل و170 فارساً مضاف اليهم 350 مجنداً غير نظامي من الاهالي اي ما يزيد على الف واربعمائة مقاتل مسلحين باحدث الاسلحة في مواجهة ثلاثين مجاهدا طوقوا في ارض فضاء) لا يوجد فيها ما يقيهم من الرصاص، ومع كل ذلك فقد قاتلوا يوما كاملا والى ان اسدل الظلام ستاره حيث تمكنوا من شق طريقهم على فوهات البنادق وخرجوا من الطوق المضروب حولهم، وقد حدث ان استشهد عدد منهم وكانت خسائرهم في الابل فعلا فادحة اذ ان

(1) كتاب القبلة بيلاردينيللي، طبعة 1935.
(2) العميان هم لحمة أي عائلة من الزنتان وقد عرفت باسمهم هذه المعركة.

الابل ايضا كانت في العراء وكان الايطاليون واعوانهم يطلقون النار على كل شئ (ولقد زرت تلك الموقعة وما زالت هناك قبور لاولئك الرجال الذين استشهدوا في معركة الشرف وقد اقيم نصب تذكاري بالمجهود الذاتي لتخليد ذكرى شهداء الوطن، ولا اعرف على اي حال كيف يمكن ان يطلق على تلك المعركة وصف النصر من طرف العدو الايطالي وبتعبير الكولونيل بيلاردينيللي نفسه اذا كان ذلك الجيش الجرارلم يتغلب على ثلاثين رجلا في معركة غير متكافئة ولمدة يوم كامل ولم يستطع ان يأسر مجاهداً واحداً منهم وقد تمكن الاحياء من اولئك المجاهدين فك الحصار بالقوة والخروج منه، وبعد ذلك تمكن هؤلاء العصاة كما يقول، الزنتان من تنظيم صفوفهم فبيلاردينيللي يقول :

بعد ذلك تمكنوا من ان ينظموا صفوفهم ويهاجموا القوات الايطالية بعد تلك المعركة، ولقد اخذ الكثير من الخارجين عن طاعة الحكومة طريق الغرب للجوء الى الجزائر وبعضهم عادوا الى اوطانهم الاصلية عن طريق غدامس – نالوت، وسلموا الجزء الاكبر من اسلحتهم، الا ان الزنتان رغم الاضرار الجسيمة التي لحقت بهم من جراء الانتصار الباهر الذي احرزه العقيد (غالياني) ضدهم تجمعوا من جديد حول الطابونية حيث تمكنوا بعد زوال الهلع من روعهم من اعادة تكوين محلاتهم واظهروا رغبة في استئناف غاراتهم وغزواتهم.

ما زال الكولونيل بيلاردينيللي، يصر على وصف النصرالذي احرزته قوات (غالياني)إذ كان ثلاثون مجاهدا في العراء باسلحة بدائية بسيطة يطوقهم جيشاً جراراً مزوداً باحدث الاسلحة ومدرب وقد بلغ تعداده قرابة الف وخمسمائة مسلح مع الخيول والمدافع خاض معركة لمدة يوم كامل ضد هؤلاء المجاهدين، وقد تمكن الثلاثون مجاهدا ان يقاتلوا وفك الاحياء الحصار وخرجوا بقوة السلاح رغم جراحهم وثقل حملهم اذ كانوا يحمون النساء ويحملون الاطفال، بعد هذا كله ما زال الايطاليون يقولون انهم حققوا انتصارا في تلك المعركة!!!.

ولكن صدق القديس (اوغسطين) حين قال:

الحكم بلا عدالة، فرصة ولصوصية.

6

الفصل السادس

الى الله المشتكى من زمن
صغرت فيه النفوس
وحل فيه الباطل
وارتقى الزيف والتضليل

وكم من عائب قولا صحيحا
وآفته من الفهم السقيم
مأثور

عندما يقع الظلم او يغمط الحق من عدو او اجنبي غريب عن البلاد واهلها، فانه ربما يكون مفهوما، اما ان يأتي باطلا ويتجنى على المجاهدين الصادقين احد ابناء جلدتهم فذلك ما لا يمكن فهمه اوتبريره او قبوله.

العدو، يكره وله في ذلك سبب، ويتجنى وعنده من وراء ذلك غاية، والاجنبي يخطئ ويغلط لانه غريب لا يفهم الامور على وجهها الحقيقي.

كان غراتزياني او بيلاردينيللي او فولبي، مثلا يقول عن المجاهد سالم بن عبد النبي انه رهيب ومخادع اما ان يأتي مواطن ليبي ويقول انه متواطئ او قاطع طريق او عميل، فهذا تجنٍ وظلم وعدوان على تاريخ الرجل ونضاله. بل ربما على مجمل تاريخ الجهاد الوطني الليبي، كما انه بالتأكيد اساءة بالغة الى ذوي المجاهدين واهلهم الذين يفتخرون باسهاماتهم في عمل مجيد من اجل الوطن والحرية. وكاتب احداث التاريخ لا يجب ان يركن او يعتمد على الاباطيل والاشاعات. وكانت ابنة المجاهد سالم عبد النبي قد سمعت ذات مرة عندما غاب والدها عن البيت من يقول او ربما (يوشوش) انه ذهب ليقبض مرتباً من الطليان فانشدت قصيدة طويلة كان مطلعها:

انكان بوي فيرم عالمعاش اوجابا   انقرب عقاب الطبل للندابا

اي انه اذا حدث ان اباها المجاهد وقع على استلام مرتب فهي ستقدم البقية الباقية من الطبل للندابات، ويفهم من هذا ان الطبل كان يقرع دوما ندبا على اولئك الرجال الذين يموتون في ساحات الوغى.

واحقاقا للحق اردت ان ادون عدة معلومات او ملاحظات ربما تزيل الالتباس الذي يكون حدث بسبب كتابات غير موضوعية او هي قائمة على معلومات سطحية لا تتصل بالحقيقة من قريب او بعيد.

كنا قد مررنا على جزء من رسالة بعث بها المجاهد محمد فكيني الى الجنرال الايطالي غراتزياني ونرى تعميما للفائدة ان نورد نص الرسالة ورسائل اخرى تتعلق بموضوع التعامل مع القادة الايطاليين، وسوف نرى ما اذا كان ذلك التعامل نتيجة لظروف الحرب ورغبة في تحقيق مصالح الوطن ام انه بدوافع شخصية ومنافع خاصة ونتاج نزوات طارئة.

يقول فكيني في رسالته:

الى السنيور الكولونيل غراتزياني

لقد تسلمنا خطابكم وفهمنا مضمونه الذي يتلخص في انكم تخبرونني لاعتقالكم لابن عسكر الذي كان ينوي شن الحرب بينما تريدون انتم الصلح بين اهالي الجبل الى غير ذلك...

ويجب ان تعلموا سيادتكم ان اهالي الجبل (البربر) هم اعداؤكم الحقيقيون ولكنهم بفضل خداع (متزتي) و (الباروني) اصبحوا من محاسيب الحكومة ومحل عطفها، وهذا من عمل (متزتي) لقد فوجئنا بهذه المعاملة غير العادلة تعاملوننا بها ونحن لم نرتكب ذنبا ضد الحكومة.

اننا عندما كنا في حرب مع البربر قدم انصاركم اليهم السلاح والذخائر والمؤن ونحن جميعا، سواء اهالي الزنتان او الرجبان او انصارنا، قد تظاهرنا باننا لا نرى شيئا وبالرغم من هذا لم نهاجم قوات الحكومة.

وفي اثناء ذلك قام الحاكم العام بمهاجمة (مصراته) وعمل على ان يجمع اعيان العرب ويكتبوا طلبات يتعهدون فيها بعدم الاضرار بالحكومة، ولكن نظرا لعناد البربر ومحرضيهم وحماتهم اتسعت شقة الخلاف وازداد الصراع وبقينا نحن اهالي الجبل في الانتظار وكلنا امل في عقد الهدنة، وانكم الآن، على العكس من ذلك، قد بدأتم زحفكم وتقدمت قواتكم لفرض مسألة البربر بالقوة، اما ابن عسكر، فانه بالنسبة لنا اقل خطرا من الفساطوي ومن خربيش اللذين هما

والباروني اعداء هذا الاقليم ومستغلوه في الماضي، وبعد ذلك اذا ما رجعتم الى التاريخ، لقد كنا بالامس نتلقى خطابكم وفي تلك الاثناء كانت قواتكم تتقدم للقتال.

ونحن مع ذلك مصممون على عزمنا على الا نقبل ان تكون للبربر السيطرة والتفوق علينا، وانكم اذا اردتم السلام عودوا الى اماكنكم في زواره، وليعقد الحاكم العام هدنة معنا ومع لجنة المريض بك الشرقية ورفاقه لاننا نحن العرب كلنا بلا استثناء متفقون على ان الصلح او الحرب يجب عملهما على اساس مشترك، وعندما يتم عقد الهدنة سوف نناقش طريقة حقن الدماء واعادة بناء البلاد التي تهدمت بسبب انصاركم وعجرفة البربر.

وانكم اذا اردتم فرض سيطرة البربر علينا فاننا سوف نعترف بكم دون شك كحكومة ولكن سوف نجاهد في سبيل ديننا ومن اجل وطننا وشرفنا حتى آخر نفس من انفاسنا، اما اذا كتب الله لنا النصر فسوف نرضي ضمائرنا وارادتنا واما اذا انتصرتم فاننا سوف نلتجئ جميعا الى الصحراء، ولكن البربر بفضل الله لن يستطيعوا الاقامة في بلادهم رغما عنا ولن يستطيع جنودنا ان يبقوا ساكنين.

هذا هو عزم الجميع وتصميمهم.

وانكم متى عدلتم عن عزمكم يجب عليكم ان تتراجعوا الى الوراء وتقبلوا الهدنة وبعد المفاوضات يصلح الله الاحوال السيئة.

اننا لم نبدأ حتى الان في القيام بأي عمل ضدكم لاننا نريد ان نعرف قبل كل شئ نياتكم، ولكن ارادة الله سوف تتم اولا واخيرا، ولله الامر من قبل ومن بعد، واننا ننتظر اليوم ردكم، (شوال 1340هـ – 4 يونيو 1922م).

خادم البلاد محمد فكيني، وجميع اهالي الزنتان والرجبان والصيعان.

ملاحظة هامة: هناك عدة ملاحظات حول مضمون الرسالة لكي توضع في مكانها الصحيح من التاريخ كوثيقة تطلب وتفرض وتقدر.

اولا، انها جاءت في وقت بدأ فيه الايطاليون يثيرون الفتن بين الاهالي وقد استغلوا فترة الهدوء التي اعقبت معاهدة (اوشي – لوزان) وبعد تكوّن الجمهورية الطرابلسية واختيار زعماء وقادة تلك الجمهورية وما حدث بينهم من خلاف نتيجة

لعدم رغبة ايطاليا في استقرار الامور، فقد كانت الرسالة مؤرخة بتاريخ 4 يونيو 1922م .

وثانيا، اشار فكيني الى الهجوم على مصراته وهو الذي امر به الحاكم (فولبي) مستغلا الظروف التي كانت تمر بها البلاد، وهذا يعني ان فكيني والزعماء الذين معه كانوا ينظرو ن الى ان الجهاد الليبي وحدة واحدة ولم يكونوا يهتمون - بالجبل الغربي فقط او القبلة والجنوب.

ثالثا، اشارت الرسالة الى ان الحاكم كان يجمع اعيان العرب ويطلب منهم كتابة طلبات يتعهدون فيها بعدم الاضرار بالحكومة، وهذا يدل على ان فكيني كان يتهم الايطاليين باثارة الفتن، وان من طرف خفي.

رابعا، كانت الرسالة تؤكد على وحدة الموقف ووحدة الصف ووحدة الارادة لدى المجاهدين عندما قال، كلنا بلا استثناء متفقون على ان الصلح او الحرب يجب عملهما على اساس مشترك.

خامسا، كانت الرسالة تحدد شروطا عندما قالت، وانكم متى عدتم عن عزمكم يجب عليكم ان تتراجعوا الى الوراء وتقبلوا الهدنة.

سادسا، حملت الرسالة تهديدا واضحا وهذا يعني معاملة الند للند حيث تقول، اننا لم نبدأ حتى الآن في القيام باي عمل ضدكم، اي ان العمل يمكن ان يبدأ ضد الايطاليين في اي وقت.

تبقى نقطة اخيرة ربما شابتها بعض الحساسية وهي قصة (البربر) وهذه ايضا كتأكيد على ان الايطاليين قد استغلوا خلاف الماضي او الفوارق العرقية ولقد رأينا انهم داعبوا فكرة الامارة البربرية ولعبوا بها، وان كنا لا نعلم علم اليقين، الا ان هناك اشارات هنا وهناك انهم ربما تحدثوا في شأنها مع الباروني او خربيش، وما حديث غراتزياني عن مسينسا وكسيله والكاهنه الا جزءا من تلك الفكرة، ومن المعروف انه لم يكن هناك خلاف عربي بربري في بداية الغزو الايطالي وهذا يؤكد ان الخلاف صنعه الايطاليون.

واذا كنت في غير هذه الصفحات قد ذكرت ان فكيني كان قائدا لجبهة كاملة من الجهاد (وهذه حقيقة) فانني اود ان اؤكد انه لم يكن زعيما للزنتان

والرجبان، فلقد كانت للزنتان زعامتهم، وهذا بطبيعة الحال لا يقلل من قيمة الرجل. ولم اذكر هذا الا لمعرفتي ان الذين ارادوه كذلك انما كانوا يقصدون الاساءة لا الاشادة، ونرى ان غراتزياني نفسه كان يقول في كل مناسبة عندما يتحدث عن زعماء المجاهدين (محمد فكيني زعيم الرجبان وزعماء الزنتان) اما قائد جهاد الزنتان دون منازع فهو (الشيخ سالم بن عبد النبي الناكوع الزنتاني)، وهذا ما ذكره الجنرال غراتزياني عندما كان يتحدث عن الخطة السياسية التي وضعها محمد بن الحاج حسن قد اعدت بوجود قدامى الزعماء من امثال (محمد فكيني) زعيم الرجبان و (سالم بن عبد النبي) زعيم الزنتان في (المحلة) وقد كان هؤلاء يريدون ان يكونوا آلة الثورة في الجبل حيث لا يزال العنصر العربي بالرغم من اخضاعه وهزيمته يضمر الحقد والكراهية للبربر المنتصرين،ونحن اذ نشير الى هذا الامر انما نريد فقط وضع الاشياء في مكانها الصحيح، ذلك انه لا يضير هؤلاء المجاهدين ما يمكن ان يظهر من فقاقيع سرعان ما تختفي دون ان يكون لها اثر او بقاء، ولقد لحقت الاساءة والظنون رجلاً آخر لم يكن ليبياً، وان كان قد ناضل وجاهد وبذل المساعي الحميدة للتوفيق بين الاطراف التي طرأ ويطرأ بينها الخلاف كما حدث بين قبيلتي ترهونة ومصراته، ذلك هو السيد عبد الرحمن عزام، الذي صحب وصاحب الجهاد الوطني الليبي ونحن لا بد ان نذكره بالخير لما قام به من عمل في خدمة القضية الوطنية.

واذا كان هناك من اساء فهم دور هذا الرجل واعتقد ان علاقة اخيه ببعض الساسة الايطاليين كانت تلقي ظلالا على دوره فانما يكون قد أخطأ، وبشهادة الاعداء انفسهم، فهذا بيلارديتيللي نراه يقول وهو يتحدث عن تأسيس جمهورية طرابلس:

(وكان وراء ذلك كله عبد الرحمن عزام، المصري الجنسية، والشخص المريب الغامض الذي كان يعمل لحساب الباب العالي، كان محرضا وداعية شريرا، ظل يحرض الزعماء الآخرين ويستعديهم علينا ويدفعهم ابدا الى التعنت في مطالبهم غير المعقولة ويتحثهم على رفض كل الحلول[1].

(1) كتاب القبلة، ص 165، بيلارديتيللي، طبعة 1935م.

واذا كان بيلارديناللي قد اعتبر السيد عبد الرحمن عزام في خدمة الباب العالي فان ذلك يعني انه كان في خدمة الاسلام والمسلمين اذ ما زالت وقتئذ خلافة المسلمين قائمة في الباب العالي...

ويقول السيد محمد بن مسعود ما يلي:

وبقيت الاحوال على هذا الوضع من الاتحاد الى ان كانت سنة 1915م، ففي هذا الحين اشتدت في اوروبا الحرب العالمية الاولى التي اشتركت فيها المانيا وتركيا والنمسا وبلغاريا ضد الحلفاء الذين منهم بريطانيا وايطاليا والروسيا وفرنسا، واتصلت تركيا لهذه المناسبة بالليبيين في طرابلس وبرقة بواسطة الغواصات الالمانية وامدتهم بالذخائر والضباط والمال والاشياء الحربية اللازمة، وصار في ليبيا مقران عظيمان، برقة وفيها السيد احمد الشريف واتصل به نوري باشا والاستاذ عبد الرحمن عزام، جاءه الاول موفدا من الحكومة التركية، والتحق به الثاني فورا من مصر حبا في نصرة المسلمين.

ونجد ان السيد عبد الرحمن عزام قد تحدث عن الحرب في ليبيا كثيرا، ولقد كتب مقالا عندما نشبت الحرب بين ابن سعود ملك السعودية والامام يحي ملك اليمن جاء فيه:

قبل ربع قرن كان في الغرب رجل مبعد عن مقر الخلافة والسلطنة العثمانية ولكنه لم يكن يشاطر المنفيين من رجال تركيا الفتاة الآم الحياة في فزان بل كان واليا على ملك يمتد من حدود مصر الى تونس، ذلك هو المرحوم رجب باشا الذي دعي من منفاه في ولاية طرابلس الى منصب وزير الحربية عقب الانقلاب التركي سنة 1908م. كان رجب باشا رجلا فذا غريب الاطوار بعيد النظر،فوقع اثناء ولايته حادث جر الي حرب طاحنة بين قبائل الزنتان والرجبان واولاد بوسيف، وكان بين يدي رجب باشا من الوسائل المادية ما يمكنه من منع الحرب او ايقافها علي الاقل، كما ان له من النفوذ الادبي ما يعينه علي عمل ما يريد، ولكنه ابى ان يتدخل، وواجبه فضلا عن آمال الناس فيه، ان يتدخل، فعجب الناس من امره والحوا في سؤاله وهو لا يجيب، فلما جاء دور الاجابة عمل لانهاء الحرب واقرار السلم ثم همس في اذن الناس انه يريد ان تتعلم هذه القبائل صناعة الحرب، وانه

لذلك يأمل ان يكون الزنتان والرجبان واولاد بو سيف اعصى القبائل على الطليان وامنعها في الدفاع عن البلاد يوما ما.

ولم يعش رجب باشا طويلاً ليرى كيف تحققت نبوءته، فإن هذه القبائل استمرت في الكفاح ضد الطليان عشرين سنة حتى خرجت من أوطانها مهاجرة الى الجزائر في سنة 1930م وفي كتابه الذي اصدره بعنوان (كفاح الشعب الليبي في سبيل الحرية) يقول: لقد ذكرنا في فصل سابق كيف انتقم الايطاليون وحاولوا ان يبرروا المذابح العامةالتي اوقعوها بالمدنيين، انه ليس هناك فارق واضح بين العسكريين والمدنيين في ليبيا كما هو الحال في اوروبا، ثم انه لصحيح ان الرجال كلهم محاربون في بادئ الامر سواء اكانوا شبابا ام شيوخا، قادرين على القتال ام لا، وحتى ان مجرد التصور بأن يستسلم الشعب الليبي للعدو او كما هي العادة في اوروبا ان يعبر برفع الايدي عن رغبته في القاء السلاح، هذا التصور غريب كل الغرابة وبوجه عام عن الشعب الليبي واذا اسلمنا ايضا ان التحديد بين المدنيين والعسكريين هو في الواقع صعب فهناك رغم ذلك كفاية في الحالات التي لا يستطيع العدو فيها ان يصوغ جرائمه على اي وجه من الوجوه ومهما كانت الشرائع التي يظن انه يستطيع ان يصوغ بها حمامات الدم التي اقامها في جميع المناطق التي احتلها فان مذابح النساء والاطفال وحرقهم لا يمكن ان يجد مبررا.

لقد زعم الايطاليون دائما انه لا ذنب لقواتهم البيضاء في اي من الافعال المرعبة بل انها فعل اتباعهم الارتريين، وقد يكون طرف في هذا صحيحاً ولو انه ليس ابدا على الاطلاق، ولكن الم يكن هؤلاء جنودا ايطاليين وقوات ايطالية نظامية يحاربون تحت علم ايطالي ويخضعون لضباط ايطاليين؟ والافظع من ذلك هو حين تقوم هذه القوات الملونة التي هي اداة طيعة بأيدي الضباط الايطاليين بتحقيق برنامج الحكومة الايطالية قبل شهور هاجمت قوات قوامها اربعة عشر الف جندي بقيادة الجنرال (كاسيني) قوات عربية في منطقة قريبة من زواره وتقدمت على طول الشاطئ حتى جنزور، وكان القائد الاعلى نوري باشا آنذاك في مصراته على مسافة سبعة أيام سفر من ميدان المعركة، وما ان علم بتقدم القوات الايطالية حتى توجه غربا وقطع المسافة في أربعة أيام ليتوقف وجها لوجه مع قوات (كاسيني)

وتم ارسال قوات صغيرة فقط الى فندق ابن غشير، هدف حملة العدو على حين ارسلت القوات الكبرى الى طرنية وبير الاضافة بحيث تشكلت على هذا النحو جبهة نصف دائرية، فإذا ما هاجم الايطاليون في منطقة ابن غشير استطاعت قوات صغيرة ان تصدهم على حين كانت القوات الكبيرة حرة لتباغتهم في الخلف، وأما الجنرال (كاسيني) الذي كان يعتمد على تفوق قواته عددياً وشعر بالاطمئنان بنجاح الزحف الذي قام به على طول الشريط الساحلي فقد ظن نفسه قوياً بما يكفي للقيام بهجوم مركز موحد. وفي البداية كانت مقدمة جيشه متورطة في إشتباك، وبعد ساعتين كانت وحدات نوري باشا تطوق القوات الايطالية كلها ودارت معركة استمرت ثماني ساعات قبل ان يتمكن كاسيني من سحب قواته من المعركة وينقذها من الهلاك وللأسف فإن المجال لا يسمح لنا بأن نقدم التفاصيل الا أنه لا بد من القول أنه لم تجد الجرأة ولا الذكاء بقية الايطاليين من الوقوع في الأسر، وكان عليهم أيضا أن يخلفوا قتلاهم، منهم أربعون ضابطا (اثنان برتبة عقيد) وأكثر من ألف جندي بقوا في أرض المعركة بالقرب من سواني بن آدم وكان منظرهم يثير الهول والرعب الا ان الحرب التي لا تعرف الشفقة تجر هذه الامور معها وتضطرنا الى ان نقيس أعمال العنف اللا انسانية بمقياس آخر.

وان الشئ الذي لا يحتمل هو منظر البؤس الانساني الذي يتجلى لاولئك الذين يخطون الخطوة الاولى الى جنزور.

لقد شاهد نوري نفسه بأم عينيه الاعمال الوحشية التي كان العدو يعيث بها فسادا في المناطق التي انسحب منها. حتى الاطفال لم يسلموا، لا بل الحيوانات نفسها لم تستطع ان تلين قلوب جيوش كاسيني المتوحشة التي لا تعرف الرحمة مع انها متمدنة، والابشع في القتل كان التمثيل بالضحايا وانتهاكها، لقد رأيت سبع نساء مسمرات على الجدران والى جانبهن طفل لا حول له عثرت عليه قوات نوري باشا على قيد الحياة كما عثر على سبع وعشرين إمرأة تحت شجرة تين وقد مثل بجثثهن كما وجدت نساء اخريات وضعت جثثهن في كومة وحرقت[1].

(1) كتاب كفاح الشعب الليبي في سبيل الحرية، تأليف، عبد الرحمن عزام ترجمة د . عماد الدين غانم، ملخص، مجلة الوثائق والمخطوطات، مركز الجهاد الليبي.

واننا نعتقد انه لا جدوى فيما لو احصينا جميع الحالات التي وقع فيها هؤلاء التعساء ضحية جلاديهم، وسيكون في وسع القارئ ان يكوّن لنفسه صورة الاهوال والبؤس على ضوء ما قلناه ولا بد من التأكيد على ان الايطاليين نفذوا برنامجهم الفظيع الناقم بلا رحمة وعندما اضطروا الى اخلاء المدن مثل جنزور والزاوية والعجيلات قتلوا كل من صادفوه في طريقهم سواء أكان رجلا ام امرأة، طفلا ام حيوانا.

وعلى ان الايطاليين لم يبلغوا غايتهم الرامية الى إجبار القبائل على الاستسلام بلا قتال عن طريق حكم الارهاب، ذلك لان عزم الليبيين على الدفاع عن وطنهم حتى آخر رجل لم يزدد الا قوة بجرائم الايطاليين، وأما الذين لا يزالون على قيد الحياة من أبناء القبائل فسيذيقون الايطاليين أياماً أكثر حلكة مما شهدوه حتى الآن، على حين يحاولون ان يستعبدوا شعبا شجاعا قليل العدد[1].

ولقد أردت فقط في مناسبة الكتابة عن جهاد الاجداد والآباء ان انوه بفضل هذا الرجل الذي ترك بلاده وأهله في أصعب الاوقات ليشارك المجاهدين الليبيين في النضال من أجل الحق والحرية، ولقد قاسى كثيرا وبذل كل جهد خير للتوفيق بين القوى المتصارعة وكان له فضل الاسهام في انهاء الفتن، وظل يذكر شعبنا العربي الليبي الشجاع بكل وفخر، فله منا جميعا كل شكر وتقدير.

وفي مجال الحديث عن الكتابات والمذكرات خصوصا تلك التي لم تنشر وقد استند البعض على ما ورد فيها او ما ادعاه البعض انه وارد فيها فقد وفقنا في الحصول على دراسة موجزة أجراها الاستاذ (مختار الهادي بن يونس) الباحث في مركز الجهاد الليبي حول ما قيل أنه مذكرات (عون سوف المحمودي) ونود ان نوردها هنا كوثيقة من مختص في دراسة التاريخ بمركز يهتم بجهاد الليبيين، وهي رد بليغ على كذب وتزوير من إدعى صحة تلك المذكرات كمخطوط في مكتبته، واذ نستأذن الباحث مع الشكر مقدما، نقتطف جزءا من الدراسة، وهي كما يلي، يقول الباحث في المقدمة:

في لحظات الغفلة والنسيان ينتهز الانسان الفرصة ليفعل ما يشاء بدون

---

(1) مجلة الوثائق والمخطوطات، منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين، العدد الثاني 1987.

وعي لحقائق التاريخ كما لا يتذكر في لحظة الانسياق ان التاريخ مهما تطاول به الزمن فهو لا ينسى من ذكراته ما أوتي من احداث سواء كانت خيرا ام شرا.

وفي شأن انتحال وتزوير المذكرات يقول الباحث:

ونظرا لخطورة مثل هذا التصرف في المذكرات الذي يتنافى ومنهج البحث الذي يحرم المساس بالنص الاصلي او التحريف فيه سواء بالاسقاط او الدس او التعديل، بل يؤكد على ضرورة الحفاظ على صورة النص او المتن الاصلي وبالابقاء على كل ما به من عيوب ونواقص لكي يكون مقياسا صحيحا يستدل به على معرفة عصر المذكرات الثقافي والاجتماعي والسياسي من خلال معلومات كاتب المذكرات، وما التصرف الذي تم فيها الا تجرد من الامانة العلمية وانتهاك لحرمة نصوصها فضلا عن اهدار قيمتها كمادة مرجعية من أجل انتحال نسبتها لعون بن محمد سوف بحيث أصبحت بضمير المتكلم، اي اقحم بعون بان اصبح متحدثا وكاتبا ومؤرخا بدل الحديث عنه بضمير الغائب كعين من أعيان الجهاد والنضال من قبل كاتب مجهول، تم ذلك دون التنبيه الى خطورة مثل هذا التصرف وما ينجر عنه ويترتب عليه من نتائج وانعكاسات سلبيه على قيمة المذكرات، وهذا التصرف ليس الاول والاخير فهناك الكثير من حالات التصرف في الوثائق بالحذف والزيادة والتزوير والانتحال، توجد منها أمثلة حية بين يدي تم كشفها مؤخرا، قام بها البعض ممن يتطاولون في محاولة فرض أنفسهم على التاريخ في حين غفلة وانسياق وراء الرغبة في بناء أمجاد زائفة ومفتعلة، فهل كان عون سوف في حاجة الى مثل هذه التصرفات غير المسؤولة بان يقولّوه ما لم يقله ويجعلوه كاتبا ومؤرخا... ويضيف الباحث.

هكذا وبكل بساطة ويسر وفي غفلة يتم تسريب وتمرير الجمل والعبارات وتعدل اخرى وتسقط ثالثة لعلها تصبح على مر الايام حقائق ثابتة وتكون مصدرا من مصادر تاريخنا الذي لم نفلح بعد في كتابته بصورة صحيحة وشاملة لما يعتريه من عراقيل، ولعدم التزام الصدق والتجرد من الانانية والروح القبلية وعدم اتباع منهج البحث التاريخي واصوله، ونذُرة المصادر ايضا، فعلى المؤرخ او الكاتب ان لا يقبل او يستخدم كل وثيقة او اي محررة مهما كانت قبل التثبت من

صحة نسبتها لكاتبها وصحة وخلو نصوصها من الدس وايضا صحة معلوماتها، اي قبل استخدامها عليه ان يقوم بعملية نقد منهجي من جميع النواحي حتى لا يقع في الخطأ وحبائله مثل ما وقع الاستاذ القشاط الذي ربما كان عن حسن نية، ولكن حسن النية لا يشفع ولا يبرر للكاتب موقفه مهما يكن، وعلى العموم فالنسخة السادسة التي استخدمها الاستاذ القشاط بها زيادات واضحة ربما كانت من وضعه، ولكن تدخله في النص الاصلي بالتعديل والتصحيح فضلا عن علمه بحقيقة المذكرات كان صريحا[1].

هكذا يتضح وحتى من المذكرات التي تحدث عنها القشاط انه زور وتحايل بالاضافة الى ما نسبه الى اموات وهم بطبيعة الحال لا يتكلمون، وكان يريد بذلك ان ينسب لقبيلته ما ليس لها، وفي هذا نكتفي بما ذكره الباحث الاستاذ مختار الهادي.

وعلى هذه الدراسة القيمة والموضوعية لا يسعنا الا ان ندعو مركز دراسة جهاد الليبيين الى المزيد من الدراسات الجادة الناقدة خدمة للتاريخ وتأكيدا للهوية الوطنية التي تؤدي بالضرورة الى ربط الهوية الوطنية بالمصير القومي على اننا نرى ان ما يقوم به المركز يستحق التقدير.

وفي الحديث عن حقيقة معارك الدفاع عن الجبل الغربي توفرت لنا الكثير من المعلومات الشفهية، عن الجوش والوخيم والملاحات وودي الخيل وصفيت والسلامات ومرزق وبراك وقاهرة وتكوت الخ، الا اننا مع ذلك لم نركن اليها لاحتمال الاشتطاط او المبالغة او الخروج بتلك الاحداث اما عن سياقها التاريخي او حقيقة تفاصيلها، واكتفينا بالاحتفاظ بها كوثائق مسجلة.

(1) البحث الذي اعده الاستاذ مختار الهادي يقع في 26 صفحة من الورق المتوسط وقد اثبت في الصفحات (8-14-15) ان الذي استخدم تلك المذكرات قد حرفها وزور فيها، وللتاريخ نشر البحث في اخر هذا الكتاب.

7

الفصل السابع

رأى اول خط لنفسه لأنه هناك
في نصيب المشترع مطمئن اتى رأساً
للشعب وأجرى عدل الرب وأحكامه

سفر تثنية الاشتراع.

سالم بن عبد النبي الناكوع الزنتاني، هذا المجاهد الفذ، البطل، صاحب القدرة العسكرية دون ان يدخل كليات للعلوم العسكرية، قائد المجاهدين دون ان يدرس مناهج اركان الحرب، المخطط الذي لم يضع في جيبه ولا في كمه خرائط او مخططات.. هذا الرجل الذي قاد الرجال والمعارك، كان حظه من العلم الحديث قليلا، ولكن قلبه كان عامرا بالايمان، فقد قرأ ووعى مفاهيم القرآن الكريم فاتسع وجدانه ليتحمل ويصبر ويقنع (بندقية في اليد وكتاب الله يتدلى على الجنب ورأس لا يعرف الطأطأة) هذا الرجل لم يحظ بحقه من التقدير والمعرفة والعرفان، وانه لمن الحيف ان لا يوضع في موضعه الحقيقي عند الحديث عن الجهاد الوطني في بلادنا، وموضعه بالتأكيد في الصدارة مع عمر المختار وعبد النبي بالخير والسويحلي والشتيوي وفكيني وغيرهم من قمم النضال الوطني في ليبيا.

وأنه لمن المخجل ان يخضع التاريخ الوطني للاهواء والمطامع، وما كان ولا يجب ان يكون التاريخ الوطني في اي وقت مطية للقفز والارتقاء، ولا جسرا للعبور الى مواقع المنافع والمناصب او الشهادات، ولا يجوز ولا يجب ان تكون احداث التاريخ الوطني معاثر او مواخير او معابر،ولا حتى معابد او سجوناً ومشانق، ذلك ان التاريخ لا مِنة فيه عند الحساب وليس لعبة في صخب الليل او هدأة النهار، والانسان في حساب التاريخ لا يجب ان يوضع في الاعالي او الاغوار بجرة قلم، وانما التأريخ للرجال والاحداث يجب ان يقيّم على ضوء وفي سياق الظرف الزماني والمكاني والمعيشي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي، وهذه جميعها مترابطة فاعلة ومؤثرة في اي حدث او احداث.

ولم يكن هؤلاء المناضلين الا ابناء مجتمعهم المتأثر بالزمان والمكان والسياسة والاقتصاد حتى لو كانوا في أعماق الصحراء ومجاهلها، وربما ليس هناك استثناء في هذا الشأن.

وان لم يكن ما اكتبه الآن عن المجاهد سالم بن عبد النبي الناكوع تأريخا لنشأة وحياة وكفاح هذا الرجل[1] فانه جزء في سياق الحديث عن جانب من الجهاد الوطني الليبي وجري على العادة في استكمال الصورة، واذا كان هذا الامر قد عنّ لي فانما اقصد به اضافة ربما تكون مفيدة في هذا الكتاب.

لقد كان سالم بن عبد النبي نجما من نجوم بلادنا المتلألئة في تاريخ الجهاد الوطني الليبي، وكان حاضرا في كل مواقع النضال لاكثر من عقد من الزمان في القبلة والجنوب، وقد قاد سلسلة من الاعمال البطولية بنفس راضية مفعمة بالثقة والكبرياء والزهد، وربما كان أعظم تلك الاعمال الجهادية قيادته لمعركة (القاهرة) في سبها التي جرت يوم 28 نوفمبر سنة 1914م، تلك العملية المحكمة والتي تمت بنجاح كبير اذهل القادة العسكريين الايطاليين الذين كانوا يتوقعون ان تلك (القارة) وهذا اسمها بالمفهوم المحلي، ما كان يمكن ان تسقط، ولا كان لاحد ان يصل اليها بسهولة ويسر، وكانت تلك العملية العسكرية كما اسلفنا هي بداية الثورة العارمة في الجنوب والتي قضت نهائيا على الوجود العسكري الايطالي في مناطق فزان، وقضت تبعا لذلك على المستقبل العسكري لقائد تلك الحملة الايطالية الكولونيل (مياني) واستمر بعد ذاك بين صفوف اخوانه في الجهاد فهو الذي يتقدمهم وقت القتال كقائد في المعارك ويشاركهم افراحهم واتراحهم في اوقات الهدوء والراحة التي كانت قليلة او هي نادرة يقدم العون والمشورة والنصح فهو حافظ للقرآن الكريم ومتمثل بالسنة المحمدية وحافظ للشعر، بل يقرضه اذا اقتضى الحال، ولقد كان الشعر الشعبي احد اسلحة القتال ضد الكفار، كان يؤمهم للصلاة ويؤذن فيهم، ولقد كان اول عمل طلبه من المجاهدين عندما هاجم قلعة (القاهرة) هو طلب اعلان صوت الحق، ان الله اكبر، فقد ارتفع الآذان فوق القلعة وبدأ اطلاق النار لتحرير الموقع. لم يكن يتمتع بحياة الدنيا اذ كان زاهدا يعيش على قليل من التمر كما يعيش اغلب المجاهدين رغم توفر رزق الله، اذ كان المجاهد يملك الشئ الكثير، ابلاً واغناماً الخ، ولقد سمعت ان المجاهد كان دائما يردد كلما اختلى بنفسه متأملا، بيت المعري، (تعب كلها الحياة فما اعجب الا من

(1) سيكون للمؤلف دراسة وافية عن سيرة حياة وجهاد سالم بن عبد النبي قريباً ان شاء الله.

راغب في ازدياد) وكان لا يقرر شيئا الا بعد تفكر وتمعن وتأمل، يتشاور مع رفاق الدرب عقلاء القوم ولقد حدث ان اتخذ احد أجرأ قراراته بعد ان رأى انه ليس من الحكمة ان يتحمل الاتباع تبعات ما يجب ان يقع على كاهل القائد.

كان في الصحراء، في منطقة غات على الحدود الليبية الجزائرية، اذ كان قد اشتد ضغط القوات الايطالية على مواقع المجاهدين الذين كانوا في ترحال دائم اوائل سنة 1929م، وكانت ايطاليا قد حشدت القادة والقوات من اجل السيطرة الكاملة على البلاد وكانوا يعتقدون انه لمجرد وصول اخبار الحشود سوف يلقي المجاهدون السلاح طالبين الرحمة، ولكن ذلك لم يكن ممكنا وبكل البساطة رغم ضنك الحياة وشظفها، فقد كانت الصحراء وقلة الماء والغذاء وحتى المرتع للحيوانات التي تمثل جزءا هاما في حياة الناس، كان يمكن للمجاهد سالم بن عبد النبي ان يستمر فيما انتوى لكي يبتعد عن الايطاليين واعوانهم، اذ كان يسير بمن معه ليلا ويحط الرحال في النهار لكي لا يتم رصد حركاته، الا انه بعد ان رأى الحالة التي اصبحت عليها حياة اتباعه، كانوا اطفالا ونساء وكبار سن وجرحى، وكان المتاع قليلا والطريق طويلاً، جمع الاصحاء من رفاقه وبثهم ما كان قد فكر فيه طالبا الرأي، قال انه ليس من العدل او الانصاف ان يعاني هؤلاد الناس كل هذه المعاناة اذا كانوا يحسون باننا نبتعد فقط لننجوا برقابنا .. ولقد رأيت ان اسلم نفسي طالما انه لم يعد ممكنا الاستمرار في الجهاد وليسترح هؤلاء الناس رغم انه لا راحة في ظل السيطرة الايطالية، وبعد نقاش طويل حزم امره وقال:

اذا امكن الحصول من الايطاليين على وعد (رغم عدم صدقهم في الوعود) على حياة هؤلاء الناس فسوف اسلم نفسي، لا يكلف الله نفسا الا وسعها، ورغم عدم اقتناع رفاقه الاقتناع الكامل فانه قد رأى منهم القبول رغم الاشفاق عليه من الاعداء الذين لن ينسوا له اعماله وخصوصا ما الحقه بهم من عار في معركة (القاهرة) عزم وتوكل، فارسل لاول مرة رسالة الى القادة الايطاليين يطلب منهم الامن والامان (كشرط لتوقفه عن القتال وتسليم نفسه) لقافلته، بعث الرسالة مع ابنه صالح وجعل معه رفيقا، رفيقا ليشهد ويشاهد، ورغم الوعود والعهود فان الايطاليين قد اودعوا ابن المجاهد الكبير احد السجون في براك ونقلوا سالم بن

عبد النبي نفسه تحت الحراسة المشددة، اذ اعتقدوا انهم حققوا عملاً جباراً، ذكرهم المجاهد بالوعود فقالوا انه اجراء لا بد منه وسوف يلتقي الحاكم العام الايطالي في طرابلس، وكما هي العادة، فقد كان اللقاء، وكان الحاكم المتغطرس المتبجح، وعرف المجاهد بان الوعد لا قيمة له عند هؤلاء الناس، وكان عليه ان يستخدم ذكاءه الذي عرف عنه.

بعد اجراءات التحقيق التي صاحبها كثير من الاستفزاز ايقن المجاهد الكبير ان لا مفر من التحايل والتدبر للتخلص من قبضة هؤلاء الطغاة الذين لا يرعون العهد ولا يحترمون تاريخ الرجال ولا حتى كبر السن، فطلب ان يرى الحاكم العام لامر هام جدا، وبعد بعض المماطلات، نقل الى حيث مكان الحاكم الايطالي، وعند اللقاء ذكر للحاكم انه اثناء ايقافه طيلة الفترة الفائتة فكر جيدا وقرر ان يسلم للسلطات الايطالية كميات كبيرة من الاسلحة كان قد خبأها في موطنه وذلك كدليل على حسن نواياه، فقرروا نقله مرة اخرى الى موطنه تحت الحراسة المشددة والحذر، وقد بين لهم المكان وطلب منهم ان يحفروا في الارض، حفروا ووجدوا كميات من الاسلحة، حيث نقلوها الى مركز المنطقة وبعد ذاك طلب السماح له بالاقامة ولو لفترة بسيطة مع اسرته ولكن الامر جاء بان ينتقل هو واسرته الى مكان آخر، ربما رغبة في وضع الاسرة كلها تحت الحراسة، وقد عرف ما يدبر له، فطلب السماح له بان يبيع بعض المواشي وان يسلك بعدئذ طريقاً يتوفر فيه المرعى لابله واغنامه، كانوا قد جاؤا به قبل البحث عن الاسلحة الى القلعة التي كان قد هاجمها واحتلها سنة 1914م، ليراها من جديد ربما لانهم ارادوا افهامه انهم قد عادوا اليها، وسألوه ما اذا كان يمكنه ان يهاجمها مرة اخرى لو عادت الامور الى ما كانت عليه، اي لو كان طليقا فاجاب، لكل وقت تدبر.

كان يفكر في الخلاص منهم وكانوا يفكرون في اعدامه وسجن اهله، كان ابنه في ذلك الوقت سجينا لدى السلطات العسكرية الايطالية.

في الطريق وقد كان المجاهد مصحوبا بالعدد الذي اعتقدوا انه كاف للحراسة المشددة على رجل مسن لا يملك سلاحا، كان قد تدبر امر الفكاك، وقد عرج بحراسة الى مزرعة يملكها حيث اعد لهم الاكل والشراب اللازم، واثناء تناول

الاكل كان يذهب الى مكان قريب ويعود في كل مرة وقد اطمأنوا لذلك اذ كان المكان تحت انظارهم وليس مع الرجل سلاح ولا مركوب والمنطقة محاطة بفضاء لا يمكن ان يختفي او يختبئ به احد، وفي لحظة من لحظات الزمن النادرة اختفى عن الانظار وكان رفاقه في الانتظار بالابل والسلاح والزاد فاسرعوا جميعا في اتجاه الحدود الليبية التونسية وهي ارض خبرها جيدا هو وصحبه طيلة سنوات الجهاد، وليس هناك اقدر على الصحراء من رجالها الذين يعرفون مسالكها ووديانها واعشابها ومواطن وعورتها.

وبثت الاخبار وقد وصلت سريعا الى كل مكان وجندت القوات بكامل معداتها بحثا عن الشيخ الذي هرب، ولكنهم رغم كل ما حشدوا من قوات وما استخدموا من مخبرين تاهوا في الصحراء دون ان يلحقوا او يعثروا على اثر لقافلة المجاهد سالم بن عبد النبي الى ان وصل الحدود التونسية واجتازها بعد اكثر من اسبوعين كاملين من السفر، وقد استقبل بالحفاوة والتكريم اللازمين لرجل يستحق التكريم، استقبله المواطنون التونسيون والمجاهدون العرب الليبيون الذين كانوا قد نزحوا قبله الى تونس، ولقد أقام المجاهد الكبير في تونس اربعة عشر عاما حظي خلالها بكل التقدير والاكرام وكان له نشاط ملحوظ بين المجاهدين الليبيين المقيمين في تونس والذين كانوا يتواصلون ويتدبرون امورهم وامور بلادهم من خلال جمعية عرفت باسم التوادد والتعاضد وفي تلك الفترة لم تجد السلطات الايطالية ما يمكن ان يشفي غليل انكشارييها الذين بسطوا سيطرتهم على التراب الليبي غير اصدار قرارات مصادرة جميع املاك سالم بن عبد النبي واسرته وذويه في كل من الزنتان وفزان ووضعت شقيقه وابنه تحت المراقبة العسكرية الدائمة.

بعد انتهاء الوجود الايطالي في ليبيا، فقد خرجت ايطاليا من ليبيا وعادت تجر اذيال الخيبة مهزومة كسيرة في الحرب العالمية الثانية، عاد المجاهد العربي الليبي سالم بن عبد النبي الناكوع الى مكان إقامته بادري في فزان في أبريل سنة 1943م اي بعد هجرة قسرية استمرت اربعة عشر عاما قضاها في تونس، ولم يمكث طويلا في ادري اذ عاد الى القريات مقر اقامته، ولم يعش طويلاً، فقد اسلم

روحه الطاهرة بعد ذاك مباشرة، وهكذا نرى ان الرجل قد قضى اكثر من نصف عمره في جهاد ونضال ولقد شهد النصر والعزة والانكسار، وتلك هي دورات الايام، لكنه انتصر للوطن وعاش له، وكما ان الحياة ليست كلها طمأنينة وسعادة وجمال وهناء، فان التاريخ ليس كله مآسي وحروب وشناعة وقبح، ففي الاولى جمال وفي الثانية مجد وتلك كانت حياة وتاريخ الرجل من سنة 1911م الى سنة 1943م.

رحمه الله رحمة واسعة، فقد كان فقيها وشاعرا ومتحدثا ومجاهدا ثم زعيما للمجاهدين، ولا بد في هذه اللمحة ان نقتطف بعض شذرات شعره، وكذا الشعر الذي تناول بعض معاركه.

ولقد كانت اشهر قصائده تلك التي تتعلق بمصير ابنه واخيه، فقد حدث انه عندما نفذ من العسكر الايطاليين والتقى رفاقه الذين اعدوا العدة للسفر، سألوه ماذا عن صالح وعمه وهذان هما ابنه واخوه، فقال: لله ما اعطى وما اخذ، ولقد فقدنا الكثير، ثم صمت، وبعدئذ انتشرت قصيدته التالية:

قال في البداية مطلع القصيدة ثم احجم عن الاستمرار ولم يكملها الا بعد ان استقر به الحال، ومطلع القصيدة يقول:

صالح وعمه والحبيب الداني حزين بعدهم ما ريت ما زهاني

ولقد اكمل القصيدة بعد ان استقر به المقام في تونس وآنست نفسه الى الرفاق وهون عليه ذلك الاستقبال الحار الذي لقيه ألم الغربة وترك البلاد، فقال:

صالح وعمه والحبيب الداني

حزين بعدهم ما ريت ما زهاني

اسقدت ما وصوني مشيت مشى

مشى الكدر يا مظنوني

افوين نذرعه نلقي اللباس

ثموني، وين نقلب التدبير ما واتاني

تكالي على ريمهم كـادوني
وحكرت ريموز العجـاج غطاني
صـالح وعمه والحبيب الداني
اسـقـدت غـيـر ابطولي
خـبـر قص لا ان قلت لا قـالولي
لا خوت مدوا معاي لا مرحولي
لا سـلاح في يدي انقـول زود هاني
انا والرفق، غيـر العصا والحولي
وظهر الغديد ورحمة الرحمن
صـالح وعمه والحبيب الداني
اسـقـدت مـا وصـيـتـه
قعد تحت برماك الكفر خليته
بجاه الاله والنبي في بيته
اينجيه منهم كيف مـا نجاني
يكروه كـر الدلويا لسميته
يبـزع لبـره من طوال سـواني
صـالح وعمه والحبيب الداني
حطيت قـور الميـده
تقـاصـيت وابلادي عليّ بعيده
مكاتيب صـالح فـارقـوه لسيده
ودالت عليه حكومة الطليـاني
والبـاب يضـبح والسلاسل في ايده
ووقـاف بالسينقي عليهم تاني
جـاويك يا لسمر عليه غديده
خـيب عناهم واجلبه يا تاني
ليـا ناب ربي مـا على الله كيده
لبـارح منام الليل لنه جاني

ويا لله تجعل حلمتي بوكيده
ومفتاح باب الخير ما يخطاني
صالح وعمه والحبيب الداني
حطيت برقبلي
ثلاثين وجبه مشى دون محلي
وكان عشت عالطول الزمان انولي
ساهل ليا كان الكريم عطاني
بلادي شهيرة وقصرها متعللي
وقصبة غزالة بنيها روماني
ووادي وهيبة ومرقب الورفللي
على ناسهم يا موعر النسياني
ريت يا غمامة خاطري تجللي
يجي نصر فايت ناخدوهم تاني
ويا رِجَلْ تبدي في البلاد تطللي
وفي كل خرمة يلاطمك زنتاني
يلاطمك يساير عقاد
خيلهم زي القطا اللي طاير
يطرب ليا جاهم كلام نذاير
رباط يصبح وراء الحيوان
وفي كل وطن معقبات جراير
نعال خيلنا منين الفلك واتاني
ويا ما مخللي من بنات حراير
حزينات وينوحو كما نوحاني
صالح وعمه والحبيب الداني
حزين بعدهم ما ريت ما زهاني
صالح وعمه والحبيب معاهم
مشينا في حال الكدر خليناهم

تلفتت رقراق السراب غطاهم
لا قابلوا خوتي ولا جيراني
صبرت، صبرجمال عالفرقاهم
اصرم على الغزل كيف نقاني
ليا دورسو الايام شين صداهم
درياس ولت بسرتا الفزاني
ثلاثين وجبه مشى طبقناهم
سمور غالغديدي نومهم ما جاني
نزلت بر ما جانيش فيه نباهم
على دوز مكتوب الزمان رماني
وساهل ليا كان الكريم عطاهم
ساعة سعادة نصرها رباني
زي القمر والشمس فوق سماهم
ترزق على المشغول يصبح هاني
يطيح كفرهم من الارض تشرب ماهم
تنور الشريعة بحكمها الحقاني
صالح وعمه والحبيب الداني
حزين بعدهم ما ريت ما زهاني
حكمها بعد الله يقصر
كلام الكذب على قاله
وتظهر عصاة الحق فوق قباله
لا عاد زور لا لقاني
هذا نبي ونزلت عليه رسالة
يا مخالفينه علمكم شيطاني
وهللي ظلم لازم عليك قتاله
الظالم سوى مسلم سوى نصراني

المظلوم وين يموت عند حلاله

ميت شهيد وشن ايدور تاني

صالح وعمه والحبيب الداني

حزين بعدهم ما ريت ما زهاني

صالح وعمه ونسبته وعياله

قصد بينهم يلطف الله بحاله

مالاه بر طرابلس ورجاله

له دهر في هم الزمان يعاني

عليه البحر لوح كثير عماله

على كل نص مخالفه لالواني

لا تفرز اللي في الوطى يتكالى

لا تفرز اللي يطير بالجنحاني

ناديت بن لسمر عليك تعالى

وفزع رجالك فزعة الديوان

ويا خالقي عندي عليك دلاله

وفيّ علي كيف قال لساني

يا من خلق في الارض كل عماله

منك طلبت اللطف يا رحمن

فيسع اتبطل حركته واشغاله

لأمة محمد عجل البرياني

صالح وعمه والحبيب الداني

حزين بعدهم ما ريت ما زهاني

من يقرأ هذه القصيدة البليغة والتي يغلب عليها الجانب الصوفي، ذلك ان الشيخ سالم كان متفقها في امور الدين يلاحظ انه يتحدث عن الشهادة والتضحية من اجل الوطن، وان المظلوم عندما يموت من اجل بلاده ورزقه انما يكون شهيدا، ولعله من المناسب ان نشير الى معاني بعض الكلمات التي قد يصعب فهمها مثل، غديد، غمامه، اصرم، دوز، لقاني.

الغديد، هو الجمل القوي المكتمل الذي رتع في الربيع، والغمامة هي سحابة الحزن الكثيف المفاجئ،اما اصرم فهي تعني انصرم وتداخل وقد يصعب ترتيبه من جديد كالقول انصرم الغزل،دوز هو اسم لمنطقة في تونس كانت اول مكان توقف فيه المجاهد، ولقاني اي الكلام غير الصحيح او الهراء اي الزلل من الكلام.

وفي مطلع القصيدة يتحدث المجاهد عن ثلاثة، الاول ابنه صالح، والثاني شقيقه الذي سجنه الايطاليون مع ابنه، والثالث (الحبيب الداني) وقد اختلف الرواة في امر الطرف الثالث اذ منهم من يقول انه يقصد اسرته، بمعنى زوجته وهناك من يقول انهم صحابه الثلاثة الذين كانوا يرافقونه دائما في عملياته الحربية وهم يمثلون مجلسه الحربي، ونحن نميل الى الرأي الاخير اذ لم يكن من المعتاد الحديث عن الزوجات بين مثل هؤلاء الرجال وفي ظروف مجتمعهم، وهؤلاء الثلاثة هم: المجاهد علي الشنطة والمجاهد محمد الدحنوس والمجاهد سالم دنه، وهؤلاء من قبيلة المجاهد سالم عبد النبي، وربما يكون معه آخرون في تدبر شؤون الحرب وان كنت قد سمعت اسماء هؤلاء الثلاثة فقط ولذلك اوردتها كما هي (وهي تحتمل الخطأ والصواب).

ونورد هنا تلك القصيدة البليغة التي نظمتها ابنته الكبرى المدعوة (أعنايا) والاسم هكذا ينطق لدى هؤلاء الناس وهو ربما يعني (عناية) وعندما اجرى مركز أبحاث جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي المقابلة مع السيدة اعنايا ذكرت ان عمرها آنئذ (95 سنة) وقد جرت المقابلة يوم الجمعة 1987/10/24م) والشريط الذي نستقي منه هذه المعلومات مرقم برقم (268/8) وقد ذكرت السيدة اعنايا ان والدها الشيخ سالم بن عبد النبي قد تزوج مرتين وانه انجب خمس بنات وستة اولاد عاش منهم ستة (ثلاث بنات وثلاثة اولاد) وهي التي عاصرت فترة جهاد والدها، وكانت شاعرة بليغة مثلها مثل اخيها عبد النبي ووالدها الشيخ سالم، ولقد حرصنا على ان نسجل قصيدتها البليغة ورد والدها عليها رغبة في تسجيل هذا النوع من الادب الجهادي وتأكيدا على ما يتمتع به الشيخ سالم من مكانة اجتماعية وأدبية وعلمية فقهية بين اهله وذويه ورفاقه في الحياة والجهاد، وكما ذكرنا في صفحات سابقات ان القصيدة كانت تقول في مطلعها (انكان بوي فيرم

عالمعاش اوجابا انقرب عقاب الطبل للندابة). والحقيقة ان مطلع القصيدة قد اختلف عندما سمعنا التسجيل وبالتالي احببنا ان نورده كما هو:

انكان بوي طلين للمعاش اوجابا
انظهر عقاب الطبل للندابة
انظهر عقاب الشنا في فُومْ حوشنا نعملوها رنا
اللي طليو من قبل ما هم منا
سيدي حَلَفْ ابصوما للكفر
ما يبعث ابساط لروما
ايجي منتده راكب على مقيوما
عفى جنبها ما كلفاش اركابا
اتجي ساقطا من عقدها مصروما
امكامن كفلها من شعير الصابا
نهار فيه بولرواح كابر صوما حتى
الصريما اتكرها ما تابا
سواء ظالما ولا سواء مظلوما حتي
قصر عالي افقاهرا ما هابا
نهار قاهرا ما ولا ولا نزر
على الرفاقا والعماد على اللا
اوزود على باب الحصين اوحلا
راسا صحيح وليمنا ضرابا
ترامش تراكا علقليل الملا خلص
دين من يابى عليه طلابا
يحساب فكا البنى كان تعلى
طاح في ضراري عارفين ضرابا
عارفين ادراجا رمك فيه بومشط
خفيف الواجا

واذن افـــراس القـــصـــر فـــيـــسع هاجـــا
قـــال عـــقب راني لانبـــيـــاء واصـــحـــابا
بـوي كـــان طلـين عـــالمعـــاش اوجـــاب
انظـهـــر عـــقـــاب الطـبـل للـنـدابا
انا بوي مـــوش هوين للكفـــر مـــايبـــعث كـــلامـــا لين
اركـان حــرب ديما في البـرور امين دم الكفـارا لين طق اركـابا
اواراكـب علـى ســـابك شـــهـــيـــر وبـين
امـنـين ركـــرك البـــارود دارضـــبـــابا
انهـار ايمرض، انهـار فـيـه لولاد الامـلاح تعـرض بصـبح فـيـه
من فـجـره الرصـاص ايقـرض وقـعـدت صـبـايا صـغـارها ندابا
كـــان بـوي عـــالمعـــاش واجـــابا
تـظـهـــر عـــقـــاب الـطـبـل للـنـدابا
توا يهـــبـــهب عـــونا، او يفـــتح مـــفـــاتيح الفـــرج ياتونا
وتضـرب قـاهرا منا غـدت طابونا امنجي مناقـيـهـا وطيـر صـيـادا
اللـي واعـــدا بـالســوء يقـــصـــر دونـا وســيـــدي
مـــحـــمـــد للـحـــرب عـنـدا عـــادا
ديما عليـــه كـــبـــيـــدتي مطعـــوناً غـــريم
طـاليـــأ ســـيـــدي قـليـل أرقـــادا
اليـوم طاليا غـارمـهـا حـين ما عـارض قـومـهـا يـغـنمـهـا وهاجم عليـهـا
انتـــصـــر شلمـــهـــا صـنديد كـامش على دينا صلى وعـبـادا
انـكـان بـوي طـلـين عـــالمعـــاش واجـــابا
نـظـهـــر عـــقـــاب الـطـبـل للـنـدابا
ســيـدي نزل في الرمـلا بخـوتا بناسـا بالعـمـالا جـمـلا
وبعـدين طق الطبل وامـجـمـلا وطالق عليـه المهـر والزغـابا
طالق عليـه مـقـاوي وقـرب لشـحط الرصـاص شـهـاوى
عـدو الدين هذا تقـابلا بالفـاوي مـدفع يثـقل كـورتا شـبـشـابي

انكان بوي طلين عالمعاش اوجابا
انظهر عقاب الطبل للندابا
سيدي ولاّ، حرام ما دخل في باب واعر حلا
على الله يبدا بوي راس محلا بين المدينة وسدرة الجلابي
عابى عبا حربا قليل الملا تصبح بنات الريح ليه طرابا
من الفجر لاول لين عرج ظلا اللا خيلنا في خيلهم سلابا
صابح عليهم ساري، اولاد العروبا تستحي واداري
حس الدقاري دايرات حضارى تقول رعد يزلزل قريب سحابا
دقوا المهارى واركبوا حسارى وحطوا عريكم في جبل دنبابا
رقاريق تصعب على الهنتاري ولد العروبا من اللقيح شرابا
انكان بوي طلين عالمعاش اوجابا
انظهر عقاب الطبل للندابا
ما تسمعوا بدويكم راهو على سوق البلا تاكيكم
اللاهيقعي راهو ايهبع فيكم هالصلح هذا توحلوا في عقابا
انهار البنادق يطلعوا من ايديكم تبدو ولايا اف درجة ام عصابا
ولد طاليا ما هوش مومن فيكم من انهار مرداس الكرم والغابا
انكان بوي طلين عالمعاش اوجابا
انظهر عقاب الطبل للندابا

وعندما يسمع الشيخ المجاهد قصيدة ابنته الكبرى يقطب حاجبيه قليلا ويمسح بيده اليمنى على لحيته متفكرا، ثم يرد على قصيدتها بالابيات التالية:

سيدك نوي للهجرة لا زلبحاتا فايدا لا تجرا
وانزاز سيدك يا سميح النقرا يا وصف رتاع الصفاف السابا
مرات تبي بيت مره حجرا
حتى لين يوم النصر يفتح بابا
وكانك ظهرتي تظهري بالفجره
وكانك رحلتي عالوسيع اجنابا
عجرا وراء عجرا وراها عجرا سيدك افحط البندقا ما يابا

في البيت الاخير نلاحظ غصّات الألم واللوعة التي يعانيها المجاهد الكبير، فهو لم يكن ينوي ترك بلاده واهله ولكنه لا يستطيع تقبل الاهانة ولا يحتمل الاذى، ولأنه لا يمكن ان يسلم بندقيته، فانه لا بد ان يضحي باحد الاثنين ولا بد ان يختار بين الامرين، اما الاهل والبلاد او البندقية والشرف، ولعلم القارئ الكريم فان كلمة (عجرا) تعني الاساءة او الاهانة، وهو هنا يقول (عجرا وراء عجرها وراها عجرا) اي ان الاهانات متكررة وهو لا يقبل الاهانة، وايضا (افحط البندقا مايابا) لا يمكنه ان يضع بندقيته، ولقد قرر، ان يهاجر على امل العودة عندما يحل يوم النصر، وقد حدث، وكانت هناك مآسٍ ومتاعب تتحدث عنها كريمته بعد ان ترك والدها الاهل والبلاد.

وتلك سيكون لنا فيها حدديث آخر وكتاب آخر بإذن الله.

عبرة الحرب في الجزيرة

بقلم الاستاذ عبد الرحمن عزام

قامت الحرب في الايام الاخيرة بين عاهل الجزيرة العربية الملك ابن سعود، والامام يحيى ملك اليمن. ولقد تشاءم الناس بوقوع هذه الحرب، وأخذ كل يتكهن بعاقبتها السيئة - ولهذا المقال بحث الوطني الكبير الاستاذ عبد الرحمن عزام عن العبرة من هذه الحرب ، وأثرها في مصلحة الجزيرة العربية أكثر منها في خسارتها

قبل ربع قرن كان في الغرب رجل مبعد عن مقر الخلافة والسلطنة العثمانية . ولكنه لم يكن يشاطر المنفيين من رجال تركيا الفتاة آلام الحياة في فزان بل كان والياً على ملك يمتد من حدود مصر الى تونس. ذلك هو المرحوم رجب باشا الذي دعي من منفاه في ولاية طرابلس الى منصب وزير الحربية عقب الانقلاب التركي سنة ١٩٠٨

كان رجب باشا رجلا قد أغرته الاطوار بعيد النظر فوقع أثناء ولايته حادث جرالى حرب طاحنة بين القبائل الزنتان والرجبان وأولاد أبي سيف . وكان بين يدي رجب باشا من الوسائل المادية ما يمكنه من منع الحرب أو ايقافها على الاقل كما أن له من النفوذ الادبي ما يعينه على تحصيل ما يريد ، ولكنه أبى أن يتدخل وواجبه - فضلا عن آمال الناس فيه - أن يتدخل . فعجب الناس من أمره وألحفوا في سؤاله وهو لا يجيب . فلما جاء دور الاجابة عمل لانهاء الحرب واقرار السلم . ثم همس في أذن الناس أنه أراد أن تتعلم هذه القبائل صناعة الحرب وأنه لذلك يأمل أن يكون الزنتان والرجبان وأولاد أبي سيف أعصى القبائل على الطليان وأمنعها في الدفاع عن البلاد يوماً ما. ولم يعش رجب باشا طويلا ليرى كيف تحققت نبوءته . فان هذه القبائل استمرت في الكفاح ضد الطليان عشرين سنة حتى خرجت من أوطانها مهاجرة الى الجزائر في سنة ١٩٣

☆☆☆

هذا المثل ومافيه من عبرة جعلني من أقل الناس تشاؤما من حرب الجزيرة العربية في الشهور الاخيرة . فكنت لا أشاطر الناس كل الحسرة التي يبدونها . وكنت أقول لاصدقائي إن الحرب صناعة ولا بد لهذه القبائل العربية من ممارستها

والحقيقة أن الحرب في ذاتها شر ولكن أسوأ منها الركود الذي أصاب اليمن والذي كنت أخشى أن يصيب النهضة السعودية . إن ماوصل الى علمي عن حالة اليمن كاد يجعل قدرها محتوماً فالامام قدفتح بادارة - كما يقال - غايتها كنز المال ووسيلتها الرهائن وحصر همه في المخمسات السبع أو التسع

صورة من جزء من مقال بقلم الاستاذ عبد الرحمن عزام يتحدث فيها عن جهاد الليبيين الذين عاش معهم فترة من جهادهم البطولي، ومن المعلوم ان الاستاذ عبد الرحمن عزام قد شارك في كثير من اعمال الجهاد والسياسة في مختلف البلدان العربية ابان حقب الاستعمار.

ملاحظات نقدية حول المذكرات المنسوبة
لعون سوف المحمودى

مختار الهادى بن يونس
مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالى

مقدمة :

فى لحظات الغفلة والنسيان ينتهز الانسان الفرصة ليفعل ما يشاء بدون وعى لحقائق التاريخ كما لايتذكر فى لحظة الانسياق ان التاريخ مهما تطاول به الزمن فهو لاينسى من ذاكرته ما أوتى من أحداث سواء كانت خيرا ام شرا .

انه لايسجل من اخبار واحداث الماضى الذى هو من صنع وفعل الأفراد الاليكون عبرة وعظة يستأنس بها الانسان عبر مسيرة الحياة فى الحاضر وليكون منطلقا وقاعدة نحو المستقبل

ونحن فى هذا الحديث نسوق بدون شطط أو تجن على احد ولانقول الا مايراه الحقيقة والحكم فى ذلك الضمير ملاحظات اولية بدون تحفظ وخشية عما سمى مذكرات عون بن محمد سوف المحمودى وهى مذكرات سياسية حربية كتبت عن الحرب الأهلية المؤسفة والمحزنة بالجبل الغربى التى ظلت نارها مستعرة طيلة سنتى ٢٠ و١٩٢١ م والتى استغلها الايطاليون أبشع استغلال ثم تناولت الحرب الليبية الايطالية باقليم طرابلس الى حين الانتهاء من معركة الشرك بجنوب مصراته سنة ١٩٢٣ م .

وهذه المذكرات توجد بشعبة الوثائق والمخطوطات بمركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالى بملف عون بن محمد سوف تحت رقمى ٢٣ /أ ـ و ، ب و ج ، و٣٨ /أ ـ و ، ب ، أى لها خمس نسخ . (١)

وقد تم الحصول عليها من حفيد عون وهو محمد بن احمد بن عون حين اتصل به الباحث محمد البوجديدى الذى أودعها بارشيف الشعبة حيث وثقت وسجلت رسميا ضمن محتوياتها على ذمة البحث والدراسة

وقد ظلت هذه المذكرات محفوظة بارشيف الشعبة ولم اطلع عليها الابعد صدور كتاب معارك الدفاع عن الجبل الغربى ، لمؤلفه الاستاذ محمد سعيد القشاط فألفيت بين دفتيه نصوصا بلغ عددها ١٦ نصا تتفاوت فى الحجم مابين سطر الى الخمسة عشر سطرا كشواهد منقولة مما قيل عنها أنها مذكرات عون بن محمد سوف (٢) الامر الذى حفزنى أو دفعنى الى الاهتمام بها والاطلاع عليها ومن خلال الاوراق التى اطلعت عليها تبين او تكشف لى بكل وضوح من خلال [illegible] المذكرات اولا وخلوها من اية بيانات ثانيا عدم صحة نسبة هذه المذكرات [illegible] ان تلك ازالة غير صحيح وهو مجرد انتحال الامر الذى يجعلنى أتحفظ فى نسبتها بالقول [illegible] مجهول

(١) [illegible] وترتيب وتوثيق نسخ المذكرات تم من قبل كاتب البحث
(٢) [illegible] نصوص المذكرات المنشورة لدى محمد سعيد القشاط ، معارك الدفاع عن الجبل الغربى ١٩٢٢م ـ ١٩٢٥م طرابلس [illegible] العالمية للنشر والتوزيع والاعلان ، ١٩٨٣م ص ٩٢ ـ ١١٣ ـ ١١٩ ـ ١٢٤ ـ ١٢٥ ـ ١٢٦ ـ ١٢٨ ـ ١٤٤ ـ ١٥٧ ـ ١٦٣ [illegible] ١٧٤ ـ ٢٤٧ ـ ٢٦٢ .

الصفحة الاولى من الدراسة التي اعدها الاستاذ مختارالهادي بن يونس وتناول فيها بالنقد المذكرات التي نسبت الى عون سوف المحمودي، وقد اثبت ان نسبتها اليه انما هي تزوير متعمد وهو تجني على التاريخ الوطني.

وفضلا عن ذلك وجود كثير من الفروق بين كل نسخة وأخرى كما أن بعضها اسقاطاً وتغييراً لاجل انتحال نسبتها وسأبين ذلك تفصيلا باعداد ملاحظات مبدئية حولها للقارىء ليقف على حقيقتها وليكن القارىء على يقين من التزامي بحرفية النص وعدم التدخل فيه بأي شكل من الاشكال

عون بن محمد سوف المحمودي :

نسبه عون بن محمد سوف بن محمد اللافي المرموري المحمودي السليمي أصلا ولد بصرمان سنة ١٨٩٣ م ونشأ وتربى في كنف والده الذي لم ير الاستقرار الابعد ان اتفق مع الاتراك وعينوه مديراً لبئر الغنم ثم نقل الى مزده كمدير لها والتي ظل بها الى سنة ١٩١١ م (٣) حين نزول الايطاليين الى بر ليبيا غزاة وكان وقتها عون صغير السن لم يتعد عمره الثامنة عشرة سنة وفي ظل هذه الظروف السياسية والاجتماعية مع حالة التعليم المتدنية التي كانت سائدة آنذاك لم يحظ الابقليل من التعليم ، ومن خلال رسائله أرى ان مستوى تعليمه وثقافته متواضع ومحدود اذ لم تمكنه ظروفه من الدراسة والتحصيل وقد أكد لي ذلك كثير ممن يعرفونه معرفة شخصية .

وفي سنة ١٩١٣ م هاجر الى تونس ومنها الى سوريا صحبة والده والتي ظل بها الى سنة ١٩٢٠

وفي سنة ١٩٢٠ م عاد الى ليبيا في بداية اشتعال نار الفتنة بين اهل الجبل ، وشدتها كانت أقوى من أن تترك المرء دون الانحياز الى احد الطرفين .

وفي سنة ١٩٢٢ م كان ضمن اعيان المجاهدين يتصدى برجولة وشهامة وثبات للايطاليين عند مابدأوافي التوجه لاعادة احتلال الجبل .

واستمر يقاتل من مكان الى مكان آخر بدون كلل أو ملل بالجفارة ويفرن وغريان وترهونة الى ان هاجر الى اراضي ورفلة .

وفي سنة ١٩٢٣ م انضم برجاله الى صفوف المجاهدين واشترك في عدة معارك ضد الايطاليين كان آخرها بجنوب مصراته في معركة المشرك التي استشهد فيها سعدون رحمه الله .

وبعد هذه المعركة ظل ببني وليد الى أن اشترك في التصدي للايطاليين عند غزوهم لها في ٢٣ ديسمبر ١٩٢٣ م بان اشترك في معركة قصر ابن غلبون (٤) وبعد احتلال بني وليد مباشرة اتجه شرقا متخذاً الطريق للهجرة الى مصر سنة ١٩٢٤ م صحبة والده الشيخ محمد سوف

وفي سنة ١٩٣٠ م عاد الى ارض الوطن زائرا لمدة قصيرة عاد بعدها الى مصر من جديد اذ لم يطب له المقام بها

وفي سنة ١٩٤٥ م اندحر الايطاليون أمام قوات المحور فعاد الى بلده وفي سنة ١٩٤٧ م سافر الى ايطاليا على إثر مرض ألم به ولكن مشيئة الله أبت الاأن تأخذ وديعتها يوم ١٤ اغسطس ١٩٤٧ م بعد أن أجريت له عملية جراحية وهو له من العمر ٥٤ سنة وقد جيء بجثمانه الى طرابلس وشيع في موكب مهيب الى مثواه الاخير حيث دفن بمقبرة سيدي منيذر بطرابلس وذلك بعد ان ابنه الكثيرون من عارفيه واصدقائه رحمه الله

رموز المذكرات :

قبل البدء في الحديث عن هذه المذكرات علينا ان نحدد ونذكر الرموز التي سنستخدمها في

---

٣ - المصدر نفسه - ص ٢١٧

٤ - رواية سالم عبدالسلام الشامس رفقه في المعركة وهو لازال حيا يرزق

ضبطي - ربطي الصلح - تحت الحفظي - الى سجني - ازباطي - ضابطي - اهالي شطرطي سقطي الطيار - الراص الرابطي - تشكلت خطوطي .(٧)

وايضا هذا الاثر ظاهر في النسختين ٢٣ / ب و ٢٣ / ج وصاحب هذه المذكرات كما تحدث عن محمد سوف وخليفة بن عسكر ... ان الباروني وعبيده بن زكري ومحمد افكيني ومحمد جلبكا وغيرهم ايضا تناول بالحديث عوسبن محمد سوف مثلهم بضمير الغائب .

البيانات الاساسية :-

جميع النسخ التي بين ايدينا خالية من البيانات الاساسية والضرورية التي كان يجب ان تذكر حتى لا يحصل الخلط والإضطراب في نسبتها ، وهي مما يؤكد على ضرورتها في منهج البحث لانها في حد ذاتها تشكل جزءاً مكملا لمعلومات المذكرات وهي :-

١ - المقدمة والخاتمة اى الدواعي والاسباب للكتابه .
٢ - التاريخ اى تحديد زمن كتابتها .
٣ - اسم الكاتب للمذكرات وصفته .
٤ - مكان كتابتها أفي اثناء الحرب بداخل ليبيا ام بديار الهجرة .
٥ - اكانت اصلا ام نسخة وان كانت نسخة فمن الناسخ لها وما تاريخ النسخ .

ولخلوها جميعا من مثل هذه البيانات الاساسية والضرورية تعد لكاتب مجهول الى حين العثور على بقية الاوراق الناقصة منها او على الاصل وقد نتوصل من خلالها الى معرفة كاتبها الحقيقي وما دعوى نسبتها لعون وهي بوضعها الحالي الا مجرد انتحال واضح لا يؤيده العقل او يقبل به منطق العلمي او يرتضيه الضمير .

تصنيف المذكرات :-

قلنا ان للمذكرات خمس نسخ وهي جميعا غير متكاملة وقد تم تصنيفها من خلال حقيقتها البائنة والواضحة ووضعها المشوه والمحرف الى مجموعتين :-

المجموعة الاولى تحت رقم ٢٣ / أ - ٢٣ / ب - ٢٣ / ج يتحدث خلالها الكاتب بضمير المتكلم مثلا :-

« .. رجعت من البلاد تركيه وعند وصولنا .. »

والمتحدث او الكاتب الحقيقي للمذكرات مجهول واما بالنسبة لعون فهو يتحدث عنه بضمير الغائب مثلا :-

١ - قال عن عون :-

« .. توجه لهم عون بن محمد سوف واحد ازباط احمد عبدالمجيد المصري واخذ المدفع سريع الطلق وقسم من العسكر ... »

٢ - واستمر المتحدث عنه يقول :-

« .. ورجع عون والقوة العسكرية ... »

٣ - قال :-

« .. منهم تسلم المدفع وعون بن محمد سوف والضابطي والعسكرية ... »

وهذه النصوص تكفي للتاكيد على صيغة الحديث بضمير المتكلم بالنسبة لكاتبها الحقيقي و المجهول واما بالنسبة لعون فهي بضمير الغائب .

وعن هذه المجموعة تمت صياغة نسخة جديدة مختصرة ولدينا منها نسختان وهما تشكلان

---

٧ - انظر المذكرات ٢٣ / أ المنشورة ضمن ملاحق البحث .

نلاحظ في نهاية هذه الصفحة تحت الارقام (١ - ٢ - ٣ -) سوء استعمال اللغة العربية وهو دليل قاطع على تدني تعليم كاتب المذكرات وربما هو ليس عربي على الاطلاق كما اكد الناقد في دراسته».

المجموعة الثانية ٣٨ / أ و ٣٨ / ب وقد تغير اسلوبها بان اصبح الحديث بضمير المتكلم اى اصبح عون بن محمد سوف هو المتكلم والكاتب خلافا لواقع وحقيقة المذكرات .

وهنا اسوق امثلة على ذلك وهى نفس الأمثلة السابقة بعد حصول التدخل فيها بالتحريف :-

١ - أصبح عون يقول :-

« . . وتوجه اليهم العاجز وبرفقتى احمد عبدالمجيد المصرى وقسم من العسكرية ومدفع . . . »

٢ - واستمر يقول :-

« . . فرجعت انا وقسم العسكرية . . . »

٣ - وقال :-

« . . وطلبوا منا ان نسلم لهم نفسى والعسكرية والمدفع اسرى . . »

وفى الصياغة الجديدة يلاحظ كثرة استعمال كلمة العاجز فى النسختين كما حصل بها إسقاط ما يزيد على الثلث من مواضع مختلفة ونتيجة لهذا التصرف المقصود لم يعد للمذكرات اية قيمة كوثيقة تاريخية واصبحت لا يعتد بها وهى بشكلها ووضعها الحالى .

انتحال المذكرات :-

ونظرا لخطورة مثل هذا التصرف فى المذكرات الذى يتنافى ومنهج البحث الذى يحرم المساس بالنص الاصلى بالتحريف فيه سواء بالاسقاط او الدس[9] او التعديل بل يؤكد على ضرورة الحفاظ على صورة النص او المتن الاصلى وبالابقاء على كل ما به من عيوب ونواقص لكى يكون مقياسا صحيحا يستدل به على معرفة عصر المذكرات الثقافى والاجتماعى والسياسى من خلال معلومات كاتب المذكرات وما التصرف الذى تم فيها الا تجرد من الامانة العلمية وانتهاك لحرمة نصوصها فضلا عن اهدار قيمتها كمادة مرجعية من اجل انتحال نسبتها لعون بن محمد سوف بحيث اصبحت بضمير المتكلم اى اقحم بعون بان اصبح متحدثا وكاتبا ومؤرخا بدل الحديث عنه بضمير الغائب كعين من اعيان الجهاد والنضال من قبل كاتب مجهول تم ذلك دون التنبه الى خطورة مثل هذا التصرف وما ينجر عنه ويترتب عليه من نتائج وانعكاسات سلبية على قيمة المذكرات وهذا التصرف ليس الاول او الاخير فهناك الكثير من حالات التصرف فى الوثائق بالحذف - والزيادة - والتزوير - والانتحال توجد منها امثلة حية بين يدى تم كشفها مؤخرا قام بها البعض ممن يتطلعون فى محاولة فرض انفسهم على التاريخ فى حين غفلة وانسياق وراء الرغبة فى بناء امجاد زائفة ومفتعلة[10] !

فهل [illegible] هذه التصرفات غير مسؤولة بان يقولوه ما لم يقله ويجعلوه كاتبا ومؤرخا ؟

---

[8] [illegible] واسقاط ما لا يعجبه من [illegible]

[illegible] قسم البحوث والدراسات الادبية [illegible]

[9] [illegible] عن مارى انطوانيت .

حسن عثمان ، منهج البحث التاريخى [illegible] ١٤ ، ١٥

[illegible] سنة كاملة اى عهد اربعة [illegible]

[illegible]

[10] [illegible] بجامعة ميراسكا بالولايات المتحدة

حسن عثمان ، نفس المصدر ، ص ١٥

يصل بنا الاستاذ مختار هنا الى التاكيد بالدليل والبرهان على ان المذكرات مزوره وان الذي استخدمها انما كان ينتوي غرضا خاصاً، وذلك مخالف لمنهج البحث العلمي.

ولماذا هذا المساس بالتغيير في الصيغة والملامح الحقيقية للمذكرات ؟
الم تعد المذكرات والكتب المجهولة الكاتب او المؤلف ذات قيمة وشأن ولا تصلح ان تكون مصدر او مرجع ؟



الوثيقة رقم (٣) وهي الصفحة الاولى من النسخة ٣٨ ـ أ من المذكرات بخط احمد عون

صورة من اوراق المذكرات وهي بخط اليد وقد نسبت الى عون سوف.

ايطاليا احتلالا ونمايلها في المراكز التي احتلتهم اعدام وسجن وربط . . . » .

والاستاذ القشاط فى كتابه « خليفة بن عسكر الثورة والاستسلام » حين .

نشره لرسائل سليمان البارونى قال : ـ

« . . . ولقد تركت جميع الرسائل والوثائق التى تضمنتها هذا الكتاب باخطائها الاصلائية والنحوية دون تدخل منى أو تعديل وذلك حفاظا على صورة النص . . . » . (١٢)

هذا كلام صحيح وهو مبدأ أو قاعدة من قواعد التوثيق والتحقيق والبحث النزيه وهو الحفاظ على صورة النص كما هو بدون تدخل فيه باى حال من الاحوال .

ولكن اراه فى كتابه « معارك الدفاع عن الجبل الغربى » قد تخلى عما قاله فى كتابه « خليفة بن عسكر » ولم يلتزم به بأن أجاز لنفسه حق التصرف بالزيادة والتعديل والتصحيح فى أصول النصوص المأخوذة عن المذكرات فضلا عن علمه بحقيقة وضع نسخ المذكرات الاخرى من اسقاط وزيادة وانتحال والتى انتهكت حرمتها عدة مرات وأهدرت قيمتها كوثيقة أثرية .

ومجموع نصوص نسخة المذكرات المنشورة بكتاب معارك الدفاع عن الجبل الغربى تعد نسخة شبيهة فى صياغتها بالنسختين ٣٨ / أ و ٣٨ / ب المنتحلتين ما عدا النصين الواردين بصفحتى ١٧٤ و ١٧٥ فيها لايوجدان الا نسخة ٢٣ / أ فقط المنشورة بآخر البحث ضمن الملاحق .

وفيما يلى امثلة على ما تنفرد به النسخة السادسة من زيادات فضلا عن التصحيح النحوى والاملائى بتعديل بعض الكلمات

١ ـ ففى ص ٩٢ ، ٩٣ أضيف الى النص . ـ

« . . . وقبل وصوله اخليت المركز وقمت بتوزيع قواتى على الهضاب والجبال المحيطة ببئر الغنم والمشرفة على الطريق المؤدية الى يفرن . . . » .

٢ ـ وعند الحديث عن التحام المعركة ببئر الغنم أضيف : ـ

« . . . وكانت قوة العدو أكثر منا عددا وجلها من الاحباش لاتقل عن ستة آلاف جندى مزودة بجميع ماتحتاج اليه من المعدات الحربية . . . » .

٣ ـ وعند الحديث عن الشيخ الصادق الكبير الحرارى قاضى ـ ونائب مدير بئر الغنم قال : ـ

« . . . حتى انه كان يقول لى دائما الكلمة التالية : ـ انهض شمايلك يابك وأضرب بالسوط . . . » .

٤ ـ واستمر التدخل بالتعديل فى النص كالآتى : ـ

« . . . ولكنه للأسف كان على اتصال مع العدو بواسطة بن تنتوش . . . » .

٥ ـ وفى نطاق الاستعداد وجمع القوة أضيف : ـ

« . . . وفعلا تمكنت من تجنيد مليقابيه د٤٠ مسلحا فى اليوم التاسع من المعركة من قضاء الحوض وتاغمه . . . » .

٦ ـ وفى ص ١١٣ زيدت على النص الذى ورد فى المذكرات الآتى : ـ

« . . . قاصدا احتلال يفرن . . . الطريق الوحيد المؤدية الى يفرن . . . اخذت جميع

---

١٢ ـ القشاط خليفة بن عسكر ص ١٢

يبرز هنا الانتحال وانتهاك حرمة المذكرات التاريخية، وقد اوضحه الاستاذ مختار بعد دراسة علمية متانية ومقارنة بين نسخ المذكرات التي نسبت لعون سوف، ولقد اراد القشاط بذلك العمل الذي قام به الاساءة الى اناس كان لهم دور طليعي في الجهاد الوطني، وما درى ان الحقيقة لا تخفى طويلا.

الصوارى وهجمت بهم دفعة واحدة حتى اختلطنا جميعا ... وبعدئذ انهزم بدون نظام

وصرت الاحق بالصوارى فلول قواته المنهزمة ...»

٧ - وفى ص ١١٩ زيدت العبارة التالية : -

« ... وبعض من الشاشات ... » .

٨ - وفى ص ١٢٥ زيدت ايضا : -

« ... والصوارى ... » .

هكذا وبكل بساطة ويسر وفى حين غفلة يتم تسريب وتمرير الجمل والعبارات وتعدل اخرى وتسقط ثالثة لعلها تصبح على مر الايام حقائق ثابتة وتكون مصدرا من مصادر تاريخنا الذى لم نفلح بعد فى كتابته بصورة صحيحة وشاملة لما يعتريه من عراقيل كعدم التزام الصدق والتجرد من الانانية والروح القبلية وعدم اتباع منهج البحث التاريخى وأصوله ، وندرة المصادر ايضا

فعلى المؤرخ أو الكاتب أن لايقبل أو يستخدم كل وثيقة أو أى مخطوطة مهما كانت قبل التثبت من صحة نسبتها لكاتبها وصحة وخلو نصوصها من الدس وايضا صحة معلوماتها ، اى قبل استخدامها عليه ان يقوم بعملية نقد منهجى من جميع النواحى حتى لايقع فى الخطأ وحبائله مثل ماوقع الاستاذ القشاط الذى ربما كان عن حسن نية ولكن حسن النية لايشفع ولايبرر للكاتب موقفه مهما يكن .

وعلى العموم فالنسخة السادسة التى استخدمها الاستاذ القشاط بها زيادات واضحة ربما كانت من وضعه .

ولكن تدخله فى النص الاصلى بالتعديل والتصحيح فضلا عن علمه بحقيقة المذكرات كان صريحا .

تساؤلات : -

وقبل اختتام الحديث توجد عدة أسئلة ربما تتبادر الى ذهن القارىء المتتبع والمهتم الذى من حقه ان يتساءل ليتعرف على الحقيقة من جميع جوانبها ولعلى أوفق لاستكمال فائدة بزيادة تفصيل وتوضيح ، أجيب عليها باختصار وبقدر الحال : -

١ - مادامت المذكرات لم يكن عون كاتبها الحقيقى و نسبتها اليه مجرد انتحال وما هو الا ناسخ فقط اذن أين الصورة الاصلية للمذكرات التى نسخ عنها عون ؟

من خلال واقع نسخ المذكرات الخمس التى بين ايدينا وبوضعها الحالى يكون ثابتا عدم صحة نسبتها لعون وما هو الا ناسخ فقط وما لم يظهر من جديد ينقض هذا الرأى الذى اتمسك به بدون جوز على احد أو تحيز لأى اعتبار الا للضمير المحتكم اليه فحسب .

والسؤال سوف يظل قائما اذ لا يمكننى الاجابة عليه ولعل الايام تجود بما يوضح الحقيقة ويزيل اللبس والابهام عنها لتتمكن من معرفة الكاتب الحقيقى للمذكرات وبالتالى يصحح وضعها ويعاد لها اعتبارها كوثيقة صحيحة مسلمة لها قيمة أثرية .

ربما لم نعد في حاجة الى تكرار ما ذكرناه حول تزوير المذكرات فقد برهن الباحث عن ذلك حيث قال (وعلى العموم فالنسخة السادسة التي استخدمها الاستاذ القشاط بها زيادات واضحة ربما كانت من وضعه).

مراجع الكتاب

(1) معجم معارك الجهاد في ليبيا — خليفة التليسي

(2) ما بعد القرضابية — خليفة التليسي

(3) العدوان او الحرب بين ايطاليا وتركيا في ليبيا — محمد مصطفى بازامه

(4) معارك الجهاد الليبي — خليفة التليسي

(5) مع الايطاليين في حرب طرابلس — آرسي، ترجمة منصور عمر الشتيوى

(6) الاتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية — عزيز سائح وعبد السلام ادهم

(7) نحو فزان — ادولفو غراتزياني ترجمة : طه فوزي

(8) موسوعة روايات الجهاد — المبروك الساعدي

(9) معارك الدفاع عن الجبل الغربي — محمد القشاط

(10) ماضي شمال افريقيا — هاشم الحسيني

(11) دراسات في تاريخ ليبيا القديم — د . مصطفى كمال عبد العظيم

الفهرس

عبد الوهاب محمد الزنتاني

* كاتب صحفي ليبي ولد في الزنتان سنة 1936.
* درس في ليبيا ثم الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفياتي.
* الف وترجم العديد من الكتب في العلوم والآداب والسياسة والتاريخ.
* عمل في الادارة الليبية ودرس علوم اللاسلكي ثم شغل مناصب تنفيذية (عميد بلدية بنغازي ــ محافظ بنغازي) وانتخب أميناً للاتحاد الاشتراكي في بنغازي.
عمل سفيراً لبلاده في عدد من دول أوروبا وآسيا وأفريقيا، منها قبرص، لبنان، الاتحاد السوفياتي، فنلندة، السودان.
* شغل منصب أمين عام منظمة الأحزاب الاشتراكية في البحر الأبيض.
* مارس العمل الصحفي من سنة 1956 الى سنة 1979 في صحف (الحقيقة والعمل في ليبيا والناصرية وصوت العرب والموقف العربي في مصر.

أهم مؤلفاته :

1 ــ هندسة الراديو والتلفزيون
2 ــ المسطرة الحاسبة
3 ــ وثائق الوحدة العربية
4 ــ خرافة الستار الحديدي
5 ــ الاتحاد السوفياتي نظرة من الداخل
6 ــ نفط الشرق الأوسط وأزمة النفط في العالم
7 ــ ثورة الادغال في أفريقيا
8 ــ مولد دولة الكونغو
9 ــ تاريخ المخابرات الاسرائيلية
10 ــ مذكرات ذو الفقار علي بوتو.
11 ــ أصدر عدداً من الروايات والمسرحيات

* متفرغ الآن للترجمة والتأليف ويقيم في بلدته التي ولد بها (الزنتان)

نشر مشترك
الدار الجماهيرية
للنشر والتوزيع والاعلان
دار اليوم
للاعلام المحدودة